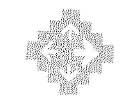
ذكريات طفولة [٣]

# مارسيل بانيول



# زمن الأسرار

ترجمة : محمد سيف






سلسلة كتاب شرقيات للجميع ( ٤٢ )







ذكريات طفولة [٣]

# زمن الأسرار

Souvenirs d'enfance (3)
Le Temps De Secrets
Marcel Pagnol
Editions de Fallois

# ذكريات طفولة (٣)
# زمن الأسرار

مارسيل بانيول

ترجمة: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧





دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣ س.ت: ٢٦٩١٩٨



صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة

غلاف وإخراج: ذات حسين

لوحة الغلاف
تفصيلة من «أطفال» لجان إدوار ڤيولار

رقم الإيداع: ٩٦/٨٢٣٦
الترقيم الدولي: ISBN 977-283 - 012 - 4

ذكريات طفولة [٣]

مارسيل بانيول

# زمن الأسرار

ترجمة : محمد سيف



دار شرقيات للنشر والتوزيع



بعد حكاية القصر المرعبة التي اختتمت على هذا النحو المجيد بانتصار بوزيج، حلت السعادة بالحصن الجديد، وبدأت الإجازة الكبيرة.

ومع ذلك لم يمر اليوم الأول بها على هذا النحو الذي عايشته من قبل في خيالي بقدر كبير من الفرح والترقب، فلم يأت «ليلي» لكي ينادي عليَّ في الفجر، كما وعدني، وظللت مستغرقا في النوم حتى الثامنة صباحاً.

وأيقظني صوت الصرير الناعم لمسحج الخشب.

ونزلت في عجلة لأستطلع الأمر.

كان أبي بالشرفة، يقوّم اعوجاج باب قد انبعج بفعل برد الشتاء، وكانت النشارة الخارجة من المسحج تتقوس وتعلو وهي تلتف حول نفسها حتى تصل إلى أسفل ذقنه. وأشار لي بأصبعه وهو منكب في عمله، إلى ورقة معلقة بشوكة نخيل على الفرع الأسفل للتينة، وتعرفت فيها على خط وأسلوب عزيزي «ليلي».

«هذا الصباح لن نقدر أن نذهب للفخاخ، أنا مع أبي سأذهب لحصيد غيط باستان. تعال. نأكل تحت البرقوق. تعال. على مهلك. صديقك ليلي معه البغل، ويمكنك أن تركب. تعال، هو نفس غيط عصافير تين العام الفائت. تعال.»

كانت أمي، التي نزلت بدورها، قد شرعت تكركب في المطبخ.

وأثناء ما كنت أتذوق قهوتي باللبن، أعدت لي كيس القماش واضعة به خبزاً، وزبداً، وطبقاً، وشوكة، وكوباً، وبعض الملح في عقلة من البوص، مسدودة بسدادة من البلّوط. وحملت كيسي على كتفي، واستندت على عصاي في يدي، وأقلعت وحدي باتجاه التلال الساحرة.

لم يكن، أمامي، للذهاب إلى «حقل عصافير التين» إلا عبور هضبة البراري الصغيرة والنزول إلى الوادي، ثم بالصعود على المدق، أجدني في الحقل المذكور في أقل من ساعة، مروراً بكتف القمة المستديرة، حيث غابة الصنوبر السوداء الأخيرة، بأعلى الصخرات الثلاث البيضاء المتصدرة، والمنتصبة في السماء الصباحية.

كانت شمس يوليو القوية قد نشفت صراصير الحقل، وعلى حافة طريق البغال. كانت أنسجة العنكبوت تلتمع بين أشجار الوزال. وأثناء صعودي على مهل باتجاه كوخ باتسيت، رحت أسير بصندلي على آثار خطى العام الماضي، وتعرّف المشهد الطبيعي عليّ.

وعندما دلفت إلى منعطف «ريدونو»، ظهر أمامي عصفوران، مُقنّزعان، كبيران في حجم الشحارير، خارجان من شجرة بطم، فرفعت عصاي على كتفي، بهدوء ( كما يفعل العم جول )، ثم صحت «طاخ! طاخ!» وأعتقد أنني أصبت أولهما، لكني صوبت بانخفاض كبير عن مستوى الثاني وأصابني ذلك بالقنوط.

كان كوخ الراعي القديم قد فقد نصف سقفه، ولكن بدت التينة، عبر الحائط المهدم، كما هي لم تتغير، وقد انتصب بأعلى تاجها الأخضر، فرعها الميت القديم كما هو حال وضعه دائماً، بلونه الأسود شديد السواد، في قلب السماء اللازوردية.

واحتضنت جذعها بذراعي، تحت طنين النحل الذي راح يمتص رحيق

التين المتدلي من أغصانها، وقبلت قشرتها التي تشبه جلد الفيل وأنا أغمغم بكلمات الصداقة. ثم أخذت طريق المنحدر الطويل الذي يهيمن على السّهل في أخدود «الجاريت »... وعثرت أعلاه على الأحجار الصغيرة التي كنت قد أقمت منها أكواما بيدي لجذب طيور أبيض العجيزة، وعصافير الجبال... فقد كنا ننصب فخاخنا أسفل هذه الأكوام بالعام الماضي، أي في الزمن الغابر...

وعندما وصلت إلى أسفل تاج قمة التاومي، جلست تحت الصنوبرة الكبيرة المائلة، وتأملت المشهد الطبيعي بتأن.

بعيداً، بعيداً جداً، إلى يميني، فيما وراء التلال المنخفضة، كان بحر الصباح يتلألأ أمامي، أسفل القمم العليا لمرسيليا، المجردة البيضاء كأنها سلسلة جبال، كانت السُّحب الخفيفة تطفو على طول وادي الهوفون.. وكان بعد ذلك، إلى يساري، المنحدر المورق العالي لسهل العقاب يستند إلى الهضبة الهائلة التي تعلو وراءه، في أخدود ناعم، يصل حتى عنق الجرلبان.

وعلا نسيم خفيف، حاملاً معه فجأة عطر السعتر واللافندر. ومتكئاً على يدي المرتكزتين خلفي، فارداً نصفي الأعلى للخلف، رحت أتشمم وأنا مُغلق عيني، الرائحة المتقدة لموطني، حين شعرت أسفل كفي، تحت بساط غصينات الصنوبر، بشيء صلد لم يكن حجراً. فنبشت الأرض، وأخرجت فخاً نحاسياً، كان واحداً من فخاخ بلابل الشعير، أسود صدئاً، هو بالقطع واحد من هذه الفخاخ التي فقدناها يوم الرعد، بنهاية الإجازة الماضية... وتأملته طويلاً، بانفعال كانفعال عالم الآثار الذي يكتشف في نهاية التنقيب مرآة منقرضة لملكة بائدة... لقد ظل هنا إذن طيلة عام، تحت مسلات الشوك الجافة التي تساقطت بهدوء حوله، الواحدة بعد الأخرى، بينما اعتقدت على مر الأيام بأنه ضاع للأبد...

ووجدته في منتصف حقل، يتمدد بشكل ضيق في عمق الوادي، محصوراً بين حائطين عاليين صخريين، كان ينبسط إلى يمين غابة من أشجار الزيتون المعتنى بها، وإلى الحافة اليسرى لأكمة كثيفة، من أشجار البرقوق تعج بالثمار المستديرة، التي بدأت في الازرقاق.

كان فرانسوا يسير مباعداً بين ساقيه وهو يقوم بحش المحصول، وكان «ليلي» يتبعه، يجمع الحصيد في حزم، كان قمحاً من النوع الأسود، أو حنطة الفقراء. كانت سنابله مبعثرة، وكانت بينها أيضاً فراغات كبيرة، فقد أكلت الأرانب هذا القمح وهو أخضر، كما يفعل الأطفال المتلافون. وفي أعقاب موت خيال المآتة. الذي عرته الفئران من ثيابه، جاءت طيور أبو زريق، والقندس، والدرّاج ونقرت على راحتها حبوبه الجافة.

وعندما رحت أنعي هذا الخراب، غرق فرانسوا في الضحك، وقال: «لاتأسف على القمح الضائع، فقد أتى بثمنه ! ».

وأطلعني «ليلي» ، بالفعل، على أن أباه كان يقتنص في الحقل أرنبين أو ثلاثة في اليوم، كان يضاف إليهم، عند فقس الطيور، دزينة من أفراخ الدُّراج يومياً.

«أنا أفعل هكذا كل عام، قال فرانسوا، وبعد ذلك نجمع مايتبقى من القمح للدجاج». وبدا لي أنه على هذه الأراضي البعيدة والجافة، تعد هذه الطريقة هي الوحيدة المعقولة لتصور الزراعة.

وأفرغت كيسي على العشب بيسما كان «ليلي» جالساً على قماش زكيبة مبطنة بالجلد. وصنعنا لأنفسنا مأوى تحت الحافة ، بتقريب ثلاثة أحجار ضخمة، غطينا أعلاها بتسقيفة من عصون الرند وإكليل الجبل، وجلس «ليلي» أمام شبكة حديدية تحمل قطع اللحم وأصابع السجق الثلاثة التي أتيت بها. وراحت تسيل قطرات الدهن من الشواء، الذي جعلت رائحته العبقة الثقيلة لعابي يسيل ككلب صغير.

كان الغذاء لذيذاً، والمحادثة التي قطعها الصمت الطويل الذي صاحب عملية المضغ بناءة للغاية.

وراح فرانسوا يقطع قطع خبزه بمديته، وأخذ يأكل بوقار، وانتفخ خداه أثناء الطعام في صمت شبه احتفالي. لكنه لاحظ فجأة طبقي المصنوع من البورسلين وطفق يضحك، كما لو أنه يضحك من مزحة مفاجئة. وعاد للضحك منه عدة مرات أثناء الطعام، وهو يشير عليه بطرف مديته، ويعاود الضحك بلا صوت، وأكتافه تقفز حتى تصل إلى أذنيه.

وعندما انتهينا من الموز، قشر موزته وهو يقول: « هذا الموز أكلت منه بالفعل، في مرسيليا، عندما كنت بالخدمة العسكرية !»

ونظر إليها، وراح يضحك مرة ثانية، ثم التهمها.

في هذه اللحظة. عبرت الحقل بتؤدة سحلية كبيرة ضخمة، ولم تكن بعيدة عنا. وأشار لي فرانسوا عليها بأصبعه.

– هل تعرف ماهذه ؟

ـــ بالطبع، إنها سحلية من نوع «لامبيرت ». في العام الفائت، اقتنصنا منها دزينة بفخاخنا، بغير أن نتعرض لها !

– عندما كنت صغيراً، قال، أكلت خمسين منها على الأقل. كان أبي

يسلخها ويفرغ أحشاءها، ثم يشويها لعشر دقائق على الحطب...

- أكانت لذيذة ؟

- لم تكن سيئة الطعم. ولكن عليك أن تتعود عليها. على كل حال، هي أفضل من الثعبان...

وواصل الحديث، بنوع من حيرة المتذوق، ثم أضاف:

- «... أنا أحدثك عن ذوقي... فهناك من يحب طعم الثعالب. ولكني أجد أن للحمها رائحة، وأنا أفضل عليها طعم الغرير.. »

وراح يسلك أسنانه بطرف مديته، ثم أغلقها بطرقعة جافة، وتابع الحديث:

«... السنجاب هو الآخر، ليس سيئاً، إذا لم تكن تخشى طعم الراتنج الصمغي. ولكن حتى، في نهاية الأمر، كل هذا لايعادل طعم القنفذ. ».

ووجدت صعوبة في تصديق أنه يتبع نظاماً غذائياً غريباً على هذا النحو فسألت:

ـ هل أكلت كل هذه الحيوانات ؟

ـ بالطبع.

واستدار ناحية «ليلي»:

« إن أناس المدينة، يدهشهم دائماً أننا نأكل القنافذ، ومع ذلك فهم يأكلون توتياء البحر ! »

في أعقاب هذا الرد المنتصر، بدا عليه التأمل للحظة، وأضاف فجأة:

« على مايبدو، كذلك، أنه يوجد أقذار يأكلون الضفادع ! »

وفتح فمه على آخره، ثم أطبق ببطء فكيه، كما لو أنه يلتقم ضفدعة بين

أسنانه.

« أوه!» صاح «ليلي» بتنهيدة متأسية، «لا تتحدث عن ذلك، أنت توجع قلبي!»

ونهض فرانسوا:

« وماذا تريد، قال بنغمة فلسفية، إن لنا الحق في القول بأن كل الأذواق موجودة بالطبيعة، وأنا، ذوقي، هو القنافذ. هيا تقدم ! إلى العمل ! »

وأمسك بمنجله، وأمسك «ليلي» بمديته. وتعهدت التقاط مايتساقط وراءهما، لأصنع منه لفافات صغيرة قوام كل منها عشر سنبلات، تصلح فيما بعد لتسمين الدراج.

هذه الأعمال الفلاحية استمرت حتى مغيب الشمس وكان اليوم مرحاً. وفي العودة وثبنا فوق الحزم المكدسة على العربة، بينما راح فرانسوا يجر البغل من رسنه.

سرنا في الظل البارد للوادي. بأعلى، على طول الحافة، كانت شعاعات الغروب تذهّب الصنوبرات المنحنية فوقنا، وتسبب مرورنا في هروب أسراب الزرازير.

وبدأت أسر له ويسر لي ونحن نائمان على بطوننا فوق القش المتقصف. وبغير أن ينظر لي، قال ليلي في صوت خفيض:

« كنت تواقا لرؤيتك.»

ـ «وأنا أيضا. »

وراحت رجات العربة تؤرجحنا في العطر الطازج للقمح ذي الأشواك. وأردف:

« صباح غد، سنذهب للفخاخ، ولكن يجب أن نعود في ساعة مبكرة.»

ـ لماذا ؟

ـ لكي تذرو هذا القمح. ثم بعد الظهر، لابد من ضرب الحمص الذي جف في الصومعة. وبدا قلقاً، ومكتئباً. ثم تابع: « الآن، يريد أبي مني أن أساعده كل يوم، لأنني قد نبت لي الشعر ! » ومد ساقيه لكي يريني، على سمانتي قدميه، الزغب الأسمر الذي هدد حريته:

«سأذهب معك لمساعدتك» قلت.

– هذا لن يقلل من وقت عملي، لأنه لا ينتهي بالانتهاء من الحمص. ففي الريف، الآن، كل يوم يوجد شيء نعمله. لكن هذا ليس سبباً لافتقادك إجازتك وسوف أعطيك طعومي، فلدي منها نملات جميلة، شقراء، هي [illegible] تنصب أنت الفخاخ وحدك حتى افتتاح الصيد، لأنه يتركني حراً في الصباح، وأيضاً

، وحيداً، هذا لا يمتعني. وأفضل أن آتي للعمل

، عيناه، وبدا لي أن وجهه قد احمر. « لقد فكرت في هذا، قال. ومع ذلك، فهو أمر يسعدني. »

<> <> <>

على هذا النحو في ذلك العام، تعلمت دعك القمح الأسود تحت ساقية الحجر المنقّر بالحزوز الذي يجره البغل الأثير ؛ ومن ثم، بطرف المدراة المصنوعة

من خشب الغبيراء، كنت أذرو في الريح القش الخائر، فتهبط الحبة عند أقدامي، ويسقط القش بعيداً، وتطير القشرة الخفيفة في سحابات بيضاء كبيرة عبر أغصان الزيتون. وقد ضربت بالمدقة الحمص المخفف والمحفوظ في قرونه كالبلي في لعبة الجلجل. بعد ذلك، صنعنا غرابيل ، عبارة عن حصر من البوص كنا نجفف عليها التين، وكان علينا أيضاً، كل مساء أن نسحب الماء من العين لكي نروي أشجار الطماطم الشتوية ( التي كان فرانسوا يطلق عليها بخشونة اسم «الطماطم » ) . وأن نعشب الخس من أجل الأرانب. وأن نغير القش في حظيرة البغل. وكنا نحاول نصب الفخاخ في الحقول المجاورة لمواقع عملنا، تحت الزيتون، أو في الأراضي التي جرى بها الحصاد فبقي بها ما يلتقط. لكن ماتصيدناه بهذا الشكل كان بائساً، كطيور القندس المتوطنة، والعصافير التي غرر بها، أو « البوسكارل » الصغيرة. التي كانت الفخاخ تقبض عليها بأطرافها، من عجزها.

وسرعان ما تخلينا عن ذلك، في انتظار عودة العم جول الذي طالت إجازته في «برينيون » .

في ذلك الصباح، قرر أبي أنه حان الوقت المناسب لقص الخصلات البيضاء لبول، الذي كان يلح من وقت طويل على ذلك.

«في المدرسة، قال، يقول البعض إنني فتاة، وهذا أمر لايعجبني.»

وأجلسناه على كرسي وضع فوق خزانة صغيرة. ووضعت له الفوطة حول رقبته، بالضبط كما يحدث عند الحلاق. وقد تم تكليفي بالذهاب واختلاس كسرولة من حجم ملائم، ولمزيد من الحيطة أحضرت كسرولتين. ووضعت له الكسرولة الأكثر انطباقاً على مقاس رأسه مثل قبعة، وأنزلنا له ياقته وخلال ذلك قص أبي الخصلات التي أطلت من خارج حافة الكسرولة بمقص، وتم ذلك بسرعة عجيبة، لكن النتيجة لم تكن على النحو المطلوب، لأنه عند نزع

الكسرولة. بدا شعر الزبون محززاً بشكل واضح. وعندما طلب النظر إلى نفسه في المرآة، صاح أبي عليه: « ليس بعد ! »

وأخرج من جيبه عندئذ ماكينة حلاقة جديدة، وأحنى رقبة بول بمهارة شديدة، كما لو أنه محكوم عليه بالإعدام، على غلاف ملون من أغلفة «الجريدة الصغيرة ». ومن ثم بواسطة مشط ومقص حاول أن يسوي الشعر من على جانبي الرأس. وقد نجح في هذا بشكل معقول، ولكن بعد عدد كبير من محاولات الإصلاح صار شعر الجانبين حليقا بالكامل. وتأمل بول هذه النتيجة بإعجاب، وصار مزهوا بنفسه، رغم أن ما بقي له من شعر لم يزد على هدب صغير فوق جبهته.

وأكب على اتخاذ مظهر رجولي، عاضاً على شفتيه، ومقطباً حاجبيه، وقد بدا لي متغيراً بالفعل. وذهبنا به فخورين، لكي تراه جوستين، التي تأثرت جدا، ولكنها أعلنت أنه أمر ضروري أن يودع بول مرحلة الطفولة ويصبح غلاماً صغيراً. وانتهت إلى القول بأن « هذا يتناسب معه جداً ». باختصار، بدا الجميع سعداء، وراح بول من توه يخيط خصلاته بطرف ملاءة صغيرة مستديرة، لكي يصنع منها سليخة ضخمة من النوع الذي يرقص حوله الهنود الحمر المنتصرون.

ولسوء الحظ، دفع هذا النجاح الأول جوزيف إلى مغامرة طائشة.

كانت شقيقته الكبرى، الخالة ماري، قد نصحته يوماً أن يحلق رأس الأخت الصغيرة لكي ينمو لها في المستقبل شعر كثيف، كما أثنى حلاق الحي على هذه الفكرة، لذا فقد تحدث في هذا الأمر بالمنزل، لكنه وبغير أن يستطرد في شرح فائدة هذه النصيحة ومن أول رد فعل بدا في عيني جوستين، وبغير أن يترك لها فرصة الاحتجاج، أعلن من تلقاء نفسه أنه سيكون من البربرية حلاقة خصلات شعر بهذا الجمال، وخلص قائلاً إن «الصغيرة لها من الشعر مايكفي في حالتها هذه ».

لكنه صار لديه ماكينة حلاقة جديدة في جيبه، وكما يقال فالآلات الجميلة تستدرج اليد لاستعمالها لأنها تعرف أن الصدأ قد يأكلها. لذا فلم يستطع چوزيف المقاومة، ووسوس له غروره بأنه تعلم الحلاقة بأن عليه واجباً يقوم به لتنفيذ النصيحة بعد أن صار محترفاً، وأن حساسية زائفة سخيفة، قريبة الشبه من عبادة الأصنام في تقديسها لبقاء شعرالولادة، ليس لها أن تمنع أباً من تأمين المستقبل الشّعري لطفلته. لذا فقد فعل فعلته في الخفاء، لا من أجل مصادرة ردود فعل أوچستين، وإنما للتأكد من عملية إنجاز هذه المسألة على نحو يجعلها أمراً غير قابل للتراجع، ولضمان أنها لن تحضر إلا بعد نفاذ الأمر.

وراحت الخصلات، بالفعل، في نفس اللحظة التي شعر فيها هو بالندم على أنه اشترى هذه الماكينة. فكان مرأى رأس الطفلة التي بدت كبيرة، حليقة وهشة كالبيضة بالفعل مقلقاً، إذ راح نافوخها ينبض كما لو أن به كتكوتاً سوف يقشر القشرة ويخرج.

وجاء رد فعل أمي في شكل ثورة، فقد نزعت الماكينة من يدي چوزيف، وجرت حتى بئر « بوكان »، وألقت بالآلة المؤذية. وضحك أبي، ولكن بغير ابتهاج.. وكان بول سعيداً وراح يغني:

اللي بانت قرعتها

الزرزورة عضتها

أما أنا، فقد تأثرت جداً، ولكن رحت أسأل نفسي ما إذا كان إغراق ماكينة الحلاقة يفيد في إعادة الشعر المفقود. مع ذلك، فقد حملت الضحية نفسها، خصلات شعرها بيديها، وصعدت على كرسي، أمام المدفأة وراحت تنظر في المرآة لهذه البطيخة الحمراء التي تفتحت فيها عينان كبيرتان سوداوان. وعندما أدركت أن هذه التي بالمرآة هي نفسها، ارتعشت ذقنها مرة واحدة، وبدأت فاصلاً طويلاً من الصراخ والندم. وعادت أمي من عند البئر، سائرة في خطوات

مترنحة، وهي تنظر بحدة، مقطبة شفتيها. بغير أن تنطق كلمة، وضمّت هذه الصرخات الهلعة بين ذراعيها وحملتها إلى غرفتها. وتبعها أبي، بشاربه المتدلي، وبابتسامة المذنب، وبذراعيه المتدليتين علامة الندم.

وسخر بول، قائلاً: «الحمد لله أنها رمت الماكينة، فقد أنقذك الحظ أنت وأمي من يديه ! »

وخرجت الأخت الصغيرة من غرفتها مغطية رأسها بطاقية صغيرة من الفراء فصّلتها أمي على مقاس رأسها، كي تحميها، قالت لنا، من ضربات الشمس وتيارات الهواء. وصعدت على الكرسي، تنظر إلى نفسها من جديد في المرآة، ولأنها مغرمة بالتزين، فقد بدت سعيدة جداً.

ومع ذلك، فقد لفّت أمي المكتئبة، في ورقة حريرية، خصلة شعرها السمراء التي انضمت في الصندوق الخزفي، مع الخصلة الشقراء لبول الصغير.

◇ ◇ ◇

في ذلك اليوم تماماً، حوالي الساعة الرابعة، جاء العم جول والخالة روز بلا سابق إنذار، في عربة نقل زراعية كانا قد استأجراها من سبّاخ في سان ـــ مارسيل.

وجرت الأخت الصغيرة ـــ بطاقيتها ـــ لاستقبالهما.. ووضع العم جول حقيبته، وحملها بين ذراعيه. ولكي تشكره، وتعبر عن سعادتها راحت تغني بجذل، بصوت شديد الحدة، أغنية ألفها مروج انتخابي للانتخابات المحلية.

ليسقط شانوت

ذلك الشحاذ

الذي لابد من شنقه

بغير انتظار

ولأن المطلوب شنقه، أي شانوت كان العمدة الكاثوليكي لمرسيليا، قطب العم جول حاجبيه، ووضع الأخت الصغيرة على الأرض، وأمسك بحقيبة في كل يد، وتقدم ناحية جوزيف، الذي جاء مبتسما ابتسامة عريضة لمقابلته، وأخذ يلومه، بنبرة متهكمة، على أنه بدأ بشكل مبكر جداً التعليم السياسي لطفلته.

ورحب أبي هو الآخر، بالدخول سريعاً في شجارهما اللطيف، ورد بأنه هو نفسه لايعرف هذه الأغنية - التي كانت تعبر فضلاً عن ذلك عن جلافة واضحة - وأن الأخت الصغيرة بنفسها هي التي حفظتها، وهو ماكان حقيقياً. ولأنها لم تكن قد ذهبت بعد إلى المدرسة ( مصدر كل المعرفة ) لم يعرف أحد أبدا من أين تلقّنتها.

وتوقفت هذه المجادلة الأولى بسبب صرخة مختنقة للخالة روز، عندما أرادت الصغيرة أن تحييها تحية خاصة فرفعت الطاقية عن رأسها. وقد اعتقدت الخالة بالقطع لمدة ثوان بأنني وبول قد سلخنا فروة رأسها، أو أن حمى تيفود حتمت هذه التضحية. لكن أمي جاءت وألقت نفسها بين ذراعيها ضاحكة، وصعدت الاثنتان إلى الحجرات لكي تواصلا أحاديثهما المهموسة، وضحكاتهما العالية الخبيثة، وهن يترددن هذه الـ ( أوه ) المعيبة والغامضة.

كان العم جول قد أحضر معه من « روسيّون » الأعناب الموضوعة بالكحول، والبسكويت المصنوع بعسل النحل الذي يلتصق بالأسنان، وكبدة أوز كأنها قلب عجل، من النوع الذي يعود تاريخه لما قبل الطوفان، مع كمية من أحرف الراء التي تمت إعادة تأصيلها بموطنه.

وكان حجم ابن العم بيير قد صار معتبراً، بمكنة العائلة أن تسعد به لو أننا

قدر لنا أن نأكله، وكانت الخالة روز نفسها قد سمنت بعض الشيء، وصارت وجنتاها المكتنزتان تتناسبان معها كثيراً، فقد أتاحتا لمن يقبلها مكاناً صالحاً لذلك..

وكـان يوم لقـاء مرح، ضج به المنزل في كل أنحـائه، فكنت تسـمع الضحكات والغناء في كل مكان به.

عندها، بدأت حياة العام الماضي، فأصلحنا الخراطيش، وزيّتنا البنادق، وكان لي شرف تحديد طريق الصيد في يوم الافتتاح، الذي تحقق بفضله نجاح كبير، يكاد يكون انتصاراً. فقد عدنا وأخراجنا تعج بالدراج، وأنا وليلي يحمل كل منا أرنباً في كل يد، بينمـا حـمل العم چول، على طريقـة الراعي الذي يحـمل خروف المرعى، على كتفيه المدماة أرنباً برياً كبيراً، من النوع الأبيض الشاحب، كان كبيراً في حجم الكلب. وأعلمنا بأنه كان أرنباً برياً «مهاجراً» من النوع الألماني، كان من المفروض ألا يتواجد في شهر أغسطس، فهذا النوع يجيء في الشتاء، ويرحل في منتصف الربيع. وكان وجوده أمراً غير مفسر، لكن چوزيف قارن حالته بحالة حلاق من برلين، جاء لمرسيليا لثلاثة أيام، في مهمة نقابية، ثم استقر بها ولم يرحل.

وقد أوضحت هذه البداية الجيدة أن موسم الصيد سيكون لامعاً، وراح العم چول يحسب العائد مقدماً، والذي كان حسب تقديره، سيغطي الإيجار، وربما ثمن كلب صيد بروتوني صغير للعام المقبل.

مع ذلك، فقد تبين لي سريعاً أن استثارتي قد فقدت حميتها، وبدا لي أن الصيادين نفسيهما ليسا متقدين حماسا كما كان حالهما العام الماضي.

بالتأكيد أنهما كانا يمضيان كذلك أياماً جميلة، لكن حصاد العم چول – الذي لا يضعف أبداً – لم يعد سوى تكرار، وصارت إخفاقاته النادرة أكبر من نجاحاته.

وبنفس الشكل، لم يبـد على چوزيف سـوى بعض الرضى عندما يقـيس حجم دجاجة الغروب أو الذيل الأبيض لأرنب اليخنة. أما أنا، فلم يعد قلبي يخفق بنفس السرعة عند تفقد الفخاخ، ولم يعد طيران سرب من الدّرّاج فجأة يوحي لي بظهور وحش، وإنما بنوع من الجلبة في حظيرة دجاج.

إن الخبرة، الخبرة « الثـمينة » قد فكت سحر تلالي وجعلت صنوبراتي السوداء قفراً، وقل الخيال. فلم تعد تطرأ على الذهن دببة شرسة، ولا حتى أوس وحيد. فقد تراجعت هذه جميعها لتثبت كصور بالصفحات المرسومة لكتاب بالتاريخ الطبيعي، وأعلم جيداً أنها لن تخرج من الرسوم.

كل يوم، حوالي الحادية عشرة، كنا نترك الصيادين في التلال، فكان ليلي ينزل إلى أعماله الزراعية، ولأن مساعدتي له كانت تعين على الإسراع بتنفيذ الأعمال، كنت ألاقيه بعد الغداء، ولكني كنت أعود لأمُرٍّ في أغلب الأحوال بعد الظهر على الحصن الجديد.

وبعد بعض الأعمال المنزلية ( كالذهاب إلى عين الماء، أو إعداد الكبريت من الخـشب الدهني أو تنظيم بيت المؤن ) كنت أذهب وأتمدد على بطني تحت زيتونة، بجذعي المنغرس في العشب الجاف، ورأسي بين ذراعي، أطل بها على كتاب من كتب چول فيرن، الذي كنت قد اكتشفته، والذي قام خياله العجيب بمعالجة نقاط الضعف في خيالي، وحلت اختراعاته محل السحر المفقود لتلالي. وقد قرأت وأعدت قراءة « أطفال الكابتن جرانت » بشوق بالغ، والأهم من ذلك روايته «الجزيرة الغامضة »، التي كانت شخصياتها بالنسبة لي لها نفس واقعية أبي والعم چول.

وحاول بول كثيراً إيقاظ روح الكومانش في نفسي، فكان يتحداني من بعيد بشكل متوحش، مصحوب بالمسبات « الباونية »، ولكني كنت قد تنكرت لچوستاف إيمارد، وتباعدت عني أسلحة الحرب للأبد... فكنت أرد عليه أحياناً

– بدون حتى أن أرفع رأسي – بسبب اللعنات ( الكومانشية ) ، وقد حدث أن سلخت فروته، ولكن كان ذلك حقاً لإدخال السرور على نفسه.

كان يجلس أسفل «جميزة الأجداد» ( التي لم تكن إلا شجرة لوز عجوز) ، تحت تاج من ريش الدرّاج، وكان يدخن وحيداً، غليون ياسمين البر، ويسعل من حين لآخر، وكان على وجنتيه وجبهته زينة من ورق اللصق، لونت بيودرة الطباشير، وقد تعلقت بحزامه خصلة شعره، إلى جوار فروة رأس دمية أصابها القدم والشيخوخة، ومن وقت لآخر، كان يقطع تأملاته، ويرهف السّمع للنسيم، وكان يثب قافزاً، باعثاً بصرخة حرب متوحشة أمام بصر العدو غير المرئي، مطلقاً حربته ضد الريح، وسهامه التي لا تجد من يرد عليها... كان منظره عبثيًا، فقد ولى زمن مجده... فلم يعد الزعيم المطلق لقبيلة مفترسة باونية، وقد خان قوته الإرهاق والحزن الذي يصيب مقاتلاً أخيراً من مقاتلي الموهيكان.

هذه الحياة الممتعة، التي خيل لي أنها ستدوم أعواماً، توترت فجأة بفعل مهزلة مأساوية عائلية، كان عليّ أن أستخلص دروسها الثمينة، لو أنني فهمتها، لكنني كنت بعد صغيراً، ولم يكن من الممكن إلا لتأملها من مسافة زمنية بعيدة. مايجعلني أعيد بناءها.

‹› ‹› ‹›

ذات ليلة أيقظتني بعنف حمحمة حصان ، خيل لى أنه أمام باب البيت ، وتساءلت للحظة ما إذا كنت قد سمعت هذه الصرخة الطويلة المرتعشة في حلمي، ولكني حين أرهفت سمعي، سمعت بداخل المنزل بلبلة حاول صانعوها أن يخنقوها، فلم تكن حادة، وإنما كانت عبارة عن وشوشات،

وغمغمات، وراء أبواب مغلقة بشكل حذر.

وقمت بغير ضجة، وفتحت مصراع النافذة، وكان النهار قد بزغ، وفي الضوء الذي مازال شاحباً، شاهدت عربة بحصان، نعم، عربة بحصان، وقد توقفت قريباً من المنزل، كان هذا حدثاً غير عادي، فبالقطع هذه أول عربة من هذا النوع تخاطر بالمجيء إلى هنا.

كان على مقعدها حوذي، يتثاءب بشكل واضح، فمن ذا الذي جاء هكذا ليوقظنا في الفجر ؟ ولماذا ؟.

وفتحت بابي بهدوء، وأدركت في التو أن عمتي فيفي قد جاءت، وهي إحدى الشقيقات الكبريات لأبي، وكانت امرأة لها سلطة كبيرة، فقد كانت منذ الخامسة والعشرين من عمرها، مديرة مدرسة عليا، وقد توجت عليها كطاغية محبوبة، وأعطت نفسها بالكامل لمهنتها التي تمثلت في تهذيب، وتعليم، وتكوين المواطنين الصغار العلمانيين الأفاضل. ولأن عطلة أيام الخميس بدت لها نوعاً من التبديد الإجرامي، أسست جمعية البلوط، التي كان هدفها تشجير تلال « الإستاك »، والتي كانت تدرب مرة في الأسبوع عبر الأحراش هيئة أركان من العوانس، متبوعة بفيلق من الفتيات المذعورات.

كن يتجررن نادبات، ويمتثلن للأوامر، كالمسجونات وهن يحفرن في الحصباء، ويغرسن، تحت كومات الزلط، شجيرات البلوط. وهو مادعا الجرائد تتحدث عن العمة، الأمر الذي كان فخراً للعائلة كلها. ولأنها كانت مسؤولة أيضا عن جماعة محاربة التدخين، وجمعية حق النساء في التصويت والحرب من أجل إرضاع الأطفال من أثداء أمهاتهم، وكانت كثيراً مايستقبلها السيد العمدة، وكذلك السيد المحافظ، وكان الناس العارفون يقولون بأنها ستحصل في النهاية على وسام فارس الشرف، كنا ننتظر كل عام هذا الحدث المجيد.

باختصار، كانت امرأة خبيرة، وهو مالم يمنع أن تكون جميلة، وأن تستمتع

بالحياة.

وعند رنة ما، تعرفت على نبرة صوتها، ولكنني لم أستطع فهم ماقالته لمدة دقيقة، رغم هذا، تمكنت من التقاط كلمة « بابا ». لقد كانت تتكلم إذا عن جدي وجاءني شعور أن هذه الزيارة شبه الليلة كانت تزف لنا خبراً تعساً.

لقد أحببته كثيراً، هذا المعلم العجوز أندريه، لكني كنت أعلم أنه قد يموت في أية لحظة، بما أنه قد بلغ السادسة والثمانين. وكنت أعتبر أيضاً أن عمراً غير عادي كهذا، عمر شجرة، هو عمر مفرط وأن كل يوم جديد كان يقضيه كان يمثل جولة من المقاومة من جانبه، وهدية تجلب السعادة للعائلة.

لهذا السبب كان الحزن الذي سيتسبب لي من خسارتي له قد غزا بالفعل السنوات التي تبقت من طفولتي، وبالنتيجة «أماتها » تقريبا، وأحالها إلى مايشبه قطعة أثاث عجوز. وحين شرعت في تصفية هذا الحساب بدمعتين كبيرتين سالتا من عيني، سمعت صوت أبي الذي قال بنبرة جادة: « ولكنك يافيفي، تهزلين ! »

وأجابته بصوت خفيض بعدد كبير من الكلمات، ثم قال العم چول بوقار:

« في هذا العمر، ربما كان الأمر أكثر جدية مما تعتقد ! »

وأجابت الخالة روز إجابة غير مفسرة ختمتها بضحكة: «على كل حال، قالت أمي فجأة، بما أنه يريد رؤيتها، فإن علينا الذهاب من فورنا.»

– لقد طلب رؤية مارسيل قبل أي أحد ! قالت العمة فيفي.

– سأذهب وأوقظه.. قال صوت أبي.

وأسرعت وأغلقت بابي، وقفزت في سريري، ورفعت الملاءة فوق وجهي، وأنا أنظم تنفُسي على إيقاع تنفس بول، الذي كان غارقا في النوم، وتظاهرت

بحالة النعاس البريء.

ودخل چوزيف بلا ضجة، حاملا مصباحا، اخترق ضوؤه الملاءة.

وناداني بصوت خفيض، وأجبته بتنهيدة عميقة، وتقلبت جهة الحائط، عندئذ وضع يده على كتفي. فارتعشت، وفتحت عيني بشدة على اتساعهما متخذا مظهر الزائغ: « هيا، قال، استيقظ، والبس بدلة المدينة ».

وفركت حدقتي بقبضتي المضمومتين، كما لو كان ذلك أمراً مألوفاً، وقلت بصوت نائم: ماذا حدث ؟

– جدك مريض، وهو يرغب بشدة في رؤيتك..

وبنوع من القلق تظاهرت به نصف تظاهر، صحت: هل مات ؟

– لا ! قال أبي، بما أنني قلت لك إنه يرغب في رؤيتك !

– وأنا أيضا هل لي أن أذهب ؟

– نعم، أنت أيضا، فقد طلبك.

– هل هو مريض جداً ؟

– لا أعتقد، قال أبي، أعتقد أنها مسألة معنوية قبل أي شيء. لذا لابد من الذهاب وتهدئة روعه.. هيا أسرع.

وضمتني العمة فيفي إلى صدرها، أي إلى الأسلاك التي تشد رداءها الداخلي وقالت لي، ببعض التبجيل، إن جدي منحني شرفاً عظيماً باستدعائي لأكون إلى جوار سريره بوصفي أكبر أحفاده، لأنني أنا الذي ستؤول لي رئاسة القبيلة، في أعقاب موت أبي، وكانت تتحدث بهدوء صقيعي، وهي مرتدية قفازاتها ذات اللون البني الفاتح، أثناء ذلك، تبادل العم چول والخالة روز بعض الجمل الغامضة، مثل: « إنها مهزلة محزنة » أو « في حياتي، في حياتي، لم

أسمع بشيء كهذا».

وكنت أنا أفكر في أنني في حياتي لم أركب عربة جواد، وجريت لأتخذ لي فيها مكاناً، كانت أريكتها ناعمة لينة، وندمت على أنني ليست لي أفخاذ كأفخاذ العم جول لكي أستمتع أكثر بالجلوس عليها.

هذه العربة الجميلة كانت عجلاتها مغطاة بالكاوتشوك، وعندما اعتدلنا بها على الطريق الممهد، لم نعد نستمع إلا لخبب أرجل الخيل. كان أبي وفيفي جالسين في مواجهتنا، وقد تكورت أنا في حضن أمي التي كانت حرارتها مرتفعة كحرارة الطير. ولم يكن أحد يتحدث... كنت مغلقاً عيني وأنا على حافة النعاس، ورحت أتخيل حصاناً يعدو، بغير أن يعرف شيئاً، باتجاه نهاية مغامرة بدأت منذ أربعين عاماً.

في عام ١٨٧٠، وخلال خمسة أعوام من الحصار، ثم في أيام الكومونة الرهيبة، قصفت باريس قصفاً شديداً طويلاً.

بالتأكيد لم تكن القذائف التي أطلقتها المدافع حينذاك قذائف موجهة، أو شحنات نووية، ولكنها أحدثت مع ذلك أضراراً بالغة. فقد سقطت بضع رشقات نارية على مبنى عمدية باريس، الذي صنعت قبابه الصغيرة المنقوشة بدقة ملحمة مجد قاطعي الأحجار لدينا. فقد جُرح هؤلاء الرشيقون أو بترت أعضاؤهم، وتناثر بعض منهم قطعاً فوق السقف.

وعندما عاد السلام، وبدأت البلاد تستعيد قوامها، قررت عمدية باريس أن ترمم هذا الصرح. وكان عملاً صعباً ، فقد وجهت الحكومة نداء إلى تعاونية قاطعي الأحجار، التي طلبت من المعلمين وروابطهم أن يرشحوا في كل إقليم الأكثر حذقا ومهارة من بينهم.

وقد اختارت رابطة قاطعي أحجار إقليم « البوش دي رون »، جدي لهذا

العمل، وكان ذلك هو الشرف العظيم الذي أفخر به إلى اليوم.

<> <> <>

في تلك الحقبة كانت باريس بعيدة عن مارسيليا، بعد موسكو عنها اليوم.

فقد كانت الرحلة تستغرق ثلاثة أيام بلياليها، وكان على الطريق عدد من محطات التوقف، وأكثر من خمسين نفقاً، أعلن السيد تيير أنه لا يمكن أن يخرج من دهاليزها قطار إلا مليئاً بالجثث المتفحمة.

مع ذلك لم يفكر جدي أندريه لحظة واحدة في أن يرفض مهمة مجيدة كهذه. لذا فقد قبل زوجته العزيزة، وأولاده الأربعة، وبارك الخامس الذي كان في الطريق مقدماً، وتوجه إلى المحطة، مصحوباً بجمع الحجّارين الذين حملوا له وهم يغنون حقيبتين ثقيلتين مليئتين بالعدد.

ذات صباح صيفي جميل، توقفت القاطرة أخيراً في محطة ضخمة كبيرة. بدا معها أن القطار لن يمكنه الخروج منها إلا للعودة لأنها نهاية الخط، وفهم المعلم أندريه الذي كانت عيناه محمرتين من الإجهاد وكان ميتاً من الجوع، أنه قد وصل إلى « بابليون الحديثة ».

ووقعت السكينة الحقيقية في نفسه، عندما شاهد أسفل ساعة المحطة ثلاثة زملاء له يرتدون شارة رسمية تدل عليهم، كانوا بانتظاره، فاستقبلوه بالعناق. واصطحبوه ــ في عربة مزينة ــ إلى منزل رابطة عمال البناء الذي ظل به لمدة عام مع آخرين من مقصّبي الحجارة، والبنائين والنجارين.

وكما كان مألوفاً في ذلك الوقت، كانت إحدى الأمهات من الرابطة هي

التي تدير كل هذا المنزل، وكانت هذه أرملة شابة لحداد، سقط من قبة كان يركب فيها صليبا.

وكان الجد في الأربعين، ومشرفة المنزل في الثلاثين. ولأن الجد كان ريفياً، فقد كان يغني الأغاني اللطيفة لأعياد الميلاد، التي غالبا ما كانت أغنيات مناجاة، وكان يضحك بانطلاق، وفي المساء، أثناء فترة الأرق القصيرة في ركن المدفأة، كان يجيد حكي قصص الغرام.

كانت مشرفة المنزل قد جاءت من «روبيه». وكانت طويلة، وشقراء، ذهبية اللون. وكانت مستقيمة. لكنها لم تكن قد رأت أبدا عينين سوداوين كعينيه، تناجيانها على هذا النحو. وما كان مقدرا وقع.

وجد الجد إذن من يغذيه على نحو جيد، ويعتني بهندامه، ويلاطفه برقة، وكان يغبط نفسه كل يوم على أن العمدية بها عدد كبير من القباب بحاجة للعمل، لأنه كان ينعم بالسعادة كبابا، أعني كبابا من نوع الأبوين بورچيا.

لكن ذات يوم، مر رفيق من رفاق المهنة ــ كان كما سنرى، رفيقا سيئاً ــ وكان بناء، بالطبع، حنق بشكل أحمق، عندما رأى أفضل قطع اللحم قد ذهبت مباشرة من الحلة إلى طبق المعلم أندريه، الذي كان مقعده يتصدر المائدة.

ولم يتجاسر على توجيه النقد، ولكنه حمل ضغينة في نفسه ظلت تتفاقم شيئاً فشيئاً كل مساء، وبخاصة كل ظهر أحد.

كان ينام بالغرفة المجاورة لغرفة الجد، وكان الحاجز بين الحجرتين جداراً رقيقاً مقاماً من طوب مجوف رفيع جداً، جعله غير عازل لأي صوت، إذ تتسلل عبره أية نأمة، وهو لم يكن بالصدفة عيباً كبيراً، بما أن البناء كان يخلد للنوم في ساعة مبكرة، ولم يصدر عنه كذلك أي شخير.

ومع ذلك، ففي إحدى الليالي، ظل هذا الأكول النهم ساهراً مستيقظاً،

بتأثير الذكرى المؤلمة التي أوجعته لتلك الدجاجة السمينة التي رآها تختفي بين فكي المعلم أندريه. لذا فقد تناءى إلى سمعه هذا التأوه العميق الذي اعتقد بسببه أن جاره يغتال امرأة، فهرع لإنقاذ البائسة. وردت عليه المشرفة من وراء الباب « بأن لا أحد بحاجة إليه » فسألها بلهجة خشنة ما إذا كانت بعد عذراء. الأمر الذي جعل الجد يرد عليه بأن أوصاه بأن يقطع أحد أعضائه، ثم يهدئ جرحه بعد ذلك بالثلج. وشعر الأحمق الذي لم يفهم المزحة بالإهانة الشديدة، وصمم على الانتقام.

في نهاية الأسبوع ، سافر إلى مرسيليا للعمل في بناء أرصفة ميناء جديدة، وتوجه في صباح أحد أيام الأحد لزيارة الجدة، بحجة أنه يحمل لها أنباء من زوجها.

وأنبأها بالفعل ببعض الأخبار، ثم عند خروج الأطفال من المكان، قص عليها كل القصة ولأنها كانت مازالت بعد بضة وسمينة، عرض عليها فكرة التعاون المشترك للانتقام المباشر.

وردت عليه الجدة بضربة ركبة محكمة، وأثناء ماكان الواشي يجرر نفسه متألما، راحت تلعن أسلافه، وتنبأت له بأنه سيموت قواداً، وقذفت به بقوه في عرض الشارع.

<> <> <>

ولم تصدق تماماً خيانة زوجها أندريه، لكن الشك بدأ يعذبها.

في خطاباتها ـ التي كتبتها لابنتها الكبرى ـ لم تذكر أي شيء عن زيارة

النمّام، لكنها تحدثت عن تعاسة المنزل، والأخطار التي تهدد الفتيات في غياب أبيهن، ووقاحة الجيران، وتحسرت على جمالها الذي ذوى.

وسرعان ما شعر الجد بالندم يأكله، ولكن الواجب كان يأتي دائماً قبل المشاعر، لذا راح يتقن عمل القباب الأخيرة، الأمر الذي اقتضى ثلاثة شهور.

ثم، نزل من العربة ثلاث مرات ليقبل امرأة المنزل القبلة الأخيرة. وراحت هذه تذرف سيلاً من الدموع، كما هو مألوف لدى شخصيات أعمال شاتوبريان، الذي لم تقرأه هي بالمرة، وتعلقت برقبته، ولكن القاطرة الفظة صفرت بكل قواها، ولم يكن لدى الجد أندريه، وهو يجفف دمعة مذنبة، إلا فرصة أخيرة للقفز على سلمها أثناء تحركها.

وعاد ليجد امرأته شديدة الجمال بفعل أشجانها التي أنقصت وزنها، وبفعل الشوق الذي تسبب عن قضائها لعام كامل من الترمل. وصارا من جديد عاشقين كما لو كانا في بداية لقائهما، سعيدين سعادة لم تحدث لهما من قبل.

كان الأطفال قد كبروا، وصار الأولاد أقوياء، والبنات صرن جميلات وادعات، وجاء مهندس معماري يخطط لإنشاء خمس عمائر حديثة بناها الجد حول قطعة أرض بور كانت تدعى « دوران الفصول »، ومع انشغاله في عمله وزوجته، نسي امرأة المنزل لكن الجدة لم تنس.

‹› ‹› ‹›

صباح يوم أحد، وبينما كان يحلق ذقنه، وبينما هي تعطيه طبق الصابون ثم

الفوطة، قصت عليه زيارة رفيقه المخادع. لكنها سردت عليه القصة بنبرة المتهكم، وهي تقول في نهايتها: « لقد أضحكني هذا الشخص كثيراً ! ».

ولم يضحك الجد، بل على العكس، صار شاحباً تماماً وارتعشت يداه بقوة، حتى أنه جرح ذقنه ثلاث مرات. ثم مشط شعره في الاتجاه المعاكس، وثقب أحلى قمصانه أثناء ارتدائه له، واختار أغلظ عصا لديه وقال:

« هذا الشخص لو أنني وجدته، فلن أترك فيه مايجعله قادراً على أية نميمة! وانتظرت العائلة الهلعة طيلة اليوم، ولم يعد الجد إلا في وقت متأخر جدا. ولكنه لم يحمل تحت إبطيه أية قطعة من أعضاء الخائن، فقد كان هذا التعيس قد ارتحل إلى بريتاني. وكان جدي الذي اعتقد أن هذا الإقليم الواقع في شمال فرنسا يشبه جرينلاند الواقعة بالقطب الشمالي، قد واسى نفسه بأن فكرة المناخ القطبي يبلغ أوجه قبل نهاية العام. ولم يحدث أحداً أبداً عن هذا التعس الذي حكم عليه بالموت من البرد. لكن الجدة شرعت في تمثيل تمثيلية استمرت بعد ذلك أربعين عاما. ففي الصباح، حوالي الساعة الخامسة، وأثناء ماكان يشرب قهوته، أو في المساء، عندما يضع رأسه على المخدة، كانت تقوم بنعومة بتحويل المحادثة فيما بينهما إلى محادثة عن مدينة باريس (هل صحيح أنها تمطر هناك كل الأيام ؟ )، وعن القباب ( أي نوع من الحجر صنعت منه قباب باريس؟ )، أو عن جمال الصحبة ( حقا إنها عائلة كبيرة )، وكان الجد المباغت، يجد نفسه على حافة الحديث عن امرأة المنزل.

عندئذ كانت الجدة تبتسم في سخرية، ثم تهز رأسها وهي تعض شفتيها قائلة: «أندريه، أنا أعلم جيداً أن هذ الزميل قد كذب عليّ. لكن مايدهشني، هو أنك لا تستطيع منع نفسك من الحديث عن هذه المرأة ! »

وكانت وجنتا الجد تحمران خجلاً ويلاحظ ذلك بشدة من خلال شعرات ذقنه.

وحتى هنا لم يكن يجيب إلا بهز أكتافه، أو برفع عينيه صوب السماء، لكن بغير أن ينطق كلمة، لأن اسمه كزميل كان «رمز الصدق بمرسيليا». ولكنه سرعان مافهم أنه حتى من أجل صالح امرأته العزيزة، كان عليه واجب الكذب مرة واحدة، وبشكل صارخ.

لذا، ففي صباح يوم أحد، وعندما سألته، بمظهر الساذج، إذا ما كان قد وجد قهوته طيبة كتلك التي كان يشربها في باريس، أعلن أن هذه الحكاية تزعجه وأنه من المستحسن أن تتحدث « بصراحة » وكانت هذه الكلمة هي الفخ الذي أوقع بـ « رمز الصدق بمرسيليا » في الكذب.

وبدأ بأن أقسم بالثالوث ـ مخاطراً بصدقه أمام نفسه للأبد ـ بأنه لم يفعل فعلاً يمثل ذنباً مع هذه المرأة ، وتعلقت الجدة برقبته، ودموعها في عينيها، لكن المعلم أندريه، المفتون بالنجاح، الذي أحاط أول قسم كاذب في حياته أضاف:

«فضلاً عن أنها تقريباً في الخمسين، وتزن على الأقل مائة وثمانين رطلاً، يضاف لهذا إنها كانت حولاء بعض الشيء، ولها جديلة في مؤخرة رأسها لا تزيد عن طول نواة، ولأنها ولدت في أقصى الشمال، فقد كانت تتحدث لهجة غير معروفة »

وكان من شأن هذه الأوصاف ــ التي أدلى بها أن تزيد الطين بلة لأن الجدة كانت قد استعلمت عن أوصاف هذه المرأة بطريقتها الخاصة.

كان زملاء آخرون قد عادوا منذ وقت قريب من باريس، وقد أعلموها، ببراءة شديدة، إن امرأة المنزل كانت كائناً في غاية الجمال، وإلى درجة أن جباساً من سانت برنابا أعلن أنه « إذا شئنا عمل تمثال من الصّب، فإن تمثال فينوس الذي صنعه ميلو يمكن أن يصب على ملامح تلك المرأة».

وألقت الجدة في وجه الجد بشهادات هؤلاء الرجال المحترمين، الذين كان

من الصعب تكذيبهم، فما كان من « رمز الصدق بمرسيليا » إلا أن أوغل في الكذب، وهو يصيح:

« إذن، فالمرأة التي عرفتها ماتت إذن، آه المسكينة ! حقاً فقد كانت مريضة بالقلب، فعندما نكون ضخام الأجسام إلى هذا الحد، لا يكاد أحد يلحظ أننا عواجيز.. ومع ذلك فهذه خسارة كبيرة. لأنها كانت طباخة عظيمة... »

لكن الجدة، لم تصدقه في كلمة واحدة.

ثم دعا الجد صديقاً مخلصاً له، كان حداداً وشاهد زور، أكد الخبر التعيس، بل قص بإفاضة مشهد جنازة هذه الشمالية الضخمة، التي أنهكت رحلة نقلها حتى المقبرة ستّة لحّادين.

وأبدت الجدة أنها تصدقه، وتظاهرت بالهدوء عدة أيام. لكنها ذات مساء، على طاولة العشاء، شرعت في إسداء النصائح لبناتها، اللائي كن في عمر الزواج.

« أهم شيء، ألا تثقن بالشقراوات، فحين تتزوجن إياكن وعودة إحداهن إلى بيتكن، لأنهن طريات، وقذرات، وتفوح منهن رائحة ماسخة، وهن مصفرات بعض الشيء، مثل الجبن المطبوخ، لكن هناك من الرجال من يحب هذا ! »

ثم راحت تعرض بعد ذلك لغدرهن، ولحبهن للفخفخة، ولكسلهن وشراهتهن، وهي تراقب ردود فعل المعلم أندريه، الذي تظاهر بعدم الاستماع، والذي راح يخطط على النسيج الشمع رسم العقد أو انحناءات القبوات.

◊ ◊ ◊

بعد ذلك بقليل، غيرت من تكتيكها، فراحت تتخذ مظهر الطيب القلب والعطوف. على سبيل المثال، أبدت تعاطفها مع الجار بينيامين، الذي اتخذ من خادمته خليلة له بعد ستة أسابيع من وفاة زوجته.

«وماذا تريدون، قالت لبناتها، من رجل في الأربعين، إذا كان بصحة طيبة، فهو لن يستطيع الحياة لمدة ثلاثة أشهر كالراهب ! فالطبيعة تأبى ذلك، ولابد أن نكون بلا حساسية، لكي نتعامى عن فهم ذلك ! »

وفي مرة أخرى، كانت الجزارة، وهي امرأة ثرثارة، قد فاجأت زوجها، في الجزء الخلفي من المحل، وهو متلبس مع فتاة صغيرة، فقامت بعمل مشهد مروع وتطلب الأمر منه أن يجهد لانتزاع السكين من يدها، بعد أن حاولت أن تغرسها بين ضلعيه.

« ياإلهي ياله من أمر فظيع ! أعلنت الجدة، فأن يخون رجل امرأته، هذا أمر سيئ ولكن هذا أمر ليس بخطورة ما حدث، وليس سببا أن يرتكب الإنسان جريمة القتل ! »

ثم وهي تنظر للجد، الذي تظاهر بعدم السمع قالت: « الأخطر، هو من يكذب عليها، ومن يخفي مايعرفه كل الناس، أما الباقي، فهو مجرد تفاهات !».

ـــ هذه، قال الجد، مجرد أقوال.. فلو حدث أن خالطت امرأة أخرى...

ـــ ياإلهي ! صاحت الجدة، ألاتعرفني إلى هذا الحد أيها المسكين أندريه ؟ فلو أنك خنتني، بشكل عابر، مع دلوعة ما، فسوف يجرحني هذا، بالطبع. لكن ما عليك إلا أن تقول لي الموضوع، وسوف أسامحك، ولكن لو لم تقله لي، سأفكر في أنك لديك ضعف ما ولا أحدثك فيه أبدا »

لكنها لم تكن تتحدث إلا في هذا الأمر، حتى عندما توحي بأنها لن تتحدث فيه، وقد شرعت في هذا الاستجواب من ١٨٧١ حتى ١٩٠٧ .

◊ ◊ ◊

منذ عدة أعوام، راحا يقضيان شيخوختهما في مزرعة صغيرة، بالقرب من روكفير وكان لهما جيران طيبون، يزرعون الفراولة، والخضروات، والتين، وشجيرات الزيتون وكان هو قد بلغ السادسة والثمانين، وهي تصغره بعامين.

وكان الجد، شأن زملائه، قد احتفظ بخصلات شعر طويلة، وبذقنه المهذبة، التي كانت شعراتها المجعدة كثيفة مازالت كعهدها منذ الشباب البعيد، لكنها كانت قد ابيضت كالثلج، حول وجهه الذي تغضن.

وكانت الجدة قد «كبرت»، وأصبحت ممتلئة وثقيلة. تزين رأسها جديلة قصيرة مائلة للاصفرار. لكن وجهها ظل صبوحا، لأن الطبقة الدهنية التي تراكمت به شدت تجاعيده.

كانت عيناها الواسعتان المستديرتان ضحوكتين دائماً. ولم يكن قد تبقى لها من أسنان سوى سنة واحدة، هي التي ترفع شفتها العليا. وهي سنة فريدة، لكنها واضحة بسبب حضورها فقد كانت كبيرة، ومستديرة، وبيضاء، كلوزة مقشورة وكانت محل إعجاب أخي بول، الذي سمحت له ذات مرة بلمسها بطرف إصبعه.

◊ ◊ ◊

ذلك المساء، وككل مساء، كانا كلاهما جالسين أمام المدفأة الصغيرة التي توقد بجذوع الزيتون لأنه على الرغم من الدفء الصيفي، كان الجد يجد أنه بالمساء «يكون الجو بارداً بعض الشيء»، وأن هذه القسوة الجديدة بالجو تسبّبت من عبور بعض المذنّبات غير المرئية في الكون.

كانا يتحدثان عن الأشياء الصغيرة كل مساء ، عن الدجاجة السوداء التي لم تعد تريد وضع البيض، وحان وقت سلقها. أو عن دلو البئر الذي صار ثقيلاً جداً. والذي وعدت فيفي بإحضار واحد آخر بدلاً منه ، أصغر منه بحبل لا بسلسلة من الحديد.

وبينما هما يتحدثان ، كانا يشربان معاً أكواباً صغيرة من شراب السعتر، المضاف إليه نقطة من شراب كحولي مقطر.

كان الجد، وعلى مدى حياته، لم يشرب أبداً الكحول المقطر. لكنه كان يشرب لتراً من النبيذ كل يوم، لأنه بالنسبة لمعلم تركيب أحجار، يعمل دائماً في العراء، يعد النبيذ غذاء، ولكنه لم يقرب أبداً المشروبات المشهية، ورفض دائماً أن يتذوقها.

ومنذ أن ترك المسطرين، راحت الجدة التي صارت تدلله تلفت انتباهه بأنه لم يعد هناك خطر عليه في أن يسقط من على الصقالة، وأكدت أن قليلاً من الخمر المقطّرة التي تأتي مباشرة من الكرم، تقوي قلب الذين يشيخون، وتعوّدا كل يوم أن يخلطا مع الشراب الساخن قليلاً من الكحول.

في ذلك اليوم ضاعفت الجدة جرعة الكحول وفهم المعلم أندريه، بسبب ثقل لسانه، الأمر سريعاً: أوچيني، قال، لقد زِدْتِ الكحول اليوم.

ـ ولم لا، أنت مصاب ببعض البرد اليوم، وهذا سيحسن صحتك!

ولم يحتج إلا على نحو شكلي، فقد شرب بسعادة الشراب الساخن المدعوم

وهو يتحدث عن هذه الدجاجة السوداء، التي ستذبح على نحو غامض، وعن ذلك الحبل اللعين، الذي سيكون أخف من السلسلة، ولن يحدث ضجيجاً مثلها.مع ذلك، وبسبب من انتعاشه بالخمر، أصبح شيئاً فشيئاً مرحاً، وأعلن:

«أوجيني، إن هذا الكحول شيطاني، يخيل لي أنني أحبه! كان من حسن حظك أنني لم أعرفه من قبل!

ـ هذا حقيقي، قالت الجدة. فلم يكن يسعدني أبداً أن أذهب وأبحث عنك كل ليلة في الكباريهات. لكنه الآن، ليس له نفس الخطر، وأريد أن أريك شيئاً أفضل! وذهبت ، وفتحت البوفيه الأثري، وسحبت زجاجة ثقيلة، بدت سوداء، عليها غلاف مذهب.

«ما هذا؟

ـ هذا؟ هذا يدعى الشمبانيا.

ـ هل تريدين الشرب ثانية؟

ـ نعم، قالت الجدة بتصميم. ويعز علي ألا تجرّبه! هذا النبيذ. ألا يذكرك بشيء!

ـ أوه! نعم! إنه يذكرني بأننا شربناه في يوم زواجنا، كان الزملاء قد أحضروا لنا منه زجاجتين! كان فيهم فيرو الكبير، وكازناف وريمولان؛ وريكار، وهذا الذي كان يدعى باناستون. هل تتذكرين باناستون؟ كان له انتفاخ مشعر حتى منتصف جبهته، ولم يكن لكل عين من عينيه لون الأخرى... ثم ...

ـ «ثم ، قالت الجدة، ثم أنك لم تنس باناستون، لكنك نسيت أن هذا اليوم مرت عليه ستون سنة هي عمر زواجنا!»

واختفى المرح من الجد دفعة واحدة، وفتح عينيه على اتساعهما:

– «أوه، ياجميلتي أوچيني! هل هذا ممكن؟ هل اليوم هو الرابع والعشرون من يوليو؟»

ـ أجل ، قالت، ومنذ الصباح وأنا أنتظر منك أن تقول لي شيئاً!

ـ آه يا عزيزتي، اصفحي عني فأنا أرى أنني سببت لك قلقاً، ولكن هذا ليس خطئي بالكامل... فلابد من الوضع في الحساب أنه منذ بعض الوقت ـ منذ أن أكلت هذه القواقع الآتية من مارتيج، التي لم تكن ربما طازجة تماماً ـ وأنا أنسى أسماء الناس، والتواريخ...

ـ لا عليك، لقد سامحتك! قالت الجدة، ولكن بشرط أن نشرب معاً نخب أجمل يوم في حياتنا...»

كان من الصعب فتح الزجاجة، وسد الجد، المترقب، أذنيه، خشية الفرقعة. لكن الجدة، التي كانت معتدلة القامة وقوية، فتحتها وعند صب النبيذ الذهبي في الكأس الكبيرة، قال الجد: «أوچيني، لا يجب أن تغضبي إذا لم أشربه كله.

ـ ولكن لماذا؟ سألت أوچيني، ببعض الاهتمام. هل تخشى أن تصبح مدمناً؟ اطمئن، فبعد السادسة والثمانين إذا أصبحت مدمناً فلن يدوم ذلك لمدة طويلة! وهذا المساء، أنت تحاول جهدك أن تضايقني!

ـ حسناً، سوف أبتلع نصفه، قال الجد، وإذا سقطت منهكاً ميتاً، ستتكبدين أنت مشقة إرقادي!»

وشرب جرعة كبيرة، وأوقد النبيذ الأشقر لسانه، ودغدغ فتحتي أنفه، وتمددت طاولة العرس، المضيئة بدزينات القناديل، فجأة أمامه. كان الزملاء قد قرعوا الطبول على شرف روكيرول، وهو نجّار له لحية بيضاء، راح يغني (آه ، كم هي ملعونة الحرب!) وجاء دور الجد.

فنهض، وفي صوت مبحوح بعض الشيء بسبب الانفعال، والشمبانيا ذات

الزبد الأبيض، وتحت ثقل سنوات العمر الطويل، يغني أغنية القمح الذهبي.

مع نهاية المقطع الثالث من الأغنية، رفع كأسه في نخب الجمع الشريف، ثم أعقب ذلك بأن قرع مع الجدة، التي كانت هي الأخرى متأثرة مثله، كأسها، وشرب كأسه في جرعة واحدة.

بعد ذلك، أنهض أوچيني الجميلة، وحاول أن يرقص البولكا على قدميه العجوزتين النحيفتين.

عندئذ، أدركت أنه قد سكر بالفعل، فبعد أربع خطوات من الرقص، قال إن «رأسه قد دار»، فأجلسته في مواجهتها، وقرّبت ما بين مقعدها ومقعده.

– أيها الجميل أندريه، قالت له، لا يجب أن نرتكب أفعالاً مجنونة ففي عمرنا، ليس من الحكمة أن نتقافز كالشباب...

ـ أنا، قال الجد، رأسي لاتدور، ويخيل لي أني في العشرين!»

وراحت قدماه، تكملان رقصة بولكا الزواج، وهو جالس على المقعد:

«حقيقي، إنك في حالة غير عادية، بالنسبة لسنك، أما أنا، فسن العشرين قد بعد عني كثيراً، وغالباً ما أفكر في أنني صرت على عتبة القبر.

ـ لا ، لا! قال الجد الطروب.

ـ بل نعم، بل نعم! قالت الجدة. فسوف أموت في يوم قريب، وربما كان ذلك الليلة، لأن قلبي مجهد كبندول الساعة القديم؛ ولكني أفضل بالفعل أن يكون يوم موتي قبلك فماذا سأفعل بدونك؟

– لن يكون من الصعب العثور على شخص ظريف تعاشرينه!

ـ يا إلهي! قالت الجدة، لقد كان لي في هذه الحياة كل ما أريده! زوج طيب، وصحة جيدة، وأفخاذ جميلة، وأطفال رائعون، وقد أرضعتهم جميعاً من

صدري، فكما ترى، سوف أرحل عن هذه الدنيا سعيدة إذا لم يكن هناك أي ظل للشك بيننا.

ـ شك؟ أي شك؟ سأل الجد بمرح، ما قصة الشك هذه؟

ـ يا أندريه، أنا لم أكن أريد قول هذا لك، ولكنك ترغمني على قوله.

ـ أنا؟ أرغمك؟

ـ نعم، أنت ترغمني، بما أنك لا تقول لي شيئاً!

وفتح رمز الصدق بمرسيليا عينيه مندهشاً.

«وماذا تريدين أن أقول لك؟»

ـ أنت تعرف جيداً. أنت تعرف أنه في لحظة الموت، سيظل هناك شيء يزعجني. وهو بعض الشك الذي سيفسد عليّ هدوء لحظة احتضاري، بسبب حكاية امرأة النزل!

ـ أوه! اللعنة! قال الجد، ثانية؟

ـ «نعم ، ثانية! أعرف جيداً بعد ما قلته لي، أنها ماتت من زمن بعيد، وأنها كانت قبيحة لدرجة البشاعة، وتزن مائة كيلو، وأن صديقك الحداد، برأسه المنافق. أشفق على اللحادين منها.... أعرف أيضاً أنها لم تمتعك أبداً، فيما عدا أنك أحببت يخنتها.. فهيا يا أندريه، لا تعاملني كأنني بلهاء لأني أعرف الحقيقة من أربعين عاماً، ولكني أرغب في أن تقولها أنت لي».

ونظر إليها الجد، برأس مائل على كتفه الأيمن، ويده اليسرى تملس على لحيته ولكنه لم يجب وعاودت، بنبرة من الحكمة والصداقة:

«أندريه، الآن، ماذا سيكون تأثير ذلك؟ هذا النوع من الأشياء، لم يعد يهمنا، لكن ما يبقى، هو صداقتنا. وصداقة أربعين سنة، إذا تخللتها كذبة

صغيرة يكون شأنها شأن حجر مسنون يقبع في حذاء ساعي بريد... هيا يا أندريه، قل لي الحقيقة!»

«ولماذا أقولها لك، مادمتِ تعرفينها؟»

وصارت الجدة الشاحبة. في وضع يثير الشفقة.

«إنه لأمر تعيس في ذاته ألا تفهمني، فليست الحقيقة هي ما أحب، ولكني أحبك أنت فأنا أريد لزوجي ألا يكون كذاباً! يا أندريه، إذا لم تشأ الحديث معي في هذا، فذلك معناه أنك تسرق شيئاً مني!»

ورغم الالتهاب الذي تعانيه في مفاصلها، راحت تركع أمامه، ووضعت رأسها الشائب على قلبه الذي يدق بالكاد. والذي لم يعد يضخ إلا دماً باهتا على طول شرايينه الضعيفة.

عندئذ، راح الجد المتأثر للغاية، يمد بيده فتائل شعرها الخشنة البيضاء. وكانت شموع القنديل قد احتضرت، لكن جذوع الزيتون أرسلت شعلات صغيرة زرقاء، وراح يحدثها في البداية كأنه يحدث طفلاً له.

«ولكن بالطبع، أيتها العبيطة، قال. بالطبع قامت بينها وبيني علاقة. كنت في الأربعين وأنت بعيدة جداً عني... ولكنك تعرفين جيداً أنني لم أحب غيرك أبداً، وأنك أم أطفالي.

ـ «آه! قالت الجدة مبتسمة، لقد انزاح عن صدري هم ثقيل! أخيراً، اعترفت!» وأطلقت تنهيدة ارتياح، وعاودت في التو:

«وكيف جرى هذا! آمل ألا يكون قد حدث من أول يوم التقيتما فيه؟

ـ أوه! بالطبع لا! قال الجد. ففي اليوم الأول لم ألاحظ حتى وجهها. فلم أكن أفكر إلا فيك. ثم، إنك تعرفينني، فليس في رأسي سوى القباب التي

أعمل بها، وكنت مشغولاً جداً بسبب حجارة باريس، التي لم تكن من نفس نوع حجارة منطقتنا، وكانت تهدد بتحطيم أزاميلي... عندها، وبما أنه كان هناك زميل من منطقة «نوج» يعرف كيف يتعامل مع هذا الحجر، ظللت أتحدث معه طيلة الوقت، لكي يحدثني عن أسرارها... تخيلي أنهم كان لديهم عدة نصفها إزميل ونصفها مسلة. أي أنها كانت عبارة عن إزميل مستدير مفلطح عند الحافة، وحده القاطع مشرشر كحد المنشار... ولم أكن أعرف كيف يعملون بها، لكنهم لم يكن بعملهم عيب إلا أثر أسنان الآلة، وهو ماتتركه ضربة الشاكوش المدبب على مقبضها، المصنوع من الصلب المصهور، ثم...

ـ إني متأكدة؛ قالت الجدة، أنها هي التي بدأت مغازلتك.

ـ ها أنت قد خمنت، فضلاً عن أن ذلك لم يكن أمراً صعباً، فقد صنعت معي ماصنعته أنت معي».

وشرع يقص القصة، التي كانت نفس القصة منذ أن كان هناك رجال ونساء على هذه الأرض. النظرات الأولى، ثم الأعين المنخفضة، ثم البسمة الشاردة على الوجه الذي احمر خجلاً.

وراح يتحدث، ويستعيد الرؤى، ويعيش من جديد الساعات الصاخبة لمساء متوهج من مساءات صباه.

وراحت الجدة تسأله طيلة الوقت، وهو يحكي لها كيف كانت الليلة في حجرته، وكيف عضته وجرحته في أكتافه، وكيف وقعت من السرير وهي تضحك، وساقها في الهواء...

٭ ٭ ٭

وصلنا إلى مزرعة روكفير في اللحظة التي انبثقت فيها الشمس من التّل.

وأمام المنزل الواطئ، تحت التينة الكبيرة، أمام عين الماء، كان هناك جمع من الفلاحين والفلاحات.

كان أربعة رجال يدفعون الجدة بأيديهم وأكتافهم وقد صنع أمامهم بضع نساء ما يشبه الحاجز، وأيديهن أمامهن. وراحت هي تدفع الرجال في اتجاه النساء اللائي يدفعنهم... وقد فتحت عينيها كالمجنونة، وكانت في قوة الحدّاد.

وحجزتني أمي، وقالت فيفي لأبي: «اذهب لترى بابا!»

وهرعت هي إلى أمها، بينما كنا نحن ندخل المزرعة.

في المطبخ الريفي الكبير، التف هنا، أيضاً بضع أشخاص. وفي منتصف الدائرة، كان الجد جالساً على كرسي. وكان منحنياً أمامه، طبيب بعوينات، ممسكاً بما يشبه بنسة الساعاتي، ينبش بها في كتف الجد المدميّ. كان يبحث عن السِّنة، سنة جدتي الرائعة. وكانت قد غرستها في كتف أندريه وأراها لنا الطبيب، على طرف مبضعه، كانت بيضاء، مستديرة وملساء، مدماة من عند طرفها.

ودفعني أبي أمامه. واحتضنت بين ذراعي الجذع النحيف، وغطست رأسي في الذقن البيضاء. ومسد الجد على رقبتي، وحدثني أنا وحدي، قائلاً:

– آه! النساء! ياصغيري الجميل، لاتثق بالنساء! النساء، أمر لايمكن فهمه.

ولم أفهم أنا أيضاً. فقد كان يأتينا من الخارج صوت الجدة، التي كانت تصرخ مثل الذئبة، وهي تندفع، خافضة رأسها، في الحشد الملتف من الجيران، الذين راحت تعضهم بلثتها، والذين راحوا يدفعونها بلطف.

«جوزيف!»، قال الجد، اقفل الباب بالمفتاح... هيا أسرع! فلو جاءت ستقضي عليّ.

ـ انظر يا أبي، قال جوزيف، أنا لا أظن أنك تفكر في هذا...

ـ «بل نعم! بل نعم! قلت لك إنها تريد قتلي! ولو لم يأت الجيران لنجدتي، لكانت ذبحتني! ألا ترى أنها جنت!»

قالت أمي التي كانت جالسة بالقرب منه، بصوت خفيض:« لا تظن هذا ياأبي ، إنها ليست مجنونة».

كانت ، شاحبة، وضعيفة. وكانت يداها منعقدتين فوق ركبتها وهي تبتسم بحزن. وتناءت إلى سمعنا صرخة طويلة متوحشة. صرخة مرتعشة بالسعار واليأس:

«اسمعي! قال الجد، ألا تُسَمّينَ هذا جنوناً عاصفاً؟»

ـ لا ، قالت أمي، إنه الحب».

◊ ◊ ◊

عندما قص جوزيف القصة على العم جول، نسي أن يحدثه عن سنة الجدة، ولخص كل الموضوع في أنه شجار صبياني بين عجوزين ارتدّا للطفولة. لكن الأمر بالنسبة لي كان مأساة ضاعت فيها هيبة جدي، بما أنه قد عضه أحد.. أما عن الجدة، فقد كنت أفكر فيها مثله على أنها صارت مجنونة، وهو الأمر الذي بدا لي، أيًا ما كان عمرها، لم يتفاقم بعد. وفي واقع الأمر، عندما يعض

شخص شخصاً، فإن علينا مباشرة التفكير في السعار، وهو الأمر الذي تصورت معه أن من الحكمة إرسالهما معاً إلى السيد باستير، الذي عالج الراعي جوبيل في كتاب دروس الأشياء، فإن لم يحدث هذا فإن حياتهما ستتعرض لخطر أن تنتهي بمعركة شرسة بين عواجيز مسعورين، من النوع الذي يدور الحديث عنه في الجرائد، وهو ما سيكون كارثة للعائلة، وبشكل خاص للعمة فيفي، لأنهم في هذه الحالة لا يعطون وسام الشرف لشخص ينتمي لعائلة مسعورة. وصرحت بجانب من هواجسي هذه لأبي، الذي أجابني بأن الجدة قد طلبت بالفعل الصفح من زوجها وهي راكعة، وأن فقدها لسنتها الأخيرة سيضمن من الآن فصاعداً هدوء حياتهما. وقد طمأنني ذلك، لكن الكلمات الأخيرة التي تفوهت بها أمي طرحت عليّ إشكالاً مستعصياً.

فقد قالت: «إنه الحب!»، ولم تقل هذا على سبيل الدعابة. ولم أفهم شيئاً. فقد وجدت أنه أمر طبيعي جداً أن نعض عدواً ما بشراسة، ولكن أن نعض شخصاً لأننا نحبه، فهذا فعل يسير تماماً ضد المنطق. فما الذي أرادت قوله؟ ولم أجرؤ على سؤالها. ولكن خطرت في بالي ذكرى امرأة شقراء، ذات صباح، كانت تغني في الشارع، على صوت جيتار، بعينين جاحظتين «الحب جنون»، وهي تقوم بحركات مجنونة، ولم يكن الناس الذين يستمعون لها مندهشين بالمرة.

ثم، كانت حكاية الخبازة تلك، التي صرعت زوجها وهو نائم، والتي قالت خالتي روز عنها ـ لتجد لها عذراً ـ إنه «خانها» وإنها كانت «تحبه بجنون».

إذن هناك علاقة بين الحب والجنون. ولكن هل هو الحب الذي تسبب في جنون هؤلاء الناس، أم أن الجنون هو الذي أهاج حبهم؟

لقد أحببت أمي ، بكل قواي ومع ذلك لم أجن، بما أنني نجحت بترتيب الثاني في منحة المدرسة الثانوية... بالطبع، لو أن شخصاً أراد لها السوء، فسوف

أستعر ضده، ولكن ليست هي الشخص الذي سأعضه...

وانتهيت إلى استنتاج أن الحب الذي يسبب الجنون هو أمر من شأن الكبار والنساء بصفة خاصة.

◊ ◊ ◊

لم أكن قد عرفت الكثير عن سلوك وعادات الجنس الضعيف فلم أخالط سوى أمي وخالتي، اللتين لم تكونا نساء، وإنما أم وخالة. بالطبع كثيراً ما رأيت في الشارع بعضاً من هذه المخلوقات، اللاتي يضعن قبعات يزيّنّها بأشياء عديمة الفائدة، والتي كان من شأنها أن تزعجهن ، إذا كان عليهن أن يرفعنها لكي يُحيين أحداً. وقد لاحظت قبل أي شيء أنهن يحركن مؤخراتهن أثناء المشي، وهو ما جعل شيئاً من القلق يتسلل لنفسي. وقد كانت منهن صديقة لأمي لها سحنة مبودرة كالسردين النيئ، وفم مصبوغ، وجفون مفحّمة.

كانت تقبلني بلطف، ولم يكن ذلك يضايقني، لكنها كانت عندما ترحل، كنت أمسح وجهي، وكان أبي يفتح الشباك، لأن الرائحة تكون طاغية بأكثر مما هي في صالون الحلاقة.

ذات يوم قالت أمي: «ليس خطؤها أن شكلها لا يسر...»

وقد فهمت أن الشكل السيئ لأشياء هذه السيدة لم يكن إلا هوسها بالتزين، وذلك لخداع الناس حول جمالها، وهو ما أنظر له باعتباره عدم أمانة.

كان لي، مع ذلك، بعض الخبرات مع الفتيات؛ تبدأ من رؤيتي اليومية للأخت الصغيرة، ولقاءات الفسح مع ابنة عم لطيفة، وألعابي كل خميس، في

الحوش المقفر للمدرسة، مع كليمنتين، ابنة الفراشة.

‹› ‹› ‹›

كانت الأخت الصغيرة شخصية طريفة، لكنها احتلت، في رأيي، مكانة أكبر كثيراً مما يستحقها حجمها الهزيل. فكانت تصرخ عندما نمشطها، وتدفع في هياج بالحساء اللذيذ، ثم تطالب به وهي تنتحب، وفجأة تنفجر بالضحك. كانت تطمح لأن نشركها ألعابنا ولكنها تذوب في الدموع عندما يصعد بول، لكي يُلهيَها، على طاولة، ويغرق عروستها في غلاية الغسيل، أو عندما نغلق عليها بالمفتاح في الدولاب، فيما بين الملابس المحفوظة بالنفتالين، لكي نلعب الاستغماية.

ذات يوم، ومن أجل اللهو، صحت بها من خارج الباب بأننا فقدنا المفتاح، وأضاف بول معزياً لها بأن صانع المفاتيح سيأتي لكي يفرج عنها في الغد.

وراحت تصرخ صرخات ممزقة فتحت لها الباب بسببها على الفور، ولكن كان ذلك متأخراً فقد هرعت أمي وصفعتنا في نفس الوقت بيديها الاثنتين كالملاكمين «الذين يضربون في كل مكان بأجساد خصومهم».

كل ذلك أثناء مواساة الدلوعة الغبية، وبينما كان بول يدعك خده، قالت لنا بجدية شديدة إن البنات شديدات الهشاشة، بما لا يجب فيه علينا أن ندفعهن، وأنه من الخطر أن نعاكسهن، لأنهن أكثر عصبية بكثير من الأولاد، وأن صيحة غضب قادرة على أن تجعلهن يسقطن مرضى.

أما ابنة عمي التي كانت تصغرني بعامين، فقد كانت شديدة الجمال، بأعين واسعة سوداء، تخفضها تقريباً طوال الوقت، لأنها كانت غير اجتماعية بالمرة، ولم تكن تتكلم إلا لكي ترد فقط.

وعندما كانت تشعر أن أحداً يراقبها، كانت تحمر خجلاً، وعندما كان أحد يشدها من شعرها ـ حتى ولو للدعابة ـ كانت تبكي في صمت.

مع ذلك، فذات يوم حين جاء والدها للغداء عندنا، فاجأتها بغرفة أمي، وهي منشغلة جداً بحيث لم ترني.

كانت وحدها أمام الدولاب ذي المرآة، وهي واقفة تنحني انحناءات التحية، ممسكة بطرف فستانها. وكانت وهي تحني رأسها تارة يميناً، وتارة لليسار، تغير من وضع ابتساماتها الخبيثة، بشكل جعل كل ابتسامة تختلف عن الأخرى، كما لو كانت تبحث عن أفضل ابتسامة لها لتضعها على شفتيها.

أخيراً ، وبعد عدة تقطيبات صغيرة، اقتربت من المرآة، وقبلت، ثلاث مرات متتابعة، انعكاس شفتيها فيها!

وقفلت الباب بلاضجة، مقتنعاً بأني فاجأت خصوصية حالة من التشتت العقلي وأنه يحسن ألا أقول شيئاً لأحد ـ فضلاً عن أنه كان أمراً مخجلاً لي أن أحدث فيه أحداً.

مرة أخرى، على الطاولة، آلمتها، فجأة شوكة سمك، اخترقت لثتها، عند

مدخل حنجرتها. فراحت تكح، وتتأوه، وتتحشرج، وتختنق، وراحوا يخبطونها بشدة على ظهرها.

وقال لها أبي وهو مذعور كالآخرين، «حُكيّ إصبعك في زورك، وابصقي!»

ولم تكن تعرف تفعل لا هذا ولا ذاك، وعندما خرجت من حلقها الشوكة في النهاية، بفضل قطعة من لباب الخبز، اعترفت أمها بلا خشية قائلة: «أنا الأخرى، لم أعرف في حياتي كيف أبصق!»

<> <> <>

أما كليمنتين، صديقتي في أيام الخميس ، وأحياناً أيام الأحد، فكانت في الحادية عشر من عمرها عندما كنت أنا في التاسعة.

كان أبوها حارساً في حديقة للحيوانات، وكان يثير إعجابنا، أحياناً، عمله في مهنته هذه، فقد كان يقف على سقف قفص على طرف باب مفتوح، ويدلي قطع اللحم في أفواه الأسود التي تزأر.

كانت أمها فراشة المدرسة. وكانوا يسكنون بالقرب من البوابة، في رواق سيئ الإضاءة، لكنه كان واسعاً ودائماً تفوح منه بعض روائح الطبيخ المتبّل.

كان شعر كليمنتين طويلاً، وأحمر وجافاً، وكان لها هدبان طويلان يحيطان بعينيها الزرقاوين اللتين كانت لهما نظرة رائعة ومحيرة، فلم تكونا تنظران في نفس الوقت لنفس الاتجاه.

وكنت أحب أنفها الصغير المستقيم، لكن خديها كانا مبقعين ببقع شقراء،

كانت مانجيابان قد أكدت أن السبب في ذلك هو أنها في طفولتها المبكرة كانوا يتركونها تنام بالشمس، مستظلة بمصفاة. وهذا التفسير، الجديد بالنسبة لي ، بدا لي تفسيراً نصف علمي، وسألت مانجيابان إن لم يكن هذا دعابة منها؛ لكنها أكدت أنها علمت به من أمها، وأنها شرحت لها الأمر على هذا النحو بخصوص جارة لهم، كانت مبقعة بنفس الشكل، كان والد مانجيابان «يلف عليها» .

◊ ◊ ◊

وكانت كليمنتين تلفّ أيضاً، لكنها تلفّ حوش المدرسة، بمكنسة من الخلنج المكوع بزاوية حادة، تجمع الأوراق المتساقطة في أربع أو خمس كومات، أحرقها أنا وراءها تباعاً. وعندما أفكر فيها اليوم تجيء إلى مخيلتي صورة إيشاربها الأزرق المدخن، وأشم ثانية العطر الأشقر والناعم لحريق أوراق الخريف.

كنت في الشتاء أساعدها في تخزين الخشب والفحم لمواقد الفصول ، وفي الصيف، كنا نروي الفناء بخرطوم له رشاش من النحاس كانت رشته ـ التي كثيراً ما تضطرب بالكركرات والفرقعات تندفع بعيداً وتعبر الحائط، وتغرق بعض العابرين كيفما اتفق في الشارع، فكانوا أحياناً يأتون ويحتجون.

عندها كانت أم كليمنتين تحمينا من الخطر وهي تعبر، واضعة قبضتيها في خاصرتيها ، مقتربة من المتطفل ومقربة منه شخصيتها العنيفة، وهي تنهي الموضوع قائلة:

«إن من لايفعلون شيئاً هم المعصومون من الخطأ» .

عند انتهاء هذه الأعمال، كان بول ـ المتأخر دائماً ـ يصل بدوره، فكنا نلعب الحجلة، أو بالبلي أو الكرة.

كانت كليمنتين شديدة المهارة، ولكنها كانت تغش بوقاحة، وترفض دائماً الإقرار بأنها خسرت. والأدهى، أنها كانت تكذب بلا توقف، لالشيء إلا لمتعتها فقط.

على سبيل المثال، جاءت مرة على أطراف أصابعها، لتزف لي بصوت خفيض، وهيئة مذعورة، أن السيد المدير مريض مرضاً خطيراً، وأن عدداً من الأطباء يحيطون بسريره. وبعد خمس دقائق، وبينما كنت أفكر في الجنازة المهيبة لهذا الرئيس القوي، عبر السيد المدير بنفسه الحوش أمامي، وهو في شدة المرح، وعصاه في يده.

في مرة أخرى، قالت إن أحد الرماة المجانين ـ جاويش في الجيش ـ جاء، كما قالت، وطلبها للزواج من أمها، لأن الفتيات في بلاده تتزوجن في الثانية عشرة»، طبيعي أن أمها رفضت، «لأنه في أفريقيا جو شديد الحرارة ، وكذلك، فالنساء هناك هن اللاتي يحملن الأحمال».

«فضلاً عن أنني، أضافت هي، مخطوبة لأمير أمريكي. يكسب من الأموال ما جعله يقتني خزانة كبيرة يضعه فيها. ولدي سبب يمنعني من البوح لك باسمه».

ذات مساء، وأثناء عودتها من بعض المهام، تبعها رجل ضخم، له ذقن سوداء، وكان الوقت ليلاً، فراحت تجري بكل قواها:

«لو أنه لحق بي، لا أدري ماذا كان سيصنع في!»

كان من رأي بول أنه يريدها لكي تعمل لديه راقصة في سيرك، أو ربما ليرغمها على بيع السلال في بلد أجنبي، كطولون أو آفينيون. عندئذ، هزت

رأسها عدة مرات وسخرت بشكل خفيف وهي تنظر لي بجانب عينيها؛ ثم قالت: «إنه طفل! ولا يفهم!»

وأنا أيضاً، لم أفهم، ولم أكن لأفهمها أبداً.

كانت كثيراً ما تضحك مقهقهة، أثناء لعبنا الدومينو، وتطوِّح برأسها للوراء، وفمها فاغر مفتوح:

«ماذا دهاك؟ لماذا تضحكين؟» لكنها بدلاً من أن تجيب، كانت تثب ناهضة، وتجري ممسكة بمكنستها، وتراقصها.

ذات يوم، وفي لحظة من لحظات الصداقة، قلت لها:

«إن لك عينين لو كانتا متشابهتين لصارتا جميلتين»!

وكان ذلك سبباً لغرق تلك البلهاء في البكاء. المصحوب بالتنهدات والشهقات الممزقة ولكي أهدئ من روعها. شرحت لها أن هناك مجاملة، وأنني أجد من الأفضل للمرء أن يكون له عينان بدلاً من أن يكون له زوج عيون. فهجمت عليّ بسرعة القط وخمشتني في وجنتي تحت الأذن، الأمر الذي رددت عليه بصفعة سددتها بإحكام. وظلت للحظة تحت تأثير الدهشة، ثم جرت حتى شجرة الدلب، ووضعت جبهتها على ذراعها وهي تستند إليها، وشرعت في النعيق بقوة مما بدا لي معه أن من الحكمة أن أعود لمنزلي جرياً.

وعندما بلغت سنها الثانية عشرة، أصبحت أكثر غرابة، وبدأت تسرُّ لي بأسرار غامضة.

ذات يوم جلست إلى جواري على الدكة. تحت السقيفة، في مواجهة الفناء الخالي وقالت لي: «لي صديق يأتي كثيراً ليلعب معي. وهو لطيف، وجميل جداً. ومع ذلك أجده غبيًّا».

ـ لماذا؟

ـ لأني أعرف جيداً أنه يحبني، ولكنه يخاف أن يقول لي ذلك، ولا يجرؤ على تقبيلي.

ـ «وأنت، هل يعجبك؟» وطوحت برأسها للخلف، ورفعت عينين خَدِرَتَيْن ناحية السقف، وتنهدت : «آه نعم!»

ـ وما اسمه ؟

ـ «مارسيل، مثل اسمك، كما أن له أيضاً عينين كستنائيتين، مثلك. وكثيراً ما أحاول أن أجعله يفهم ، ولكن محاولاتي تذهب هباء».

عندها أصابني السخط لأنها تمنح قلبها لهذا الكائن، الذي تجرأ على أن يشبهني، ويحمل نفس اسمي. «وأين تلعبين معه؟

ـ «هنا، بالمدرسة».

وشعرت بانتصار.

«حسناً، يا ابنتي، إنك كذابة لطيفة! فلو أنه جاء هنا، لكنت رأيته، لأنني أنظر كثيراً من الأحيان من شباك المطبخ! لقد اخترعت كل هذا لأنك تعتقدين أنه سيثير غيرتي، ولكني أريد أن أقول لك إن هذا لا يعنيني، بل لا يهمني بالمرة. وليس هناك أي داع لأن تحدثيني لأني حتى لن أستمع إليك!»

عندئذ نهضت، عاقدة يديها، ناظرة لأعلى، وصاحت بصوت حاد: «ما أغباه! ما أغباه!». وهربت ...

بعد عدة أيام من ذلك ـ في الخميس الذي تلا ـ حين كنت ألعب وحيداً بالأحجار الخمسة في ركن من الفناء، تقدمت نحوي بخطوات بطيئة وبطريقة جادة قالت: «أريد أن أقول لك شيئاً في غاية الأهمية».

ـ وما هو؟

ـ حسناً، يمكنني الآن مواصلة اللعب معك. ولكن عليك أن تلزم الحرص.

ـ أحرص على ماذا؟

ـ على ألا تضربني في صدري. حتى ولو ضربة خفيفة، لأن ذلك سيكون خطيراً جداً .

وأصابتني الدهشة: «لماذا؟ أتسعلين؟»

وراحت تضحك: «لا! أبداً! ولكن من المفروض ألا يلمس أحد صدري، لأنه قد صار لي الآن صدر»

ـ صار لك ماذا؟

ـ صدر.

ـ وماذا بعد؟

ـ «يا إلهي ما أغباه أنظر!»

ووضعت يديها على خاصرتيها، وكمشت نفسها، وتنفست بعمق لتنفخ جذعها الأعلى: «لقد بدأ ينمو! قالت أمي، قالت إنني سيكون عليّ قريباً أن أضع مشدات صدر!»

ونظرت إلى هذين البروزين الصغيرين (اللذين نفختهما بأقصى طاقتها) وأصابني نوع من القلق سببه افتخارها بأن هذا النمو المفاجئ سوف تغلق هي عليه، وتضع عليه مشدات. ونظرت لي بجانب عينها، وقالت:

«ربما ترغب في لمسهما. ولكني أعلمك أن هذا شيء لا يفعل. فهو ممنوع».

وسعدت لهذا.

«ولكن مع ذلك، قالت ، فهما ليسا من السُّكر ، ولكنك لو فعلت ذلك فسوف أتعارك معك».

ـ ليس اليوم، قلت. فليس لديّ وقت لأن أمي قد استدعتني منذ قليل...»

وشددت رحالي إلى البيت، وأنا متقزز بعض الشيء من فكرة أن العراك الذي اقترحته عليّ بتهورها ينذر بأن ينتهي بتوعكي في بركة من اللبن الذي قد تحمله في هذا الصدر.

وابتداء من ذلك اليوم، راحت ترتدي ملابس النساء، وتفتل جدائلها في ضفيرة مضحكة، وتقوم بإيماءات وتتنهد تنهدات لم تفعلها من قبل. وبعد بضعة أسابيع كانت قد كبرت بما يعادل خمس سنوات عني، وراح أبوها كل مساء يذهب للبحث عنها، لأنها كانت عند خروجها من المدرسة، تذهب وتلعب مع بنات الشارع على الناصية البعيدة .

قالت لي ذات يوم باعتداد:

ـ أنا، الآن، «أعاشر».

وعندما سألت أمي عن معنى هذ الفعل بالضبط، قالت لي بإبهام: «إن هذا قد يورد موارد غير مأمونة العاقبة»، وأعلن أبي أن «المسكينة الصغيرة» أصبحت بلا أي شك «مومسا»، مما جعلني أفكر في الملكة بروينهوت. وكان هذا هو السبب الذي جعل أبويّ يتفقان معي على عدم الحديث معها. هذا المنع الذي احترمته بدون صعوبة، لأنني كنت قد صرت غير مهتم بها. فقد أصبحت تخيفني.

على هذا النحو كانت تأملاتي الخاصة لسلوك الفتيات لا تسمح لي بتكوين حكم قاطع، إلى أن قال أبي ذات يوم تعبيراً كشف لي كل أسرار الموضوع.

ففي أثناء حديث عن ابنة أخت السيد بيسُّون، التي كسرت ذراعها على إثر سقوطها من شجرة، قال: «هذه الصغيرة، غلام لم يستو».

ولقد فهمت هذه العبارة بطريقتي، التي لم تكن بالقطع الطريقة الصحيحة، لكنها لم تكن بالطبع المرة الأولى التي يحدث بسببها اكتشاف عظيم بسبب خطأ في التفسير.

بالنسبة لي، كانت هذه الكلمات «غلام لم يستو» تدل على أن البنات لسن إلا خطوة خاطئة، وتعبيراً ناقص التكوين صنعته الطبيعة، نتيجة لخطأ في مسار عملية خلق الولد.

هذا هو السبب في أنهن تحمر وجوههن خجلاً بلا سبب، ويضحكن للاشيء، وتبكين لأقل من هذا، ويخمشنك لأنك تجاملهن، وهو السبب في أنهن لا يعرفن الصفير ولا البصق، ويسقطن من على الشجر، ويختلقن الأكاذيب التي لا نفع لها ويقفن في الخفاء ليتلاعبن أمام المرايا...

فهن «أولاد لم ينالوا فرصتهم من النضج».

فأنا، كولد نجح تركيبه، لا أحمر خجلاً أبداً، ولا أضحك بلا سبب، ولا يوجد أحد (باستثناء أمي) قادر على قول ما يبكيني. فأنا قوي، وكانت

كليمنتين تستدعيني إذا كانت بحاجة لأحد يحمل دلو ماء ممتلىء؛ وأنا أعرف كيف أصفر كالعصفور ، مثنياً لساني تحت أصبعين. أما عن البصق ـ فأنا أقول بلا تواضع ـ كنت أتساوى تقريباً مع مانجيابان، التي كانت وهي في أفضل أحوالها، تطلق كريات لعابها إلى بعد خمسة أو ستة أمتار، ولم أسقط في حياتي من على شجرة كتلك الضعيفة التي هي «ولد لم يستو».

مع هذا، فكل الناس يهتمون بالفتيات، وبغير أن أفهم السبب، عليّ أيضاً الاعتراف بأنهن كن يعجبني.

وقد تكشف لي أثناء تأملي، في المساء بسريري، عدة أسباب تبرر وجودهن. فأولاً، كانت جوانب النقص فيهن تؤكد في ذاتها على نقاط قوتي، وتسمح بقياس الفارق فأنا بالنسبة لأبي، أو نابليون، لم أكن شيئاً كبيراً، بينما وجود كليمنتين في ذاته يجعلني أقترب من هؤلاء الرجال العظام، الذين يستحقون بالطبع الاعتراف بهم.

من ناحية أخرى، قدرت بعدل أن السيدة الطبيعة، لكي تغطي على فشلها، عملت على خلقهن، بأعين واسعة، ورموش طويلة، وأيد رقيعة، وشعر حريري، وإيماءات لطيفة، وأصوات ناعمة موسيقية. فهن في أغلب الأحيان ممتعات عند النظر إليهن، لكنهن في أي شيء على مستوى الحياة اليومية، لايستطعن إلا أن يكن معجبات، أو موضع إسرار، مع عدم الثقة فيهن.

وهكذا سنحت لي في هذه الإجازة . فرصة معرفتهن على نحو أفضل وأن أكتشف الوجه الطفولي للحب.

ذات صباح ، رأيت ليلي يأتي مهرولاً. كان يحمل كيسين تقاطعت حمالاتهما على صدره، وعلى كتفه طرف زكيبة تتدلى على ظهره. وبدا لي منفعلاً ، فقد أنبأه موند دي باريبون بوصول أسراب الطيور المهاجرة.

«لقد رآها، قال لي، إنها ذات العجيزة البيضاء، وشحارير كورسيكا، وطيور الدارناجا. إنها تحط على منحدرات الرأس الحمراء، ولكنها لن تظل هناك وقتاً طويلاً. هيا لنسرع!»

كان يحمل في أكياسه الدزينات الثمانية من الفخاخ التي تكون كل ترسانتنا، بالإضافة إلى دزينتين اقترضهما من أخيه باتسيتا، وستة فخاخ من نوع «فيرتوليت» (وهي فخاخ من ذوات الشبكة المصنوعة للإمساك بالطيور حية) اقترضها من موند دي باربيون.

ونصبنا هذه جميعها على مساحة كبيرة، الأمر الذي جعلنا نعمل حتى هبوط الليل وأثناء نزولنا، قال لي ليلي:

«أمر تعيس، أنني لن أستطيع المرور معك على الفخاخ غداً صباحاً».

ـ لماذا؟

ـ لأن أبي مصمم على الذهاب وتنظيف بئر «القمينة الجديدة». وسوف ينزل هو إلى قاعها، وعليّ أنا أن أساعد باتيستا في سحب الدلاء. وهنا معناه أني لن أنتهي قبل الخامسة مساء. ولكن لا يجب ترك هذا الكم من الفخاخ هكذا بلا متابعة حتى مساء الغد، فقد يكون معنى هذا أن عملنا ستنهشه الثعالب والفئران والنمل، بغير ذكر لأعرج الألاوش. الذي يخشى رجال الدرك، لأنه لايستطيع الجري، ويحاول سرقة فخاخ الآخرين. لذا لابد من ذهابك في الصباح. ليس مبكراً جداً حتى لا تزعج الطيور حاول أن تكون هناك في العاشرة فهذا معقول. ثم نقوم بجولة أخرى معاً في الخامسة أو السادسة، وأعدك أننا سنرجع محملين!»

في صباح اليوم التالي، وبعد القهوة اللذيذة، باللبن، جلست بالشرفة على كرسي مريح بانتظار الساعة التاسعة والنصف ، لكي أذهب للمرور على هذا

الكم الهائل من الفخاخ. وكنت أقرأ للمرة الثالثة كتاب الجزيرة الغامضة، وللمرة الثالثة أدهشني وأسعدني للغاية ذلك الطوربيد غير المتوقع الذي فجر، أمام عيني في سطور الكتاب، سفينة القراصنة، في نفس اللحظة التي اعتقدت فيها بأن أبطالي سيهلكون .

لم يكن بول قد بدأ بعدَ يومه الشاق كمحارب بلا أعداء، فقد كان جالساً القرفصاء إلى جوار التينة، يراقب علبة صغيرة، تجمهرت بها دستة من صراصير الحقل. وقد أعد لها، إيماناً منه بلافونتين الطيب، وليمة من «أجزاء مقطعة من الذباب أو الشعيرية» ، أضاف إليها، بمبادرته الخاصة، نصف تينة جافة وقطعة من الجبن. فقد زعم بالفعل، أن سبب قصر عمر حشراته هذه يعود لنقص في التغذية، وخلص إلى أن يعلمها كيف تأكل.

أثناء ذلك، خرجت أمي إلى الباب، ونظرت إلينا برهة، ثم قالت لي:

«إن السّعتر الذي كان لدي نفد. اذهب وابحث لنا عن بعض نباتاته الخضراء، إذا كان قد ظل منها شيء».

ـ أعرف أين أجدها، قلت. إنها ليست بعيدة. إنها في آخر وادي رابون وسوف أذهب بعد قليل لهناك، لكي أمر على الفخاخ، عندما أنتهي من قراءة الجزء الذي شرعت فيه.

ـ «أكمل قراءة هذا فيما بعد، فما طلبته منك أمر مستعجل، لأن اليخنة التي استعمله فيها ستكون للغداء».

وكان أمراً شاقاً عليّ، أن أنتزع هكذا من أبطالي، بنكروفت، وهربرت، وكيروس، وسميث، وهم في عز المعركة، وبدا لي أن من حقي أن أكافأ على تضحيتي. «حسناً، قلت، سأذهب فوراً. ولكن أعطني بسكوتتين».

ولم تساومني في أجري، وأعطتني بسكوتتين، ولكنها ضعفت وأعطت

اثنتين أخريين لمربِّي الصراصير. الذي لم يفعل شيئاً ذا فائدة أبداً، والذي يستحق أقل بكثير مما حصل عليه بغير شكر، وبغير حتى أن يرفع رأسه، إذ كان منشغلاً.

وبينما كنت أضع يدي في السير الجلدي لعصاة الراعي الخاصة بي، قالت لي ثانية: «اهتم أيضاً بالبحث عن الينسون، ولكن حاول أن تأتي به من حجم أصغر من الذي جئت به في المرة السابقة. فقد كان صلباً كالبوص، وجافاً كعصا الصنارة. ولم يصلح إلا لاستخدامه كحطب للموقد».

ومنعت نفسي من الإجابة بأن جوزيف هو الذي كان قد انتقاه بنفسه وانصرفت، وأنا أقرش البسكويت، نحو وادي رابون المنعزل.

كان الصباح حاراً، والصراصير تصرصر بوله، وكان طائر كبير من طيور السقاوة أحمر اللون يحلق، في قلب السماء الذهبية.

وجريت بحذاء التل، في العشب الجاف الصيفي، تتقدمني هالة من الجراد الأحمر والأزرق صنعت ما يشبه خيال المآته.

كان الرابون وادياً بين التلال، يمتد بين منحدرين مشجَّرين، يلتقيان في صعودهما عند طرف السماء.

وكان قاعُه عبارة عما يشبه البحيرة الجافة ـ «ككوكب فضائي» ـ كان يزرعها الفلاحون الغلاظ في الماضي بالأعناب، والقمح الأسود، والحمص. ولكن منذ أن اخترع الواجب التعيس للخدمة العسكرية الإجبارية، صار أبناؤهم عند وداعهم لحياة المعسكرات أسرى الحياة في المدينة، حيث يؤسسون بها سلالات من حراس الممرات، ومرممي الطرق، وسعاة البريد، مما كانت نتيجته، أنه مع رحيل العواجيز، للعالم الآخر، راحت التلال،التي لم تكن تريد إلا هذا الرحيل، تطلق على الحقول المهجورة زخَّات مُركَّزة من السعتر، ثم الينسون، ثم الزعرور.

وقد بقي مع ذلك، في منتصف الوادي تماماً، بين سياجين شائكين، كرمة أجدبت إلى حد كبير، ولكن ظلت بها بعض نباتات مازالت تثمر، بشكل غير متوقع، عناقيد ضخمة، شأنها في ذلك شأن النساء الصغيرات المعتلات اللاتي تأتين للعالم أحياناً بلص نهّاب، أو ببطل في المصارعة. وذلك لأن مالكها، العجوز نييني، كان يجيء من وقت لآخر ليحميها بمحطبه من هجوم الغزاة وليحمل إليها بعض كومات السّباخ. على ظهر حماره الذي يمتطيه، والتي كان هو منتجها.

واستخلصت، وأنا أخُبُّ وراء هالة الجراد الطائر، أنه يمكنني الذهاب واختطاف عنقود أو اثنين، أو الحصول على الأقل على التوت.

ولم أنزل إلى قاع الوادي فقد لففت أسفل يسار المنحدر، ووجدت في التو ضالتي، شريطاً طويلاً من السعتر، أزهر قبل الصيف في ظل الصخرة الباردة.

وقطعت بلا مشقة بعض الباقات، وربطتها، الغصن إلى الآخر، بخيط طويل، ثم ربطت أطرافها بعد ذلك، لأصنع حمّالة أحملها منها.

ونزلت محمّلا بهذا الشكل إلى «الكوكب»، وغطست تحت الأكاليل ذات الحبوب الذهبية لغابة من الشّمر، كانت سيقانها أطول مني بكثير، ولم أكن أرى لأبعد من متر أمامي. عندها قرفصت على أربع، وتخيلتني، للحظة، نملة في مرج، لكي أعيش حالة الحساسية ـ وربما الفلسفة ـ الخاصة بهذه الحشرات الغامضة.

ومن ثم، وبواسطة سكين الراعي التي أحملها، قطعت من عند الجذور أطرى النبتات؛ ووجدتني مباشرة محاطاً بروائح طازجة خضراء، هي روائح الينسون المسكر. وربطت هذه السيقان بخيط آخر؛ ثم حملت الشمر تحت إبطي، وعلقت إكليل السعتر بالحمالة، وعصاتي في يدي، وخرجت من الغابة العاطرة، لكي أتوجه إلى الكرمة الوحيدة.

ولكني عندما دلفت إلى الممر، شُلَّت حركتي، وفغر فمي، فقد كان هناك في ظل الأغصان الواطئة لصنوبرة، وعلى حجر كبير أبيض، مخلوقٌ غريب جالس.

‹› ‹› ‹›

كانت فتاة في سني، ولكنها لم تكن تشبه في شيء كل اللاتي عرفتهن. كانت تضع على أقراطها الطويلة السوداء اللامعة، تاجاً من الخشخاش المنثور، وتضم إلى صدرها ملء حضن من ياسمين البر الأبيض، والسوسن البرّي الذي تحمله.

ولم يكن بادياً عليها الذعر ولا المفاجأة، ولكنها لم تكن تبتسم، ولم تقل شيئاً، وكان لها غموض الجنيات اللاتي يرسموهن في اللوحات.

وخطوت خطوة في اتجاهها، وقفزت هي بخفّة على بساط السعتر.

ولم تكن أطول مني، ورأيت أنها لم تكن جنية، بما أنها كانت تضع في قدميها صندلاً أبيض على أزرق مثل صندلي.

وسألتني بجدية، وهي ترفع ذقنها لأعلى:

«أي طريق هنا يؤدي إلى البراري» ؟

كان صوتها جميلاً، وواضحاً للغاية، وكانت لكنتها رقيقة، كلهجة بائعات المحلات الحديثة، وكانت عيناها الواسعتان تدقق فيَّ هي الأخرى.

وأجبت في التو: «هل تُهْتِ» ؟

ورجعت خطوة للخلف، وهي تنظر لي من بين الأزهار.

«نعم، قالت، لقد تهت، ولكن ليس هذا سبباً لرفع الكلفة معي، فلست فلاحة».

ووجدتها شخصية مغرورة، واستنتجت أنها لابد غنية، وهو أمر أكدته لي نظافة ولمعان ملابسها، فقد كانت جواربها البيضاء مشدودة بعناية، وكان ثوبها الأزرق يلتمع كالساتان، ورأيت من خلال أزهارها، أنها تضع حول رقبتها سلسلة صغيرة ذهبية تحمل ميدالية.

«حسنا، قالت هي، من أي اتجاه؟»

وأشرت لها بيدي، إلى طرف الوادي ناحية الممرات الثلاث المتشعبة كرجل الأوزة، وقلت لها: «إنه الممر الذي إلى اليمين»

ـ «شكراً».

ورأيتها وهي تبتعد، كانت ربلتا ساقيها مستديرتين (كسيقان الأغنياء) وقد علَّتْ سوسناتها لما فوق رأسها.

واتجهت إلى كرمة نييني. ولم تكن الأعناب قد نضجت بعد، ولكني بعد البحث وجدت ثلاثة عناقيد شبه سوداء.

وشرعت في امتصاص رحيقها بتلذُّذ، على الرغم من حموضة حبَّاتها، التي كانت تندلع تحت أسناني. ورحت أتساءل من تكون هذه الفتاة، التي لم أرها من قبل أبداً في المنطقة، لقد تحدَّثت عن البراري، وهي الكفر الذي يعد امتداداً للحصن الجديد، لكن مجموعة المنازل التي تكوِّنه كانت بعيدة، الواحد عن الآخر، وكان منزلنا تائهاً في بستان الزيتون، على حافة غابة الصنوبر. وفكرت في أنها بالقطع تعيش في الناحية الأخرى من الكفر، على مقربة من منزل فيلكس. «أتراها فتاة جاءت من المدينة لكي تقوم بنزهة مع أبويها؟»

وبينما كنت في منتصف عنقودي الأول، رأيت من خلال السِّياج باقة الأزهار تعود نحوي. وبتعمُّد وقصد، أدرت ظهري، وواصلت المصّ. وسمعتها تعبر السِّياج. ثم تنادي: «بسست...»

ولم أتحرك.

وعاودت: «بسست! بسست!»

واستدرت نحوها: «هل أنت التي تحدثين الضجة؟»

وردّت صاغرة: «أنت تعلم جيداً أن الطريق محاط بأنسجة العنكبوت الكبيرة! إذ توجد منها أربعة أو خمسة على الأقل، وقد حاول أكبرها أن يقفز في وجهي!»

– ليس لك إلا أن تتحاشي النسيج في مرورك، والطريق واسع يسمح بهذا!

– «نعم، ولكن يتوجب في هذه الحالة السَّيْر على الأعشاب الكثيفة (وكانت تقصد الشَّمَّرْ) وهذا سيكون خطراً أكثر! فقد رأيت حيواناً كبيراً يعدو، وكان طويلاً وأخضر!»

ونظرت لي بطريقة متودِّدَة، كما لو أنني كنت مسؤول الأمن بهذه المناطق، وفهمت أنها قد رأت سحليَّة، ولكن لأنها أزعجتني، قلت، بطريقة هادئة للغاية: «لابد أنه ثعبان. فهنا، وادي الثعابين. فهي تعيش على الفئران. ولأنه توجد فئران كثيرة، فكذلك توجد ثعابين كثيرة».

وأجابت بمظهر المستريب: «غير معقول! أنت تقول هذا لتخيفني!»

ولكنها راحت تنظر في العشب من كل النواحي . وعاودت أنا القول: «لا يوجد ما يخيف، لأنها مجرد حيات. وهي غير سامة، ولكنها ليست أسماكاً. وما عليك إلا أن تحدثي ضجة، فتشعر هي بالخوف أكثر منك».

وبغير أن أتحرك خطوة، تظاهرت بأنني أتفحص عنقود عنبي، كما لو أنني اعتبرت أن المحادثة قد انتهت. وبعد صمت طويل، قالت بنبرة تهكمية:

«عندما يكون هناك غلام لطيف، فهو لا يترك آنسة وحدها في مكان خطر كهذا. وقرشْت الحبات الأخيرة ولم أجب ورحت أفكر. لابد أن الساعة جاوزت العاشرة، وعليّ أن أحمل السعتر للبيت، ثم أتوجه إلى الرأس الحمراء فقد أوكل لي ليلي المسؤولية الكاملة عن إنجاز صيدنا، وهو الأمر الذي اقترضنا كذلك من أجله الفخاخ، وهو ما لايحدث بالمرة. ولكنه أوصاني بعدم الذهاب قبل العاشرة والنصف، وتدمير هذه العناكب لن يرغمني على عمل جولة كبيرة.»

وكانت تفكر بدورها، بما أنها عاودت القول:

«اسمع ، لكي ننتهي من هذا الأمر، أنا أسمح لك برفع الكلفة معي مرتين أو ثلاث إذا جئت وقتلت العناكب».

كانت تتحدث طيلة الوقت بنبرة أميرة، ولكن رأيت الخوف بادياً في عينيها وفهمت أنها قد تندفع، لكي تتجنب هذه الحشرات، لأن تلف وتأخذ طريق الباس ـ توم فتتوه وتضيع.

«هيا بنا ، قلت ، ولكنني لست بحاجة لأن أرفع الكلفة معك لأجل هذا».

ورميت بالعنقود الخاوي خلف الحاجز (لأن نبيني إذا وجده، فسوف يؤلمه ذلك). وحملت باقة الشّمر، ولوحت بعصاتي:

«من الأفضل أن أسير أنا في المقدمة»

واستبقتها بخطوة حثيثة.

وعندما بدأت أشواك الآس تتكاثف على الطريق، استدرت نحو الفتاة ورفعت يدي، فتوقفت، وراء أزهارها. عندئذ رحت أضرب الشجيرات بعصاي. وأصرخ

صرخات متوحشة، وعندما تأكدت أن الأحراش ليست مسكونة (فقد خشيت ملاقاة ثعبان من الثعابين التي اخترعتها) تقدمت بضجة شديدة.

وصلت بعدها للمكان الخطر.كانت شبكة عنكبوت ضخمة ، في حجم الطبق الطائر، تُسيِّج الممر.

وكان صاحبها في منتصفها قابعاً متزيناً بالجزء الكثيف من نسيجه القطيفي المزيِّن بخطوط صفراء. وكان هو الآخر ضخماً في حجم الجوزة.

وتوقفت، وأشرت لباقة الأزهار بأن تقترب، ثم لمست بطرف عصاي هذا العنكبوت لمسة خفيفة. وراح العنكبوت يهز بغضب نسيجه الذي تجوّف إلى الوراء ثم تكور للأمام، بشكل حاد، كما لو كان صاحبه يستعد لمهاجمتي والانطلاق نحوي، ولكني كنت أعرف أنها تمثيلية، وأنه لن يفعل شيئاً، فكنت هادئ الأعصاب. وأثناء ذلك، راحت باقة الزهر تتراجع خطوة فخطوة، وهي تصرخ صرخات صغيرة مرتعبة.

وبعد دقيقة من هذه اللعبة البطولية، رفعت عصاي، للضربة القاضية الأخيرة، وبضربة واحدة، مزقت النسيج الحريري الهش نصفين، فسقط العنكبوت على العشب؛ فسحقته تحت نعلي، وواصلت السير، بغير أن أتنازل وألتفت ورائي.

وعبرت الفتاة وهي تهرول على مكان هذا الانتصار، بينما كنت أسير وأنا أضرب بعصاي الأحراش يمنة ويسرة، كأني قائد فرقة موسيقية.

ـ هذا هو طريقك، هناك، عند منعطفه، سترين البراري.

ـ إني خائفة جداً، قالت، من أن أتوه مرة أخرى، وأنا أسمح لك باصطحابي..

ولم يكن هذا ممكناً، لأن أمي أولاً كانت تنتظر السَّعْتَر، كما أنه في أسفل

الرأس الحمراء بأعالي التلال، ربما التهمت الثعالب، والفئران والنمل الصّيد الذي لا يحصى لفخاخنا، أو ربما راح الخائن الأعور الذي يجيء من الألاوش، يجمع صيدنا ويسرقه.

«لو أن هذا كان في يوم آخر، ربما كنت أصطحبك، أما اليوم، فلا أستطيع.

ـ «حسناً..». ثم وبنبرة مغتاظة:

«على العموم أشكرك». وألقت بأزهارها على العشب، وجلست على حافة الطريق عاقدة يديها على ركبتيها.

كانت شديدة الجمال حقاً. وكانت حدقتاها السوداوان اللتان تختلجان بسرعة من لحظة لأخرى، كما لو أنها كانت تمثل، تعلوهما رموش طويلة تنثني بلطف باتجاه جبهتها.

واقتربت:

«هل ستظلين هنا؟»

ـ بالطبع، قالت: سأنتظر ربما يمر أحد.

ـ هنا، لا أحد يمر.

ـ «حسناً، فعندما ستجد أمي أنني لم أعد بعد، فسوف تُعْلم الفلاحين، ويأتون للبحث عني، ولكن وبما أنك مستعجل هكذا، اذهب أنت».

وخطرت لي للحظة فكرة أن أحدثها عن فخاخي، وعن مسؤوليتي تجاه ليلي. لكن مسألة الفخاخ هذه مسألة سرية. ولا تقال.

«افهمي، قلت لها، إن أمي بانتظاري! وإذا تأخرت كثيراً، فسوف تعنفني.»

ـ «لو أنك شرحت لها، أنك أنقذت فتاة شابة تائهة، فلن يكون لها الحق

في فعل هذا معك. فنحن لا تأتينا الفرصة كل يوم لننقذ إنساناً!»

وكذبْت كذبة دنسة: «إن ما لا تعرفينه، هو أنها قاسية جداً».

وصاحت بضحكة هازئة:

«إذن فلا أنصحك بأن تقول لها إنك تخليت عن فتاة شابة وسط الثعابين والعناكب.»

وفكرت مرة ثانية. كان ظل الصنوبر يتجمع عند قدميها، وفوق كل حجر أبيض، كان عمود من الهواء يتراقص، كما لو أنه دخان شفاف. كانت الساعة بالقطع قد تجاوزت الحادية عشرة. وبالنسبة للسعتر، لن أتأخر كثيراً، كذلك فإن حكاية هذا اللقاء، المرتبة بشكل لائق، تعطيني مبرراً أحكيه.

وماذا لو ذهبت إلى الفخاخ بعد الغداء؟ إنني لست بحاجة لأن أقول لليلي الساعة التي ذهبت فيها للمرور عليها بالضبط.

وبينما رحت أهرش رأسي، ابتسمت لي هي ابتسامة حزينة، ثم تنهدت تنهيدة صغيرة، كما لو أنها ستبكي.. «تعالي، قلت، هيا بنا».

ونهضت وجمعت أزهارها في صمت.

ومضيت على الطريق. وأفضى الممر إلى طريق للبغال. كانت تسير إلى جواري، فأمسكت بالعنقود الثاني، الذي كنت أربطه في حمالة السعتر، ومددته إليها بارتباك: «هل تحبين العنب؟»

ـ «أحبُّه جداً، قالت، ولكني (وهزت رأسها في حالة من الجدية) أنا مؤدَّبة جداً فلا آكل عنباً مسروقاً».

وعادت ثانية للتصنع.

«حسناً، قلت بوقاحة: أنا أجد الأشياء المسروقة ألذ من غيرها!

ـ هو! هو! أعتقد أنك مخطئ، لأن هذا قد ينتهي بك إلى السجن. وسوف تفقد اعتدادك عندما يضعونك في زنزانة، وستجلب العار لعائلتك. فمثل هذه الحكايات ينشرونها بالجرائد. وأستطيع أن أؤكد لك هذا، لأن أبي يعمل بجريدة اسمها المرسيلي الصغير.

ـ هذه الجريدة، يقرؤها عمي كل يوم، بسبب السياسة.

ـ أوه! قالت ـ ببعض الاحتقار ـ السياسة، إن أبي لا يعمل بها! إنه أعلى شأنا من ذلك!

ـ أهو المدير؟

ـ أوه! أعلى من ذلك! فهو الذي يصحح المقالات لكل الآخرين! أجل! والأكثر من ذلك، فهو يكتب شعراً يطبع بمجلات باريس.

ـ الشّعر ذي القوافي؟

ـ نعم، يا سيد، بالضبط. فقد كتب آلاف القوافي.

كنت قد درست شعراً بالمدرسة، وكثيراً ما كانت تدهشني القافية، التي تأتي ارتجالا في نهاية السطر؛ وكنت أفكر في أن الشعراء القادرين على مثل هذا التحكم، نادرون جداً، وأنهم جميعاً مذكورون، بلا استثناء في كتابي المدرسي، لذا سألتها: «ما اسم أبيك؟»

وأجابتني باعتداد:

«لويس دي مونتماجور.»

ـ من ؟

وأعادت الاسم وهي تضغط على الأحرف: «لويس دي مونتماجور!»

ولم يكن هذا الاسم بكتابي المدرسي.

كنت أعرف فيكتور هوجو، ولويس راتيسبون، وفرانسوا كوبيه، وموريس بوشور، ويوجين مانويل، ولافونتين، وكلوفيس هوجيه لكن اسم أبيها ليس في الكتاب.

ولم أجرؤ على أن أقول لها هذا، وحرصت على أن أحترمها لأنني فكرت أنها نبيلة، بما أنه يوجد أمام اسمها كلمة «دي»؛ فربما كانت ابنة كونت، أو ربما ماركيز، ولهذا لم يكن ينبغي رفع الكلفة معها.

«وأنت، ماذا يعمل أبوك؟»

ـ إنه أستاذ.

ـ أستاذ في ماذا؟

ـ في كل شيء. إنه بمدرسة طريق الشارتريين.

ـ أهي مدرسة محلية؟

ـ «بالطبع. إنها أكبر مدارس مرسيليا!»

وانتظرت رد فعلها على هذا. وكان مفجعاً. إذ أنها برطمت برطمة صغيرة جميلة، واتخذت مظهراً متعالياً وقالت:

ـ «إذن، أعرِّفك أنه ليس أستاذاً، إنه معلم مدرسة. وهذا حسن جداً، ولكنه أقل من مرتبة الأستاذ».

وأحسست بانقباض، ووددت لو أنني حكيت لها حكاية الدراج الملكي، لكي أسحق كبرياءها وأعزز كبريائي، وأقدم لها جوزيف بكل أمجاده.

وبلطف، راوغتها لكي أقترب من هدفي: «وهل يذهب أبوك للصيّد؟»

وابتسمت رغماً عني، لأنني كنت على ثقة من ضربتي، وفتحت عينيها على اتساعهما، واتخذت مظهر المروّعة، وصاحت:

«أبي! بالطبع لا! إنه لا يريد أن يقتل طائراً! بلا سبب، بل إنه قال إنّه يود لو يطلق النار على الصيادين بدلاً من الأرانب!»

وسمّرني هذا الكلام في مكاني. يطلق النار على الصيادين! هذا الرجل مجنون بالتأكيد ويجب في التو إعلام جوزيف والعم جول. ولكنها تابعت:

«بالطبع، فهو لم يحاول أبداً أن يصطاد. ولكنه حين يرى في الجريدة أن صياداً قد جرحته بندقيته. يقول هذا حسن».

وكما لو أن الموضوع انتهى، واصلت هي الحديث في موضوع آخر:

«هل مدرستك بالمدينة؟»

ـ نعم، سألتحق بالمدرسة الثانوية في شهر أكتوبر، بالفصل السادس، وسأتعلم اللاتينية.

ـ أنا بالمدرسة الثانوية منذ وقت طويل. وسأنتقل للصف الخامس هذا العام. كم عمرك أنت؟

ـ سأبلغ الحادية عشرة قريباً.

ـ «حسناً، أنا، في الحادية عشرة والنصف، وأسبقك في الدراسة بعام. واللاتينية هي المادة التي أتفوق فيها. كنت الأولى في الترجمة، والثانية في الإنشاء». ونظرت لي برهة، ثم أضافت، بنبرة مرحة:

«فضلاً عن أن هذا، بالنسبة لي، لا أهمية له، لأنني سأتقدم في العام المقبل، لدخول معهد الموسيقى «شعبة البيانو» فأمي أستاذة بيانو، وتعلمني لمدة ساعتين على الأقل في اليوم»

ـ وهل تجيدين العزف؟

ـ جيداً، قالت، بمظهر الراضي عن نفسه، بل إنني بالنسبة لسني أعزف

بطريقة ممتازة. فمع أن أصابعي مازالت بعد صغيرة، أستطيع التحكم بالأوكتاف.

وأمام هذا المصطلح التقني، شعرت من جديد بالنقْص، فغيرت من الموضوع.

- وهل حضرتك هنا في إجازة؟

- نعم، قالت: ولكني طلبت منك أن ترفع الكلفة معي حتى نصل للبراري، وأتساءل لماذا لم تفعل؟

وحاولت أن أتحين الفرصة.

«لأن المناسبة قد انتهت الآن، ثم لأننا لا نرفع الكلفة أبداً مع النبلاء»

ونظرت إليّ نظرة طويلة جانبية. وضحكت ضحكة صغيرة، وقالت:

«كان عليك بالأحرى أن تفعل ذلك لأنني أثرت إعجابك.»

- أنا؟ أوه! أبداً.. أبداً!

- «بل نعم، بل نعم، فلست أنا التي أخجلتك، إنه جمالي، هذا ما يحدث لي مع كل الأولاد، فأنا أخجلهم وقتما أشاء بجمالي!»

ورماني هذا الكلام في الصميم، لأنني أعرف أن الأولاد هم الذين يُخْجِلون الفتيات دائماً.

«عني أنا، لابد من شيء أكبر من ذلك ليخجلني!»

- هل تعتقد ذلك؟

وقطعت الطريق عليّ، وانزرعت أمامي، ونظرت في عيني عن قرب شديد، وهي تحني رأسها قليلاً للوراء. وكان فمها بالكاد مفتوحاً، وفتحتا أنفها ترتعشان.

وشعرت وأنا غاضب بأن وجهي قد احمر خجلاً، وبذلت جهداً لكي أضحك: «ها! صاحت بنبرة المنتصر، لقد خجل! لقد خجل!»

ورفعت ذراعاً نحو السماء، ورقصت بباقة أزهارها، وهي تُشْهِدُ شجرة زيتون عجوز: «إنها تنهداتك التي جعلتني أحمر»، قلت:

ـ هيا بنا، هيا بنا، قالت، لا تخجل. ذات يوم سمعت أبي يقول لأمي: «في سن العشرين، سوف يفتك جمالها بالناس!» نعم، يا عزيزي «سأفتك بهم». فأبي يعلم هذا جيداً، لأنه يعاشر الشاعرات. وهو يُسَمِّيني «الأميرة». ولكن هذا بالطبع ليس اسمي. أنا اسمى إيزابيل. لقد قلته لك، وأنت لن تنساه أبداً ما اسمك أنت؟

ـ «أنا ، إسمي مارسيل».

وتصنعت قليلاً:

«اسم لا بأس به، لكنه أقل جمالاً من إيزابيل. عموماً، ليس هذا خطأك.»
ووقفت أمامي مرة أخرى، وتركت زهورها تسقط على العشب، وقالت بحدة:

«أعطني العنب»!

ـ ألم تعودي بعد خائفة من أكل عنب مسروق؟

ـ «قبل قليل لم أرد، ولكني الآن أريد. أعطني واحدة واحدة!»

وعقدت ذراعيها خلف ظهرها، وفتحت فمها. كانت أسنانها الصغيرة المستوية تماماً تلتمع كأنها من الصدف، بظل أزرق، خفيف، وكانت شفتاها المكتنزتان مرسومتين بدقة، كأنهما قوسان مستويان.. ووضعت نباتاتي على الأرض، وبأطراف أصابعي، وضعت أول حبة عنب في هذا الفم الطفولي الذي مدّت شفتيه نحوي. وقَرّشتها بابتهاج، وغمغمت:

«إنها لذيذة! إنها تلسع كأنها الخل! أعطني ثانية! أعطني ثانية!»

ولعشرات مرات أعطيتها من ذلك الحاذق، وكل مرة بنفس النجاح، ولكنها فتحت فجأة عينين مروعتين، وأطلقت صرخة مرتعبة.

«أوه! انظر ليديك! هل تجرأت على أن تطعمني العنب بهذه الأيدي القذرة؟ إنها تشبه أيدي شحاذ! لربما أصبت الآن بمرض شنيع!»

ـ لا ، قلت (وأنا خجل من نفسي، لأن يديَّ كانتا حقاً سوداء)، إنها نظيفة، إنه طين الأرض.. وذلك لأنني قلعت نباتات السعتر!

ـ ومع ذلك فقد تجرأت وقربت يدا بهذا الشكل من فم فتاة شابة، أنا لن أشكرك على هذا وأدارت ظهرها لي وابتعدت سريعاً، وهي تضع قدما أمام الأخرى، كما لو أنها تسير على خيط من السلك المشدود.. ولملمت نباتاتي، وهممت بتركها، وعلى بعد عشرة أمتار توقفت هي، ودارت على عقبيها، ثم صاحت بنبرة خشنة: «هل ستأتي؟ المفروض أن أقدمك لأمي! فبما أنك أردت اصطحابي، هذا أمر ضروري!»

وأسرعت إليها.

كان الكفر الصغير بالبراري يظهر خلف منحنى الممر. وسألتها:

«أي منزل تقطنين؟»

ونظرت لي برقق: «إنه أكبر المنازل، بالطبع!»

وتوقفت خلف المبنى، الذي كان طويلاً وواطئاً كمباني الريف، بغير فتحة بالخلف. ولفت هي حول الزاوية الأولى للحائط وأنا خلفها، ولكنها قبل أن تصل للزاوية الثانية، أوقفتني بإشارة من يدها! «انتظر هنا.. سأناديك».

واختفت.

وسمعت صوت امرأة، به خشونة ورنّة، قال:

«آه، وصلت حضرتك أخيراً، يا بابيت؟ لقد بدأت أتساءل ما إذا كان الثعلب لم يأكلك!»

وفكرت: «لابد أنها خادمة، لأنها قالت لها حضرتك». لكن الصوت الشاب أجاب:

«يا أمي العزيزة، لم يكن هناك شيء من هذا!»

كانت هذه إذن أمها التي قالت لها «حضرتك»! هكذا النبلاء دائماً!

وواصلت: تصوري وأنا أتنقل من زهرة لأخرى، ضللت الطريق! وعندما انتبهت لذلك، وجدتني في واد ممتلئ بالأحراش الشوكية جرحت سمانتي قدمي. ورأيت بعد ذلك العناكب الكبيرة بحجم كفي. وكانت سوداء ذات خطوط صفراء، وكان أحدها يمسّد شواربه بأرجله!

«لقد رأيت ضابطاً من سلاح الفرسان يفعل هذا! قالت الأم»

ـ لا تسخري يا أماه! كانت هذه العجماوات فظيعة، وكدت أتجمد من الخوف! والأدهى أنه كانت تحيط بي الثعابين!

ـ هل رأيتها؟

ـ لا، ولكني سمعت فحيحاً تحت الأحراش. فضلاً عن أنه يبدو أن هذا الوادي يعجُّ بالثعابين. وهذا أمر معروف!

ـ من قال لك هذا ؟

ـ غلام، وهو الذي أنقذني، واصطحبني حتى هنا. هل تسمحين بأن أقدمه لك؟

ـ «بكل سرور!»

وأتت مسرعة، وأمسكت بيدي، واقتادتني عبر الشرفة التي كنت أعرفها بالفعل، لأنني كنت قد مررت بها قبلاً مع ليلي، عندما كان المنزل خاوياً من السكان.

كانت الشرفة أمام الحائط الطويل، وهي عبارة عن فناء ظليل، بأعلى ضلع غاطس، يرى الإنسان من خلاله المنظر الطبيعي العريض للتلال الأكثر انخفاضاً، التي تمتد فيها الحقول بين غابات الصنوبر وبين طريق ريفي، تحيط به الزياتين وهو الطريق الذي يهبط حتى القرية التي لا يرى منها سوى القباب بأعلى بعض الأسقف.

واقتادتني إيزابيل نحو امرأة جميلة بيضاء كانت تجلس على شبكة معلّقة وبيدها كتاب. وكنت قد رأيت هذه الشباك المعلقة في رسوم كتب جول فيرن؛ وكانت مصنوعة من القماش الخشن. وكانت تتدلى بالخطاطيف الحديدية، على سطح سفينة، وفهمت أن مخترع هذه الأسِرَّة، التي تتأرجح متموجة، كان هدفه هدهدة أطفال البحارة الصغار، لكي يجعلهم يحلمون بأمهم.

كان السرير المعلق الذي أمامي جديراً بأميرال. فقد كان عبارة عن شبكة واسعة من الحرير الأسمر، مربوطة إلى عمودين من خشب الأثاث، ومزود بحشيات حمراء لامعة. وكان مفروداً بين شجرتين من أشجار الأكاسيا، تحت الظل الأزرق الضعيف للأوراق التي يحركها النسيم.

في هذا السرير الخلوي، كانت السيدة ترتدي قميصاً أزرق موشى بخيوط ذهبية، وقد أدلت بلطف ساقاً عارية، كان يتعلق بالكاد، بأطراف أصابعها خف من الجلد الأحمر مزخرف بنقوش ذهبية.

وتقدمنا على الشرفة، وقالت إيزابيل بطريقة تكريمية لي:

«هذا هو منقذي. إن يديه قذرتان ولكنه شجاع جداً. وليس معه سوى

عصا، ومع ذلك فقد دخل في الدغل، وقد تصيَّد على الأقل عشرة ثعابين!»

ـ «أيها الشاب، قالت السيدة: اقترب. أنا أهنئك على شجاعتك، وتهذيبك».

وانحنيت، ببعض الفخر، لكنها أضافت فجأة:

ـ «حقاً إن يديه قذرتان، بل قذرتان للغاية! ومع ذلك، يا بابيت، كان يجب ألا تقولي هذا».

وخجلت من جديد. وخبأت يدي خلف ظهري، ثم ابتسمت وأنا مغموم وكررت اعتذاري:

«هذا لأني ذهبت أبحث عن السعتر لأمي... ولذا عندما قلعت النباتات...

ـ حسناً، قالت السيدة ـ التي نزلت بخفة إلى الأرض ـ ها هو ولد ظريف، فهو يذهب لجمع السعتر لأمه، ويتطوع لإنقاذ آنسة تاهت! يا بابيت، اذهبي وأحضري شراب الرمان. أحضري ثلاثة كؤوس كبيرة، وماء، ومصاصات. وسوف تجدين كل هذا في «الليفيجروب» على الأرفف!».

ولم أكن قد سمعت أبداً هذه الكلمة الغريبة، ولكني افترضت أنه دولاب المطبخ، أو أنه ربما كان بوفيهاً، من النوع المزخرف كأخفافها.

«تعال ساعدني، قالت إيزابيل، لأن هذه الأشياء ثقيلة!»

وتبعتها.

خلف ستارة الخرز الريفية، التي كفت عن منع الناموس، كان ممر ضيق معتم، به باب صغير، إلى اليمين، يفضي إلى صالة كبيرة. دخلنا بها، وأخذت بلبي.

رأيت أولاً بيانو، أسود، يلتمع، بالقرب من النافذة، وبالقرب من المدفأة،

مقعد رائع، كان مسنده على هيئة كوة عالية. كأنه مرصد من نوع فخم. كان هيكله مذهباً، وموشّى بنسيج أحمر. وكان يستند إلى الحائط الأيسر دولاب مدهون، حديد بالقطع، ينبعج كل درج فيه للخارج بطريقة أنيقة، وبكل درج مقبضان كبيران مذهبان.

بأعلى هذه القطعة الأثرية، مرآة مثبتة في إطار ضخم منقوش كله بالنحت المضفور.

بداخل موقد المدفأة العالية، كانت هناك شبكة حديدية يستند إليها الحطب، مذهّبة هي الأخرى، وعلى برقع المدخنة ساعة من العاج الشفاف، كان حجمها أكبر من حجم أختي الصغيرة، مرصعة كلها بالذهب. وبينما كنت مسحوراً بهذه الفخامة، لاحظت أنني كنت أسير على سجادة كثيفة جداً، سمكها يساوي عشر مرات سمك سجادة سريري، كانت تفرش كل المكان وتغطي حتى ما تحت قطع الأثاث.

وفتحت إيزابيل بوفيهاً كبيراً جداً، لم أكن قد لاحظته بعد، لأنه كان خلفي، كانت أبوابه زجاجية مؤطرة بأطر الخشب المنحوت، ورأيت من خلال زجاجها صفوف الأكواب والكؤوس، تتقدمها الأباريق الخضراء والزرقاء، وأباريق القهوة الفضية، والزجاجات التي ليس لها شكل الزجاجات العادية.

وفهمت أن قطعة الأثاث هذه كانت هي «الليفجروب».

وأخرجت منها صينية كبيرة سوداء لامعة، عليها زخارف ذهبية صينية مطبوعة بالنقش البارز، ووضعت في يدي ثلاثة كؤوس، وزجاجة شراب بشبكة مفضضة (سدادتها من الزجاج مفصلة على هيئة ماسة) وقارورة معقوفة زرقاء من النوع الذي نراه في شرفات المقاهي.

وذهبنا لنجلس أمام منضدة مدهونة بالأخضر، تحت شجرة الأكاسيا، ورحت

أحك يدي بشدة في بنطلوني، لكي أنظفهما. وشربنا، بواسطة المصاصات، كؤوساً مترعة بعصير الرمان. وكان مذاق العصير لاذعاً كشراب الليمون. ولم يدهشني ذلك فقد كانت مابجيابان قد حكت لي عنه.

جلست إيزابيل إلى جواري، رافعة ذقنها، ومغمضة عينيها نصف إغماضة، وهي تضم يديها بين ركبتيها، كما لو أنها تحلم، أثناء ما كانت أمها تطرح عليّ الأسئلة: كانت تريد أن تعرف أين نعيش؟

«بالحصن الجديد»، قلت لها.

ولاحظت بدهشة أنّها تجهل بوجوده وأنه يجب أن أحدد لها موضعه.

ولم يكن مع ذلك يبعد سوى مائتي متر من الكفر؛ لكن الزياتين وأشجار التين التي تحيطه كانت تحجبه بالفعل عن رؤية العابرين الذين لا يتخذون طريق التلال.

«هل لديك أخت؟»

ـ نعم، قلت، لكنها صغيرة جداً، في الثالثة والنصف من عمرها.

ـ يا للخسارة، كان من الممكن أن تجيء للعب مع إيزابيل، وربما لتحميها من التوهان!

ـ«أنا لن أتوه ثانية! صاحت إيزابيل، ثم إنه، إذا حدث ذلك معي ثانية، فما عليك إلا أن تعلميه وسيعثر هو عليّ في التو!»

وبدا على السيدة التردد، ثم قالت: «سأدعوه إذن للمجيء للعب معك هنا، إذا تأكدت أنه لن يتلفظ بكلمات بذيئة».

ـ يا أمي، إنه لم يقل كلمة واحدة بذيئة! إن يديه قذرتان، نعم، ولكنه لا يقول كلمات بذيئة.

ـ هل هذا أكيد؟ قالت السيدة وهي تنظر لي:

وبدا عليّ الامتعاض، وأنا أخفي يدي تحت المنضدة، ثم قلت:

«عن الكلمات البذيئة، أنا أعرف بعضها، ولكني لا أتفوه بها أبداً!

ـ أبداً؟ قالت المرأة بتشكك.

وتساهلت أنا:

«ربما قلت شيئاً من هذا في المدرسة؟ أو حينما يطبق أحد الفخاخ على يدي.

ـ أحد الفخاخ! صاحت السيدة هل تنصب الفخاخ؟

ولم يكن هناك ما يقال، أمام صيّادي الصيادين! ولكني تراجعت على الفور عن هذا الكلام المتهور، محدداً: «للفئران! فخاخ الفئران، لأن لدينا فئران في البيت!»

ولكني فهمت في التو أن هذا البيت الذي يعج بالفئران سوف يقلل من شأن العائلة، فأضفت على عجل: «إنها بالكهف، فأحياناً تأتي فئران للكهف!»

ثم قللت من شأنها وعددها:

«إنها ليست سوى زوج من الفئران، لهذا فعندما يعض يدي فخ..»

وبدا عليها الارتياح.

«ليس بالشيء الخطير جداً، علقت إيزابيل، أن يقول شخص كلمة بذيئة وهو وحده في كهف..». وأضافت كعذر إضافي:

«ففي الكهف، لا يوجد أحد، ثم إن الكهف يكون مظلماً!»

ـ حسنا، على العموم سنجرب. إنك تبدو ولداً لطيفاً، ولابد أنه تمر عليك

بعض الأيام تكون يداك فيها نظيفتين أليس كذلك؟

ـ أوه ! نعم ! في غالب الأحيان!

ـ حسناً، في الأيام التي تكون يداك فيها نظيفتين! أسمح لك بالمجيء واللعب مع إيزابيل.

وفكرت أنه في هذه العائلة يتحدثون كثيراً عن السماح، مع أنه لا توجد حاجة لطلب ذلك منهم. وسمعت الساعة تدق من بعيد فنهضت لفوري.

«أرجو عذرك، يا سيدتي، أعتقد أنها الثانية عشرة، وأمي في انتظاري»

ـ «لا تتأخر إذن، وأشكرك ثانية على مساعدتك الشجاعة! يا بابيت، اصطحبي صديقك إلى أول الطريق! إلى اللقاء!»

وعندما وصلنا إلى ما وراء الحاجز، قالت لي:

«هل ستأتي بعد ظهر اليوم؟»

ـ لو تمكنت، لأن عندي عملاً بالبيت. ولكن عندما أفرغ، سآتي.

ـ «سأدعوك لتناول وجبة صغيرة. قالت: لدي مربى المشمش، وبسكويت لسان القط، ثم سأريك لعبي. لديّ كمية كبيرة من اللعب، وسأسمح لك الآن بتقبيل يدي».

ومدت لي ظاهر يدها الأسمر، الذي كانت به تجاويف صغيرة حمراء عند بداية كل أصبع. وتناولت يدها ورفعتها إلى شفتي.

«كنت متأكدة، صاحت إنهم لا يفعلون هكذا بالمرة!»

ـ فكيف يفعلون إذن؟

ـ «لا يجب أن ترفع يدي لفمك، لأنه عليك أنت أن تنحني لتقبّلها، كما




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ إنها في غاية الجمال. فقط هي تتكلم وفمها مقطب قليلاً. وبأساليب عديدة. كما أن لها ربلتا ساق مستديرتان.

ـ هل لاحظت هذا؟ سأل أبي.

ـ هذا ظاهر جداً لأن وجهها دقيق. وعينيها واسعتان.

ـ إذن هي تعجبك؟ قالت الخالة روز:

ـ إلى حد ما. إنها تقول لأمها «حضرتك».

ـ إذن هذه ليست أمها! قال بول، المتحجر:

ـ «بل هي أمها، بما أنها تقول لها «ماما». أنت لم تكن هناك، وأنا الذي كنت هناك، كما أن أمها تقول لها «حضرتك» هي الأخرى!»

وعند هذا القول، اجتاحت بول نوبة ضحك من ثلاث دفعات من القهقهات كادت تخنقه كما لو كان فمه محشواً بسردين بالصلصة، وخيِّل لي أنه سيهلك أمام أعيننا؛ لكنهم راحوا يربتون على ظهره بما مكنه من أن يستعيد تنفسه.

«أراهن، قال العم جول، أن هذه الفتاة سمراء جداً.»

ـ أجل! كأنها شحرور، وأمها شقراء جداً، وكانت تجلس في سرير مجدول معلق مرتدية خفاً أحمر يتدلى من ساقها!

ـ وهل رأيت كل هذا؟ سأل أبي.

ـ إذن أنا أعرفهم، قال العم: لقد رأيتهم في قداس كنيسة القرية، مع زوجها الذي صادفته عدة مرات بالترام.. وقال لي القس إنه يعمل بجريدة المرسيلي الصغير.

ـ بالضبط، قلت: بل إن درجته أعلى من درجة المدير، فهو الذي يصحح

أخطاء كل الآخرين.

ـ هذا يعني، عاود العم الحديث متوجهاً لأبي، أنه مصحح الجريدة.

«يبدو هذا، قال جوزيف: أي أنه يصحح أخطاء الطابعين، وليس المحررين».

وبدا لي أن موضوع الإعلاء من شأن عائلة صديقتي الجديدة، أمرٌ صعبٌ، ولكنه يستحق العناء، فأضفت: «إنه بالإضافة لهذا يكتب الشعر الرائع، وكل الناس تعرفه في باريس!»

ـ «إن باريس بعيدة، قال العم، وهنا لم نسمع عنه بعد!»

ورددت: «على كل حال، فهو من أصل نبيل. وهو يدعى لويس مونماچور.

ـ اللعنة! صاح العم. هل الصغيرة هي التي قالت لك هذا؟

ـ «بالطبع. لويس مونماچور. ولهذا يقولون لبعضهم البعض في العائلة «حضرتك» لأنهم نبلاء!»

وابتسم العم، وقال: «إن هذا بالطبع اسم عسكري!»

وفهمت أن هذا الاسم اسم اشتهرت به العائلة بسبب الصنيع العسكري لأحد أجدادها، وأجبت: «هذا أمر لن يدهشني!»

وتابع العم: «إن هؤلاء الشعراء ليسوا متواضعين أبداً، لكن هذا في النهاية لا يؤذي أحداً!.

ـ بعد كل شيء، قال أبي (الذي كان يخشى دائماً الانتقاص من قدر غير المعروفين)، لا يجب أن نطلق أحكاماً عشوائية. فقد يكون ربما شاعراً عظيماً!

ـ ليس هذا مستحيلاً، قال العم، فقد أخطأ مرتين ركوب الترام.

ـ أنا، قالت أمي، لا أستطيع الثقة في شخص كهذا.. والشعراء بالنسبة لي،





ـ «فيما بعد، فلابد من تركه أولاً ليسمن!»

ولكنني لم أواصل سماع مزاحهم، والتهمت قطعة اللحم وأنا أفكر في إيزابيل المدهشة التي أعطتني يدها لأقبلها، والتي هي في انتظاري.

عقب الغداء، راح الجميع لراحة القيلولة، بالكراسي الطويلة أو في غرفهم، ماعدا بول الذي كان قد سطا على المقص المشرشر، لكي يقص فراء الغرير، فقد كان يريد أن يصنع منه شعراً مستعاراً للنساء، وذقوناً للرجال.

ورأيت حينئذ أنه قد حان الوقت للذهاب والمرور على فخاخنا. وأنني أستطيع أن أفعل ذلك ـ هرولة ـ في أقل من ساعة ونصف ـ فلن يصل ليلي إلى الحصن الجديد إلا حوالي الساعة الخامسة. لذا يمكنني إذا رغبت أن أذهب بعد ذلك للعب مع إيزابيل من الثالثة إلى الخامسة.

كان بالطبع أمراً هزلياً أن أذهب وأقضي ساعتين مع فتاة. فماذا سألعب معها هل سألعب بالعرائس، أو أنط الحبل؟ ولكن بما أنها دعتني، فلن أستطيع رفض الدعوة بدون أن يكون ذلك فظاظة مني. فالتهذب أهم شيء، خاصة مع النبلاء.

وذهبت إلى المطبخ، ونقعت يدي الاثنتين بالماء لمدة عشر دقائق على الأقل، ثم غسلتها بالصابون ثلاث مرات بعد ذلك، حتى تغيّرتا تماماً، فصارت أنامل أصابعي لينة ومجعدة، كأصابع النسوة اللاتي تعملن بالغسيل. ثم بأعواد كبريت مدببة، تمكنت من استخراج الأهلة الداكنة الساكنة تحت أظافري. وأخيراً اكتشفت على أحد الرفوف، في علبة من الخزف دهاناً أخضر له رائحة نفاذة تشبه الفازلين المعطر بالنعناع، كان من أجل علاج وجع الرأس، ولكني استعملته كدهان مثبت للشعر. فدهنت شعري، الذي كنت قد تركته لزمن طويل نافشاً. على أمل أن يصير سنبلة، تنتصب بعناد على قمة جمجمتي، على النحو الذي نراه عند بعض أنواع الببغاء. ولم ينجح سعيي إلا نصف نجاح،

فكبست على رأسي كاسكيتتي الجميلة القماشية الزرقاء، حتى الأذنين، لكي أخضع شعري المتنفش بعناد. وأخيراً، ذهبت إلى غرفتي واخترت قميصاً جديداً من نسيج خام، وخرجت متأنقاً للغاية.

وبهت بول لهذه النظافة، وسألني: «إلى أين تذهب؟»

وأجبته بكل جدية: «لأمُرَّ على فخاخي».

وتوجهت صوب «غابات الصنوبر» ولكن عند وصولي إلى مشارف العين الصغرى، التي كانت بالضبط أعلى «ريدونو»، توقفت لألتقط أنفاسي وشاهدت، عندما التفتُّ، أعالي أشجار الأكاسيا التي كانت تهتز كما لو أنها تشير لي، في الريح، من وراء سقف بيت إيزابيل.

وانتابني في التو شعور بالذنب شديد التعقيد، وهو الشعور الذي يبدو لي اليوم مشكوكاً فيه جداً.

«أنا لم أذهب هذا الصباح للفخاخ لأنني كنت مضطراً لإنقاذ فتاة. وهذا ليس خطئي. ولكن ما معنى ذهابي للفخاخ، ونحن سنعود لها بعد قليل. أما إذا ما كانت الحيوانات قد أكلت الطيور، فماذا بمقدوري أن أفعل؟ وإذا كان الأعور قد مر، فمعنى ذلك أن الفخاخ لن تكون هناك. إذن لماذا أذهب؟ هل لكي أجعل ليلي يصدق أنني ذهبت في الصباح؟ حسناً، أنا أرى أن هذا نفاق. وليس أمامي إلا أن أقول له الحقيقة، وأن نقوم بالجولة معاً في الخامسة وأنا لم أكذب عليه أبداً، ولا أريد أن أبدأ بالكذب اليوم».

ومطمئناً لهذه الحجج على نزاهتي، يممت وجهي في هرولتي شطر البراري. وعند عبوري لحقل خضرة مهمل، صعدت على شجرة لوز عجوز، وملأت جيوبي باللوزات التي يدعوها البعض «الأميرات» لأن قشرتها رقيقة جداً، ويمكن كسرها بين الإبهام والسبابة ثم، وبخطى المتنزه، وأنا أتوقف من وقت





وتسللت نغمة رقيقة في خلفية هذا الرعد، ثم انطلقت في التو نحو الفضاء، وظلت تثب حتى أعلى السلم الموسيقي، وهي ترتجف في الظلام بالالتماعات الشفافة للموسيقى.

وأصابني في البداية الذهول، ثم الارتباك، ثم الافتتان. كان رأسي يهتز وقلبي يدق، ورحت أطير بأذرع مفتوحة، فوق المياه الخضراء لبحيرة غامضة، وسقطت في فجوات من الصمت، صعدت منها فجأة ثانية على أنفاس التناغم العريض الذي حملني باتجاه السحب الحمراء للمغيب.

لست أدرى كم من الوقت استمر هذا السحر. ولكن في النهاية، طارت أربعة أنغام متوافقة على حافة جرف بحري، الواحدة في أعقاب الأخرى، وهي تفتح ببطء أجنحتها، واختفت في سحابة ذهبية، وظلت أصداء الأبنوس بعدها حية تظن. ولمستنى إيزابيل بطرف قدمها، فأفقت مرتجفاً.

«ما رأيك! قالت: هل أعجبتك الموسيقى؟»

ولم أعرف كيف أجيب، فقد ابتسمت وأنا مقطب، وتأملت اليدين الصغيرتين اللتين خلقتا تلك الموسيقى وداخلني شعور بأنها جنيّة، معها مفاتيح عالم آخر.

ولم أجرؤ على النظر في عينيها.

ونهضت هي فجأة، وصارت من جديد فتاة صغيرة، وقالت وهي تضحك:

«أفق، وتعال ! سنلعب الحجلة!».

ولم أغضب من هذا الاقتراح، فقد أعادني إلى مجال اختصاصي وكنت بالمدرسة قد أقلعت عن لعب الحجلة، لوجود منافسين أقدر مني، ولكني وإعجاباً مني بالموسيقى قررت أن أتركها تكسب الجولة الأولى.

واندهشت دهشة كبيرة عندما لاحظت أني أقفز على باطن قدمي كذب وأنا أدفع البلاطة بطرف نعلي، بمشقة وعدم تركيز. وعندما جاء دورها، راحت ترقص كطائر من طيور الفتاح. تتبعها البلاطة المسحورة، وتنزلق أمامها حتى منتصف كل خانة جديدة.

وخسرت أربعة أدوار، واكفهر وجهي من الغم، ومع ذلك، لم تسخر هي مني، فبعد الدورة الأخيرة، التي دارت فيها تنورتها وارتفعت حتى رأيت ساقيها الجميلتين، صاحت:

«لقد تعبت الآن. هيا نلعب شيئاً آخر، لا لهاث فيه!.»

«هل تعرف بائعة الكبريت الصغيرة؟»

وتحيرت قليلاً.. وأجبت: «أهي التي تعمل لدى تاجر الدخان؟»

وانفجرت بالضحك، ثم وضعت يدها على فمها، قائلة: «أوه» ممطوطة، وهي تنظر لي بدهشة واستنكار.

وأصابني الغيظ، وسألت: «ما الأمر؟»

ـ كل ما في الأمر أنها أجمل قصة في العالم، ولكنها لم تحدث في الحياة، إنها حكاية وأنت محظوظ لأنك لا تعرفها، لأني سأقرأها لك في التو!»

وجَرَتْ باتجاه المنزل.

ولم يكن ضميري مستريحاً، فماذا سيقول ليلي، إذا رآني هنا، غارقاً في الموسيقى ومهزوماً في الحجلة من فتاة؟ ونهضت عازماً على المضيِّ، لكنني بقيت في مكاني، لأنها عادت وبيدها كتاب.

«اجلس في السرير الهزاز، قالت، ولا تتحرك».

ولم تكن أتيحت لي من قبل فرصة أن أجلس في هذه الأرجوحة الضخمة،


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



وسط أعواد الثقاب المحترقة!».

عندئذ، خيِّل لي أنها هي الفتاة الصغيرة الميتة، ورأيتها شاحبة في الثلج، فقفزت من السرير الهزاز راكضاً لإنقاذها.

ودفعتني برفق، وهي تقول بصوت مختنق: «انتظر!»

وقرأت الأسطر الأخيرة: «ولم يعرف أحد بالأشياء الجميلة التي رأتها، ولا أي عالم جليل دخلته هي وجدّتها العجوز في العام الجديد السعيد».

ولم يشعرني هذا الجلال بالعزاء. فقد ماتت من البرد، وهذا كل ما في الأمر أما ما تبقى فهو غش، وعندما رأيت إيزابيل تحلق في الهواء، يحملها طيف صاعد لسيدة عجوز بيضاء الشعر، سالت دموع غزيرة على وجناتي، وضممتها لصدري كي أحتفظ بها في الأرض.

وراحت تضحك، وهي غارقة في دموعها.

«أيها الطائش» إنها ليست سوى حكاية. وكل هذا، ليس حقيقياً. إن عليك أن تخجل من نفسك لأنك تبكي هكذا!

ـ ولكنك أيضاً تبكين.. ألا تبكين؟

ـ أنا فتاة. ثم، إنه يعجبني أن أبكي عندما تكون الأمور مضحكة، أما بالنسبة لولد مثلك...».

وقطعت حديثها فجأة، وقالت: «هذا هو أبي!»

وأخرجت من جيبها منديلاً مربعاً صغيراً من الدانتيلا، وجففت عينيها، بينما رحت أنا أتمخط في منديلي الكاروهات.

وصعد أبواها من جانب الحافة إلى الفناء الذي كنا فيه، وتطلعت بفضول خاصة إلى الشاعر النبيل، وصائد الصيادين الخطر.

لم يكن ضخماً، وكان عجوزاً، على الأقل في الأربعين من عمره، كالعم جول. وكان يضع قبعة واسعة من الفلين الأسود، وسترة سوداء، ورباط عنق أسود مزيناً بدبوس. وكان يستند لذراع زوجته، ويمسك باليد الأخرى عصا ضخمة من الأبنوس، تساعده على المسير بطريقة خاصة.

كان نعلاه قد ابيضا من التراب وبدا عليه التعب. وعندما اقترب مني أكثر، لاحظت أنه يشبه ابنته. ولكنه كان أقل جمالاً منها بكثير، لأن خديه كانا محفورين مبرقشين بألف نقطة زرقاء على ذقنه، خصوصاً تحت أنفه.

وتقدمت إيزابيل نحوهما، وتوقفت على بعد أربع خطوات، وانحنت بتحية الاحترام، ورفع الشاعر، بدوره، قبعته لتحيتها تحية لطيفة.

عندئذ، اقتربت إيزابيل فقبل أبوها جبهتها. ثم استدار ناحيتي، وقال في نبرة غنائية:

ها هو الفارس الذي طارد الثعبان

وشطر العنكبوت في جحره

ونظرت إليّ إيزابيل بافتخار، ورحت أفتح عيني مبهوتاً، فقد كان بالطبع، شاعراً حقيقياً. وبغير أن يقضي وقتاً في التفكير، أضاف:

انفخوا الأبواق يا حراس قلعتي

على شرف البطل المنقذ لطفلتي

وبدا على إيزابيل الزهو، وابتسمت أمها، ولفّني الإعجاب:

«إنها الحقيقة، قالت إيزابيل، فهو شجاع للغاية، لكنه مع ذلك، بكى عندما قرأت له حكاية «بائعة الكبريت الصغيرة»!

ـ «حقاً؟» سأل الشاعر وهو ينظر لي.

وأحنيت رأسي، وأنا في غاية الارتباك، وراحت إيزابيل الخبيثة، تشدد.

«نعم، لقد بكى، وهو الآن يحمر خجلاً!»

ـ «إني مفتون. قال الشاعر بوقار، وأنا أهنئه! إنك تخطئين عندما تضحكين يا إيزابيل. فإذا قدر لك يوماً أن تتخذي زوجاً، رجلاً لا ينفعل أي انفعال عند قراءة هذا العمل البديع، فسوف أرفض بالقطع الموافقة على هذا الزواج»!

وبدا لي هذا الرفض المسبق لخصم محتمل شيئاً لطيفاً، فقد استنتجت منه أنه وجدني أهلاً لأن أكون صهره، وعلى الرغم من أن مشروعاتي الزواجية لم تكن بعد قد تحددت، فقد كان هذا خطوة كبيرة باتجاهها.

لذا نظرت إلى إيزابيل بسعادة المرشح المرضي عنه، عندما ترك عصاه لزوجته، ووضع يدا على كتفي، والأخرى على كتف ابنته، كما لو أنه يدفعنا بين ذراعيه الواحد باتجاه الآخر. ولكنه لم يفعل ذلك، وقال باحتفالية:

يا أطفالي، لابد للشاعر بدون تأخير.

من الأبسنت الأخضر الصافي مجهزاً في العصير..

ولم أفهم جيداً ما أراد قوله، ولكن سحر القوافي كان كافياً، وراحت يده التي تستند بكل ثقلها عليّ تدفعني للأمام.

ولاحظت أثناء ذلك أن الطريق الطويل قد أنهكه، بما أنه حتى بمساعدة كتفينا نحن الاثنين كانت خطواته مضطربة بعض الشيء، وجعلتني الحركة المترنحة أحياناً لقدميه أفكر في عيني كليمنتين المراوحتين.

ودفعنا هكذا حتى الطاولة الخضراء، وترك كتفينا، وجلس على مقعد من خشب الصفصاف. وركضت إيزابيل نحو البيت، ثم اختفت.

وابتسم الشاعر لزوجته، وقال بغير أن يحسب أي حساب لوجودي:

«أيتها الطفلة، يسعدني أن أزف لك أن الأميرة ميلوسين أعطت ثقتها للفارس في حضرة كهنة الغال، وميرلان المدهش، تحت ظلال غابة بروسلياند. وبدت الطفلة ـ وقد اعتقدت أن هذا اسمها ـ متأثرة للغاية، فقد ركعت أمامه، رافعة وجهها، وسألته على استحياء:

«متى يمكنني سماعها؟»

وفكر لبرهة، ثم هز رأسه عدة مرات، كما لو أن هناك مشكلة خطيرة، ثم نظر أخيراً إلى البعيد نظرة زائغة، وأجاب بصوت خفيف شارد:

«ربما الليلة، قال، وربما غداً...»

ـ أوه يا لويس! قالت: سأكون في غاية السعادة...

ـ أعرف، يا طفلتي، أعرف، اثنان وثلاثون بيتاً، هي بالقطع أجمل أعمالي...» ونظرت إليه، مشرقة، كما لو أنها ستبكي من الفرحة، وقبّلت يده.

ولم أفهم الكثير من هذا المشهد، وانتظرت عودة إيزابيل.

وظهرت حاملة صينية محملة بالكؤوس والزجاجات، بدت لي ثقيلة عليها وهرعت للقائها، ولكني عندما مددت لها ذراعي، نظرت لي بقسوة، ومرت أمامي ببطء رافعة ذقنها لأعلى.

ولمعت عين الشاعرة فجأة.

ثم بدأ، في الصمت العميق، نوع من الاحتفال. ووضع أمامه الكأس، الذي كان أكبر الكؤوس، بعد أن تفحص نظافته، ثم أمسك بالزجاجة، وفتح سدادتها، وتشممها، ثم صب سائلاً عنبري اللون مائلاً للاخضرار، راح يعايره باحتراس، فقد تفحص المقدار بعد ذلك، وفكّر، ثم أضاف بضع نقاط.

ثم أمسك من على الصينية بمجرفة صغيرة من الفضة، كانت صغيرة

وطويلة، ومثقبة بالفتحات التي لها شكل النقوش العربية.

ووضع هذه الملعقة فوق حافة الكأس، ثم وضع فيها قطعتين من السكر، ثم استدار ناحية زوجته، التي كانت تمسك بـ«إبريق فخاري» كان له شكل الديك، من مقبضه، وقال: «دورك، يا طفلتي!»

وقامت الطفلة واضعة يدا على خاصرتها، رافعة الإبريق بالذراع الأخرى المستديرة إلى الأعلى، ثم راحت تصب بدقة تصويب خيطاً سميكاً من الماء البارد ـ كان ينزل من فم الإبريق الذي له شكل المنقار ـ على قطع السكر التي بدأت الذوبان ببطء.

وراح الشاعر يراقب هذه العملية عن قرب شديد، وهو يضع ذقنه بين كفيه المفرودتين على الطاولة. وكانت الطفلة التي تصب، جامدة في مكانها كأنها نافورة بينما كتمت إيزابيل أنفاسها.

ورأيت، في السائل الذي كان يعلو ببطء نوعاً من الزبد، يفور في أهداب حلزونية تتواصل وتتجمع، واخترقت رائحة الينسون المنعشة اللذيذة أنفي.

وقد قطع المعلم مرتين سقوط السائل، برفع يده، عندما كان يجده شحيحاً أو غزيراً، كان يتفحص الشراب بعدها بقلق، ثم يطمئن، يعطي الإشارة لاستمرار العملية.

فجأة، اختلج، بطريقة امبراطورية، وأوقف نهائياً تدفق الماء، كما لو أن نقطة زائدة عن هذا الحد ستفسد في الحال هذا الشراب المقدس.

وكفت المرأة عن اتخاذ وضع الإبريق؛ فأمسك الشاعر بالكأس باحتراس، ورفعه إلى شفتيه، ثم نكس رأسه إلى الوراء، وشرب نصفه، بدون توقف، فكانت حنجرته ترتفع وتنزل تحت جلد رقبته المزرق.

وفي النهاية، أعاد وضع الكأس على الطاولة، ثم تنهد تنهيدة طويلة متلذذة.

وشعرت أثناء ذلك بقلق حقيقي، لأن هذا الشراب، بسبب لونه، ورائحته، ذكرني على نحو غريب بشراب البرنو المخيف الذي أحال عزيزنا بوزيج، لعدة ساعات قراقوزاً زائغاً، متلجلجاً، من الخبال. لكن هدوء إيزابيل وأمها الكامل طمأنني؛ ثم أنها، لم تكن بالقطع المرة الأولى التي يشرب فيها الشاعر هذا الشراب، الذي أسماه «الأبسنت»، ثم «الأكسير». فلم يكن إذن البرنو، لكنه بالقطع أحد أدوية الشاعر. فضلاً عن أنه لم تبد عليه أية إشارة للاضطراب وبدا على النقيض سعيداً تماماً.

ورأيته يتذوق، في جرعات صغيرة، باقي إكسيره، أمام العينين المسحورتين للطفلة الراضية. ثم قال، بنبرة احتفائية:

«لي أربع أيام أحاول تغيير قافية لم تُقنعني. واعذروني لأني أخفيت هذا عنكم، إنها بقعة سوداء على تمثال من المرمر، وشوكة في بستان زهر. ورغم هذا فالكلمة ليست بعيدة المنال. إنها ترفرف حول شاعريتي. ولو أنني لديّ ساعة واحدة من السكون التام، فأنا على يقين من أنني سأتصيدها».

وعند نطقه لهذه الكلمات الأخيرة، بدا عليه تعبير متوحش. وقام بحركة سريعة، كما لو كان يطارد ذبابة:

وأخيراً، وضع مرفقيه على الطاولة، ووضع جبهته، على كفّيه المفتوحتين، ولم يتحرك. عندها، وضعت الطفلة أصبعها على فمها، وتقدمت نحوي على أطراف أصابعها، وأمسكت بي بدورها من كتفي، واقتادتني إلى البيت، تصحبنا إيزابيل.

وعندما صرنا بعيداً بما يكفي عن الشاعر، قالت لي بصوت خفيض:

«إنه يؤلف، وأقل ضجة يمكن أن توقف إلهامه، لذا، فقد انتهى اللعب اليوم. وسوف تقوم إيزابيل بعمل واجباتها المدرسية في غرفتها، ولكن بمقدورأن

تجيء غداً في العاشرة صباحاً.

وقلت لهما وداعاً بهمس، وفي طريق العودة، أخذت أفكر في الطريقة التي عليّ أن أشرح بها لليلي ما حدث.

<> <> <>

خلف الحصن الجديد، وعلى الشرفة المعشبة لغابة الزيتون المهملة، كان يلعب مع بول.

كان ليلي يمسك بيده صرصوراً من مؤخرته التي غرس فيها فتيلاً مدبباً، وجناحاً صغيراً من الورق، وأثناء ذلك، كان بول يحك على حجر عود ثقاب معاند. لقد كانا ينويان بالطبع أن يشعلا النار في هذه الدفّة، قبل أن يطلقا الحشرة في الهواء.

قال لي بول: إنه سيكون أمراً بديعاً رؤية شعلة نار تطير. وتمنى ليلي، الأقل شاعرية، أن تتزايد بشكل كبير، سرعة الصرصور، بسبب الحمل الجديد الذي رشق فيه بمؤخرته، وربما أيضاً بسبب القوة الدافعة للنار. وأيا ما كان هذا التصور بيّناً جداً، فقد كان في مجموعه تخيلاً متواضعاً للصاروخ الناري الفلكي.

وعلى الرغم من فائدة هذه التجربة، فقد عارضت بحزم تنفيذها. ليس أبداً بسبب حساسية زائفة مستعارة، فكيف يمكن لحشرة جافة، لا تحتوي نقطة دم، ولا أم أو أب لها، أن تتألم؟ فهي ليست إلا لعبة ميكانيكية صغيرة، أو علبة موسيقى اقتصرت على نغمتين، أو نوعاً من اللعب صنعته الطبيعة لتسليتنا أثناء

الإجازة.

لم أتذرع إذن بآلام الحشرة المحترقة، ولكني أقمت دفاعي على أن السقوط الأخير للحشرة المشتعلة سيشعل النار في الأعشاب الجافة، التي ستحرق بدورها أشجار الزيتون، ثم الصنوبر، وأخيراً البيت. وعندما رأى المجرِّبون أنهم سيحاصَرون بالنيران، تنازلوا عن مشروعهم، ونزع ليلي ما وضعه بمؤخرة الصرصور، الذي هرب باتجاه الصنوبر، وهو يصرخ احتجاجاً..

وأخرج بول من جيبه الخبز والشوكولاته، التي لم يكن لديه وقت لأكلها. وراح ليلي ينظر لي ويداه في جيوبه، بغير أن ينطق بكلمة، ولم أكن مستريحاً بالمرة، فأخذت الأمر على عاتقي، ورحت أطرح عليه الأسئلة.

(والقضاة الأذكياء، يمنعون المتهمين دائماً من فعل ذلك).

«لماذا لم تأت هذا الصباح؟»

ـ كنت أجمع البطاطس من الأرض.

ـ وبعد الظهر ؟

ـ كنت أنظف البغل، ثم نظفت قن الدجاج، ثم جئت إلى هنا. وأنت؟

وحيرني هذا السؤال على قصره، فتظاهرت بالانفجار بالضحك، وأنا أقول:

«آه حسناً، أنا يا عزيزي، حدثت لي حكاية غريبة!»

– أعرفها، حكاها لي بول.

– وماذ قال لك؟

– قال إنك ذهبت تتلهى مع فتاة بلهاء تخاف من العناكب.

واحتججت: «إنها ليست بلهاء. إنها تخاف حقا من العناكب ـ وهذا أمر

طبيعي بالنسبة لفتاة ـ فخالتي روز أيضا تخاف منها ـ وأمي أيضا.»

– نعم، إذا شئت... ولكن هذه الفتاة، مغرورة بنفسها كثيراً.

– هل تعرفها؟

– رأيتها .

– أين؟

– لقد جاءت مرتين مع أمها عندنا، لشراء البيض.

– ولماذا لم تحدثني في هذا؟

– لأنه أمر لا يعني شيئاً.

– هل تجد أنها ليست جميلة؟

– «أوه! قال ليلي، إنها كالفتيات الأخريات. فيما عدا أنها حين تسير، تسير بطريقة البناء الذي يمشي على السقف، باحتراس حتى لا يحطم القرميد!» .

وانفجر بول بالضحك، وراح يسير بتمهّل، خبزه في يد، والشوكولاتة باليد الأخرى ويداه مفرودتان، وهو يدفع باحتراس قدماً أمام الأخرى.

«بالضبط، يقفل هكذا قال ليلي، ولكنها لا تفرد ذراعيها. ثم إنها تغمض وتفتح طيلة الوقت» .

وراح يقفل عينيه بحركات متتابعة، وهو ينظر لي خلسة.

وأغاظني هذا، ولكني لم أشأ أن أشهر له غيظي، وقلت ببساطة:

«أنا أريدك أن تستمع إليها وهي تعزف البيانو!

– هل تعرف العزف؟ سأل بول منبهراً.

– أوه! قال ليلي، إن إدارة ذراع أمر ليس صعبا. ففي الحلبة، غالباً ما أفعل أنا ذلك» !.

وشعرتُ بالانتصار.

«أي ذراع؟ إنه بيانو حقيقي، بيانو بغير ذراع! نعم، يا سيد. إنها هي التي تعزف بأصابعها، بكل أصابع يديها الاثنتين. لقد عزفت موسيقى عظيمة، لمدة ساعة، بغير أن تتوقف! ثم إن أمها، أستاذة للبيانو!

ـ إن أمها، قال ليلي، هي كارامنتران (أراد أن يقول مانيكان بالمهرجان) لأنها تدهن شفتيها باللون الأحمر، وعينيها بالأسود. وعندما تتحدث، لا تفهم أمي منها شيئا.

– لأن أمك لا تعرف الفرنسية جيدا!».

ونظر لي برهة، وأدركت أنني آلمته. فقال بفظاظة:

«على كل حال، أراهن أنك لم تذهب للفخاخ هذا الصباح.

– لا، لم أذهب. فلم أستطع ترك فتاة وحيدة تتوه في التلال!».

وهز رأسه، واجماً.

«حسناً! لقد قدر لها أن تروح في أفواهها!».

وفهمت أنه يتحدث عن الثعلب، والفئران، والنمل، والأعور

فقلت بدوري:

«إذن هيا! لنسرع!».

ولأن بول رفض اصطحابنا، قررت مصادرة أعواد ثقابه، وأثبت احتجاجه العنيف حكمة هذا القرار.

وصعدنا سريعاً باتجاه الرأس الحمراء فقد كانت الساعة قد جاوزت السادسة، وكان ليلي يسير أمامي، متفكراً، ويداه في جيوبه، فسألته:

«ماذا ستفعل صباح غد؟

ـ سأجمع اللوزات الأخيرة، قال. إنها هناك تحت «التنور الجديد»، على منحدر «الكاريبرا»!

ـ سآتي لمساعدتك. في أي ساعة ستبدأ؟

وتوقف فجأة، واستدار، وقال بحزم:

«أولاً، أبوها، سكير»!

ـ عمّن تتحدث أنت؟

ـ أنت تعرف عمّن أتحدث.

ـ من قال لك إنه سكّير؟

ـ كل الناس تعرف بالقرية. إنه يشتري طيلة الوقت زجاجات الخمر.

ـ وماذا يثبت هذا؟ أنت تعرف جيداً أنه بالقرية، يقولون دائماً أشياء سيئة ضد أهل المدينة!

ـ «ثم إنني أعرف ذلك بنفسي. لأنه في الأسبوع الماضي، وعند عودته من سانت مارسيل بالعربة، جاء باتيستا متأخراً أكثر من ساعة. وسأقول لك ماذا أخّره. لقد تأخر لأنه وجد هذا السيد يسير على أربع بالطريق، وقد فقد وعيه. عندئذ شحنه على العربة وأعاده حتى البراري!».

وسحقني هذا الخبر وأجبت.

«لو أن هذا الأمر كان صحيحاً، فلابد أنه كان مريضاً، لأنه رجل غني

جداً، ومثقف جداً، بل إنه نبيل أيضاً! وكل الناس معرضون للمرض.

- «إنك تهذي! لقد قال باتيستا إنه أفرغ من جوفه ملء لتر من البرنو! وهذا مرض غريب!».

وأصابني الحديث عن البرنو بالاضطراب ولكني رفضت الإنصات إلى هذه النميمة المرعبة.

«إن الحقيقة، قلت، هي أن أخاك كذاب. فربما هو الذي ذهب للشراب في المقهى، ولأجل هذا تأخر. ولكي يبرر تأخيره، اخترع أي شيء».

كنت أتحدث بحماس. وهز ليلي كتفيه هزاً خفيفاً، وخرج من الطريق ليتفقد فخاً.

«لقد تصيَّد طير أبازريق، قال. ولكنه لم يبق منه سوى الريش».

كان الريش منثوراً في دائرة، أزرق، وأصفر، وسمني، وأسود، حول منقار مدمى، لقد مرت الفئران من هنا... وفي الأعلى، كان عصفور كبير، تم اصطياده بالقطع في السحر، وكان نصف مدفون تحت الحشرات الصغيرة السوداء التي حفرت الأرض بعصبية تحت جثته. وقد باضت بالفعل تحت ريش الجثة، واحتفظت بها لكي تؤمن غذاء صغارها، التي ستولد وحدها في الربيع...

وواصلنا الجولة، التي احتفظت لنا ببعض الإحباطات الأخرى.

فقد احتفى فخان، ومن ثلاث دارناجات، لم يتبقَّ إلا المناقير والأرجل. واستسلم ليلي للأمر بغير أن ينطق كلمة، ولكنه راح يهز رأسه، ومع ذلك، فقد جمعنا بعض طيور السُّمنة، وشحرور صخور، من النوع الذي يسمونه في الريف «العابر الوحيد»، لأنه طائر مهاجر يرحل دائماً وحيداً.

وكان الفخ الأخير منصوباً بأسفل المنحدر الأخير. وعنده استرحنا قليلاً تحت

الصنوبرة المائلة التي تفرد أغصانها المفلطحة كأنها أجنحة.

عبر غابات صندل الألاوش، كان بمقدورنا رؤية البحر البعيد. كان يلتمع كصفيحة فضية، تحت الغروب الهائل للشمس الذي صنع كعادته صخباً من الأحمر والذهبي.

«غداً، قال ليلي، سيكون الطقس جميلاً. فإذا جئت مبكراً، يمكننا الانتهاء من اللوز قبل الظهر، ونعود للغداء هنا. وإذا اعترض أبي، سأهرب!».

ولكي يؤكد على مشروعه هذا، أعد مأوى بين ثلاث أحجار كبيرة مفلطحة، رصّها على الأرض. وقاسها بعناية. ثم بنى مقعدين، بعدما حدد المكان الذي سيستظل في الظهيرة بظل الصنوبرة. وأخيراً. ساعدته على تجهيز كومة من الخشب الجاف.

– وعندما غطست الشمس في البحر، عدنا نخب راجعين.

في الأسفل، إلى اليسار، رأيت بيت إيزابيل. ولم تكن الأكاسيا من مكاننا لتعلو على نبات القريص. وكان الزيتون الذي يحيطها بحجم باقات السّعدَ...

وجرى ليلي أمامي، ولكنه توقف فجأة، وغادر الممر بقفزة، ليتجوّل في الدغل، ثم عاد نحوي، وبشكل خائف، صاح:

«احترس!...».

وتوقفت

«ماذا حدث؟»

– وأشار لي بأصبعه على نسيج يسيج الممر، وصاح:

«عنكبوت! أنا أخاف العناكب! النجدة!»

ثم هرب أمامي وهو يضحك هازئاً.

وفي المساء، على الطاولة، كانت المحادثة مزعجة بعض الشيء. بدأها بول بالإشارة نحوي بأصبعه، وهو يقول باحتداد:

«إنه كذاب! كذاب حقيقي!»

– لماذا؟ سألت أمي.

– لأنه قال إنه سيمر على الفخاخ. ولم يكن ذلك صحيحاً. فقد ذهب لرؤية الفتاة.

– أو هوه! قال العم. الفتاة التي قابلها في الصباح؟

– نعم! قال بول. فتاة العناكب! ثم إنه تزين ونظف نفسه، لأن هذه الفتاة هي خطيبته!

– لو أن هذا حقيقي، قال أبي وهو ينظر لي، أقول لك إنك تتعجل... فما رأيك ياعزيزي جول؟

– أنا أتفق تماماً معك في هذا. فأنا قبل أن أحدد موعد خطوبتي مع روز، رحت أغازلها لمدة سبعة أشهر!

– سبعة أشهر وواحد وعشرون يوماً!» صاحت الخالة روز. ثم احمر وجهها وخفضت عينيها، كما لو أنها قالت شيئاً خارجاً عن الأدب واحمر العم جول على نحو غامض، بدوره، ووضع يده الضخمة على يد زوجته، وواصل حديثه، وهو ينظر لي:

– فضلا عن أنك تعرف أفضل من أي أحد أن محادثتنا في حديقة بورلي استمرت ثلاث فصول على الأقل.

«إنها الحقيقة، صحت، فقد كنت شاهدا عليها!»

ثم نظرت إلى بول مباشرة ، وأضفت بحنق :

« ثم إنني لم أقل أبداً شيئا لأحد ؛ بيد أنك تقول أشياء، حتى لا تعرفها !»

– لو كان هذا أمر جديا ، قالت أمي ، أو ارتباطاً دائماً فالمفروض أن تقدمها لنا!.

– وسوف نعمل في هذا اللقاء على إخفاء بنادقنا، قال العم جول، بما أنها ستأتي بالقطع مع حميك المقبل! وبالمناسبة، هل رأيته ؟

– نعم ، قلت ، وهو يبدو عليه مظهر الشخص الذي يفكر كثيراً، ولكني لا أعتقد أنه يطلق النار على الصيادين، ولابد أنه قال ذلك للضحك ، واعتقدت إيزابيل أنه أمر جاد.

– وهل تدعى إيزابيل ؟ سألَتْ أمي.

نعم، لكن أمها تناديها بابيت.

ـ بابيت ، قالت الخالة روز، هو اسم التدليل لإليزابيث.

– نعم قالت أمي ، فاسم تدليل إيزابيل في العادة هو بيبيل . ».

وأعلن العم أنه يفضّل بابيت.

« وأنا أيضاً، قلت ، وهو اسم يليق بها جداً، ثم إن أباها بالفعل شاعر كما قالت ، فعندما يتكلم ، يتكلم بالقوافي!»

ـ هل تلا عليك أبياتاً؟ سألت أمي.

ـ لا. لا. لم يتلُها، بل ألفها. بل أيضا ألّف أبياتًا يقول فيها إنه يريد أن يشرب الأبسنت.

ـ ماذا؟ قال أبي، وهل شربه؟

ـ بالطبع، قلت. شرب كأساً كبيراً مترعاً للحافة! ولكن انتبه، فلم يكن هذا هو البرنو، وإنما الأبسنت.

ـ هذا ألعن! قال جوزيف . فالأبسنت هو أشد الخمور عنفاً.

ـ إنه يفعل هذا بالقطع. قال العم ، لأنه يريد تقليد فيرلين وألفرد دي موسيه!

وخفيت عني فكرة أن الكتاب الآخرين كانوا يسكرون قبله. لكن جوزيف تابع حديثه بنبرة تهكمية :

«ونحن نعرف كيف جعلهم هذا يبلغون مرامهم ؟ هؤلاء البؤساء؟

وجعلتني هذه الكلمات الأخيرة أفهم أنهم قد باءت آمالهم بالفشل.

على كل حال ، قلت ، لم تظهر منه أيه دلائل تدل على الشراسة، وقد مر الأمر بسلام! بل لقد فهمت أن هذا يجعله يفكر، وأنه يجعله يعمل؛ فبعد أن شربه لم يفه بكلمة، فقد راح في تفكير عميق.

– هذا إذا ظلت له أدنى قدرة على التفكير، إن عليه أن يفهم أن هذا العقار سيدمر ذكاءه، ويجعل كبده في حجم الليمونة، وأنه سيجعله يكتب أبياته الأخيرة في غرفة مجانين!

– لا يجب أن نكون مغالين، قال العم جول (الذي يدافع أحياناً عن الخمور لكي يحمي نبيذه، فشرب القليل من الأبسنت في سهرة صيفية، بالريف، بعد يوم من العمل..

– سيكون ذلك أمرا يتحول إلى عادة، لأن العادة تبدأ من تجرع الجرعة الأولى. لأنه إذا لم تؤثر المرة الأولى، فستكون المرة الثانية هي الأولى التي لا تؤثر بدورها، وهكذا دواليك، فكلمة «التعود» هكذا تفقد معناها! أؤكد لك يا

عزيزي جول...»

ولكنني لم أواصل الاستماع لمحادثتهما التي سمعتها مائة مرة، فذكرى إيزابيل، التائهة بين الينسون، وعلى رأسها تاج من الأزهار، قطعت فجأة كل تفكيري. ورحت آكل بهدوء. وأستمع إلى الموسيقى الهائلة تتخلّل صوت أبي الذي راح يتلفظ بكلمات غامضة ومهددة مثل: الهذيان، الإصابة بالخراريج، والسيلان، والتبول اللا إرادي.

وما إن ابتلعت آخر قضمة من الحلوى، حتى قلت لهم إن عليَّ أن أنهض في ساعة مبكرة من صباح الغد لكي أساعد ليلي، وصعدت للنوم. وفي الحقيقة، كنت أهرب لموعدي كل مساء مع الذكريات التي أسترجعها من أحداث اليوم.

وتأكد لي أولا أن هذا اللقاء كان حدثا على درجة كبيرة من الأهمية، رغم أنه لا يغير من رأيي في الفتيات بصفة عامة، فقد بدا لي أن هذه الفتاة لم تكن كالأخريات، إذ لم يحدث أن شعرت بإعجاب كهذا لكليمنتين، التي كانت ذكراها على العكس قد تضاءلت، لأن هناك فارقاً كبيراً بين البيانو والمقشة؛ أما تلك النظرة غير المألوفة التي جعلتني أضطرب أحياناً، فلم تمثل لي إلاّ نوعاً من العطف اللطيف.

واستدعيت في مخيلتي كل هذا اليوم، ساعة بساعة، ورحت شيئاً فشيئا في النوم، وأنا أحلم أحلاماً لذيذة.

كنت متمدداً على الكنبة، في الليفيجروب، مرتدياً ثوباً حريرياً مذهباً، وشبشباً أحمر يتدلّى على طرف قدمي العارية.

وكانت إيزابيل تعزف البيانو، مرتدية فستاناً طويلاً من القطيفة السوداء، يتدلى ذيله حول المقعد ويستطيل حتى يختفي طرفه تحت الطاولة. وكان على

رأسها تاج أميرة يلتمع ـ من الذهب، بالطبع ـ وعلى طرف كل حرف من أحرفه المدببة، لؤلؤة كبيرة مكورة. وكانت آلاف النغمات الذهبية تصدر عن البيانو كأنها سحابة من النحل. وكانت هي تحول وجهها إليّ وتنظر لي من وقت لآخر. وتبتسم برقة، ثم قالت لي: «أنا أسمح لك برفع الكلفة معي عندما لا تكون أمي هنا».

ولكن فجأة ، وجدتني في شارع يزدحم فيه جمهور غفير ، أمام منزل في غاية الجمال. وكان الناس جميعهم ينظرون لأعلى المنزل. وفعلت مثلهم، ورأيت طرحة طويلة من الدخان تخرج من السقف، ثم رأيت شعلات النار المطقطقة. وانفتحت كل نوافذ الواجهة مرة واحدة في نفس الوقت، وظهر أناس مرتعبون، كان الكثيرون منهم، بالقمصان والآخرون يضعون قبعات الصيد، ويصيحون في يأس! «استدعوا لنا المطافئ!»

وتعرفت في أول صف من الجمهور على رقبة العم جول. وكان يجيبهم بتصلب ! «بما أن لدينا زوجاً إشتراكياً، فلن تكون هناك مطافئ! لقد قلت ذلك مائة مرة لجوزيف!».

وكان ذلك قولاً حقيقياً له، قاله ذات مرة بالشرفة وهو يقرأ الجريدة .

وراح التعساء والذين أصابهم قول العم جول باليأس، يلقون بأنفسهم من النوافذ .. ويرتطمون بالرصيف، فتنفجر رؤوسهم. وأسمع لها دوياً خافتاً ، كما لو كان طرقعة كيس من الورق، وكان آخرون بأعلى المنزل ، يجرون على حرف السقف بين النيران.

وفي هذه اللحظة، انفتحت النافذة التي بالدور العلوي، في منتصف الواجهة. وظهرت فيها إيزابيل، كانت ترتدي الأبيض، كأنها عروس، وكانت النار تبدو حمراء من خلفها، وكانت تحمل ضمّة من الزهور بين ذراعيها، ولم يبد عليها أي هلع. بل على العكس، كانت تبتسم، فقد كانت تعرف

بوجودي. وانطلقت أنا عبر الجمهور ، وجريت نحو الباب المغلق.

وصاح الناس: «إنه مجنون! ارجع هنا!».

وسيطر صوت العم جول على كل الأصوات الأخرى :

«فكر في أبيك! فكر في أمك!».

ولم يتمكن شيء من كبح جموح قراري ، وفي بضع قفزات عجيبة، بلغت أعلى السلم الذي انهار تحت قدمي المشتعلتين ، وأمسكت بإيزابيل بين ذراعي بين النيران التي لم ترها (لأنها لم تكن ترى شيئا سواي) ، وحملتها ، خفيفة كالريشة ، وبركلة قدم، فتحت بابا سريا، يؤدي إلى كنيسة.

وعندما وصلنا إلى فناء الكنيسة، رأينا جمهوراً آخر بانتظارنا، آلافًا من البشر يصيحون بالبهجة، لكنهم كانوا يفسحون باحترام «ليصنعوا طريقاً للبطل الذي يحمل أغلى ما لديه».

كانت هي المرة الأولى التي أنقذ فيها فتاة، وأحملها بين ذراعي. بين تصفيق الجمهور وهو ما جعلني لا أفهم مغزى هذا الحلم البطولي. وتلاحظ لي فيما بعد أن عمليات الإنقاذ الليلية للآنسات الشاكرات ولدت في نفسي كهواية عظيمة.

فحتى البكالوريا، كنت قد أنقذت دستة منهن. انتزعتهن من المعتدين المتوحشين ومن العواصف البحرية المهولة، ومن فورانات البراكين، وكذلك من الزلازل الأرضية. وأكد هذا الصنيع الخيالي على الكرم الرجولي لمشاعري؛ ومع ذلك فقد بدا في تعدد الحالات ما يثبت أن عواطفي لم تكن خالدة، أو نهائية، بما أن المنقذ البطل كان يتحول بسرعة شديدة عن البطلة التي ينقذها..

لكن كل هذا كنت أجهله بعد. مما جعلني في صباح اليوم التالي، وأنا أغمس شطيرتي في القهوة باللبن المعطرة بأعشاب التلال، أستعير الحلم

البطولي، وأسأل نفسي، إذا لم تكن الصدفة قد جعلت إيزابيل تحلم نفس الحلم.

ثم، صحوت تماماً، وتذكرت أن ليلي بانتظاري.

‹› ‹› ‹›

واتخذت الطريق المسمى بالطوق، الذي يوصلني إلى ليلي.

لابد أنه الآن مشغول بتقليم أوراق أشجار اللوز، تحت وابل من اللوز الجاف يتقافز على رأسه. ولكنني عند تقاطع هذا الطريق مع الطريق المؤدي للبراري، وجدتني أتحول يساراً بدلا من أن أسير على استقامة الطريق، وحثثت خطاي باتجاه منزل إيزابيل. ولم تكن المسافة كبيرة، ولم أتوقف فيها بالمرة.. وعبرت عرض المنزل، فلو رأيتها في الشرفة، سأحييها من بعيد بيدي.

كان السرير الهزاز خاليا، ولم يكن هناك أحد تحت الأكاسيا.

ورفضت القبول بالإحباط، وفكرت:

«لابد أنهم ذهبوا للقرية لإحضار التموين. وربما ألاقيهم في الطريق...»

وواصلت سيري، في الطريق الغاطس (للتنور الجديد). ونظرت إلى بعيد أمامي وقلت بحزم:

«هكذا أفضل! فليلي بانتظاري من ساعتين. وليس لي الحق في إضاعة أي دقيقة، فبعد ما فعلته أمس، لم يكن عليّ حتى أن أمر من هنا!».

وواصلت سيري.

ولكن فجأة، غنّى صوت يشبه صوت الديك بنغمتين «أو.. أو!»

ونظرت إلى يميني.

ووجدتها، في عمق حقل من الأعشاب الجافة، تحت شجرة زيتون عجوزاً جالسة على أرجوحة. وهي ترتدي قبعة كبيرة من القش الأبيض، كانت حافتاها مربوطتين حول وجنتها بشريط كبير أزرق.

وحييتها تحية صغيرة بيدي، كما عاهدت نفسي، ولكني أخطأت لأني توقفت، فقد صاحت: «إلى أين أنت ذاهب؟»

ووضعت كفي على فمي وصحت: «أنا ذاهب للعمل مع صديق!».

ولم تجب، فأضفت: «لابد أن أساعده في جمع اللوز!».

وصاحت، كما لو أنها لم تسمع من كلامي شيئاً: «تعال أرجحني!».

وترددت برهة، ثم بدا لي أن دقيقتين تزيدان أو تنقصان، ليستا بالشيء الكثير، وأنني، بما أني أنقذتها من النيران، فبمقدوري أن أدفع، ثلاث أو أربع مرات أرجوحتها. ثم بعدها، يمكنني أن أعرض عليها الموقف باختصار.

وخطوت خطوة للأمام، ولكني توقفت فجأة، فقد تخيلت ليلي، وحده، تحت انهمار اللوز، وهو ينظر من حين لآخر باتجاه الطريق الخالي....

عندئذ، صاحت بكل قوتها من جديد: «تعال ادفعني!».

وذهبت.

وعلى هذا النحو انتظرني صديقي عبثاً، إلى جوار العصا الإضافية التي حملها معه لأجلي، وظلت ممدّدة على العشب، أثناء ما كنت أنا أدفع بيدي الاثنتين، كتفي إيزابيل الطريّين، وهي تصرخ من الخوف ضاحكة عندما ترفع الريح الناتجة عن اندفاعها ثوبها. وتصفعها خفيفاً على وجهها.

وهكذا فصلت الصديقين الحميمين عن بعضهما، وهي تضحك على أرجوحتها التي كان يمكن لها أن تتوقف لو لم يقم الذَّكَر بالدَّفع.

◇ ◇ ◇

رحت أقضي من الآن فصاعداً أيامي مع إيزابيل، ولم يعد ليلي يأتي للبيت. وقد حدث لي أحياناً أن فكرت في صديقي، ولكن ماذا أفعل له؟.. وقد كنت بالفعل عندما أتخيل وجهه، أعض شفتي، وأخجل من خيانتي، وعلى كل حال كان هو الشخص الذي سبب لي تلك المكابدة النبيلة. كنت أقول لنفسي، وأحيانا بصوت عال:

«إنني، أحبه كثيراً، وأنا صديقه. لكن الصديق، ليس عبداً. ثم لماذا لم يعد هو يأتي لرؤيتي؟ إنه غاضب لأني لا أقوم بعمله. ولكن من ناحيته هو، هل يساعدني في عمل واجباتي؟ ثم قبل كل شيء، أنا في إجازة، ولي الحق أن أرى من أشاء!

ورغم أنه لم يطلب مني شيئاً، فقد وجدته يطلب الكثير، ورحت أعاتبه في نفسي على الحزن الذي سببه له بالقطع غيابي...

وصادقني الشاعر، لأني كنت أنظر إليه بإعجاب واضح، ومن اليوم الثالث على تعارفنا، رجاني أن أقتاد العائلة في زيارة للمكان الذي أنقذت فيه حياة ابنته من الثعابين.

ورحت أضرب الأدغال من جديد، في الوقت الذي ظلت العائلة فيه في المؤخرة، وشققت نسيج العنكبوت في هياج وحش. ولاحظت أنه كان هو الآخر

ساذجا كإيزابيل، لأنه قال لنا إن العنكبوت الأسود المخطط بالأصفر، بمقدوره القفز في وجوه العابرين، وأن فرصته مميتة في معظم الحالات، وهو ما قرأه بالقطع في تقارير المستكشفين البرازيليين. أما عن الثعابين، فقد تخيل هو العديد منها، وكانت الطفلة الهلعة تضم إلى عظامها ثوبها المتدلي، الذي يجر وراءه شرائط العليق الجاف.

وكانت إيزابيل التي تسير ورائي على آثار خطاي، تشجعني وتبدي إعجابها بي، وفي عمق الوادي، على الحجر الذي دعاه الشاعر «حجر اللقاء»، أقيمت طقوس الأبسنت. فقد حمل معه بالفعل في كيس أنبوباً مليئاً بهذا الشراب، وزجاجة ماء، وكل ما يلزم، وقبل أن يشرب، صبّ على الحجر بعض قطرات الإكسير، وهو يقول لنا إن هذا «قربان للتشكر للإله سلفستر»، ثم سألني ما إذا كانت هناك ذئاب بين أشجار الصنوبر هذه، وأجبته بهدوء. بأنها لا تأتي إلا في الشتاء، وبأنني قابلت بها الخنازير البرية عدة مرات.

ونظر لي بإعجاب ، وقال : «ألم تخف؟» .

وأجبته بوثوق أدهشني أنا نفسي : «الخنزير البري، هو خنزير قبل كل شيء.»

عندها، قال بحزم لزوجته :

«إن بهذا الطفل شيئاً من بيلروفون، وربما من برسيفال!» .

ولم أكن أعرف هذه الأسماء، ولكني فهمت أنهما من مشاهير الأبطال وازداد ادعائي.. ونظرت لي إيزابيل، نظرة فخر بصديقها.

ورحنا معاً بعد ذلك نسرق عنب نبيني.

«كلوا بغير عض، قال الشاعر وهو يبتسم، بما أني سأعوض خسارته! وبينما نحن نفتش بمرح عن العناقيد الناضجة، وجدته يكتب شيئاً على قطعة من

الورق، وهو يرفع من حين لآخر عينه صوب السماء، ثم ربط الورقة في عود من أعواد الكرمة، بخيط انتزعه من بطانة سترته، وقال :

«هكذا دفعنا لهذا الرجل الفقير مائة ضعف ما أخذناه منه، فقد تركت له أربعة أبيات موقعة من لويس دي مونماجور. ثمنا لأربعة عناقيد عنب!».

وابتسم بلطف ورضا، ونظرت نحوه الطفله بحب ، وقالت :

«يالويس، إنك طيب القلب جداً!».

فرد: «لايوجد أحد طيب القلب جداً».

ـ هل أستطيع قراءتها؟ سألت هي ، وهي تشير إلى الورقة النفيسة.

ـ «لا ، قال بحزم. إنها غير مطبوعة، وهي تخص زارع الكرمة. فعطاء الشاعر لابد أن يكون مكتملاً.»

ولم يقل شيئاً آخر. وتعهدت مع نفسي أن أنبه نييني لقيمة هذه الهدية التي لن يقدرها جهله الساذج.

في العودة، وحوالي الخامسة مساء، تناولنا وجبة صغيرة لذيذة من المربّات والخبز باللبن، والبسكويت. أضفت أنا إليها حفنتين من لوزات «الأميرة»، التي كان سهلا عليّ الحصول عليها بسعر التكلفة أي بجهدي فقط.

كانت إيزابيل تأكل برقة شديدة وبأناقة ونظافة قطة. وأثناء ذلك، بدأت من جديد طقوس الأبسنت على الطاولة المجاورة، ثم استند الشاعر والطفلة برقة كل منهما على الآخر، ودخلا البيت بخطوات بطيئة.

وأثناء ما كنا باتجاهنا نحو الأرجوحة، أمسكت إيزابيل بمرفقي، وقالت:

«أنصت».

وأرهفت أذنها. وسمعت أنغام بيانو ضعيفة، متقطعة بلحظات من الصمت.

«تعال، قالت، ولا تحدث ضجة».

وتقدمتني إلى ركن المنزل، ثم ذرعنا واجهته خلسة. وسمعت غمغمة صوت، وأنغاماً بدا أنها تصاحبه. ودلفت إلى البهو وهي تجرني من يدي، ووقفنا ملتصقين بالحائط، لا نتحرك، أمام الباب المفتوح «لليفيجروب» كان الشاعر يقرأ الأبيات، والطفلة تصاحبه بالأنغام الخافتة.

كانت الأبيات تقص حكاية امرأة مرعبة، ذات مخالب، وتدعى الغولة. تطير محلقة في أجمة، وتسعى إلى نهش قلب الفارس.

كان صوت القارئ متقطعاً، وكانت أنغام البيانو موقعة ولاهثة. وحرك الفارس الشجاع سيفه، الذي يرسل شرراً أزرق؛ لكن هذا لم يفد بشيء، لأنه كان في كل مرة يشطر فيه هذه الغولة نصفين، كان النصفان يعودان للالتحام في التو بفعل تأثير سحر يقوم به ساحر يدعى ميرلان. لم يكن يحب هذا الفارس وفجأة صار صوت الشاعر مرتجفاً ويائساً، لأن الشاب اللطيف سقط على الأرض، وقفزت الغولة فوقه لتصنع صنيعها. وضغطت إيزابيل التي راحت تعض منديلها على يدي بعصبية. لكن البيانو عزف فجأة لحناً من ألحان البوق، ظهر على أثره العفريت ميلوسين، الذي كان جميلاً كضوء النهار، وصار صوت المؤدي جهورياً، ولم يفعل العفريت شيئاً سوى أنه ابتسم.

وتناثرت الغولة في سحابة من الألم، وهي تصرخ صرخة مرعبة رجّت زجاج نوافذ الليفجروب. بعد ذلك أمسك ميلوسين بيد الفارس.

وحدَّثه عن الحب حديثاً رائعاً. واستمع له الفارس، وهو ممتقع من السعادة، وكان البيانو بدوره سعيداً مثله... ثم رحل الاثنان معاً في زورق سحري، على مياه بركة زرقاء، مغطاة كلها بالنيلوفر، وكانت تحيط بالبركة البجعات «الثلجية» التي رافقتهما باتجاه السعادة.

وعزف البيانو ثلاث نغمات طويلة، ثم توقف وحل صمت شديد. وكنت في غاية التأثر بفعل الصوت الرنّان للمؤدي، وفعل الموسيقى، وقبل كل شيء لأن يد إيزابيل كانت طيلة الوقت في يدي. لقد كانت بالفعل لحظات جليلة.

وناح صوت الطفلة المبحوح فجأة:

«أوه لويس! لويس! هذا أجمل ما كتبت!»

وتركت إيزابيل العارقة يدي، وركضت وألقت نفسها بين ذراعي أبيها، الذي كان وجهه غارقا في الدموع، واحتضنته بشدة وهي تنهنه، على حين راحت الطفلة، التي كانت تبكي كنافورة تهتز فوق مقعد البيانو، بعينين زائغتين، وأكتاف مهدلة.

أما أنا، فقد ظللت عند الباب، لا أجرؤ على الدخول في هذا المشهد المهيب، ورحت أسأل نفسي عن السبب الذي يجعل هذا الشاعر العظيم يكرس موهبته في تأليف الأبيات التي تتسبب في الألم لكل عائلته.

ورآني هو «هل سمعت؟»

وأشرت برأسي وأنا أحدق بعيني على اتساعهما، وصاحت إيزابيل:

«نعم يا أبي، لقد هزه هذا هزاً عميقاً.»

ـ «إنه بجعة عظيمة! قال وهو ينظر لزوجته. بجعة عظيمة!»

ولم أفهم ما أراد قوله بعبارة «بجعة عظيمة»، ولكن بما أني كنت قد تخيلت سرباً من البجع مندفعاً على النيلوفر، فقد اعتقدت أنه يشبهني بهذه الطيور النبيلة. وأبهجني ذلك، ولكنه. أدهشني.

في هذه اللحظة، نهضت الطفلة فجأة في حالة نشطة، وصاحت:

«إنها قنبلة! نعم، يا لويس، هذه المرة، ستكون قنبلة!».

ولم أفهم شيئاً من هذا الذي قالته. وهز لويس رأسه متفكراً «لا يجب أن نغالي، قال. لا تنسي أن هناك حلف الناشرين، والحواجز التي تعوق رجال المطافئ العواجيز».

وفهمت أن ذكر رجال المطافئ كان ضرورياً بسبب انفجار القنبلة. ولكن أين، ومتى؟ وحين رحت أفكر في هذا السؤال، تحدث من جديد كما لو كان يتكلم من عمق الحلم:

«لا، أنا لا أريد عرض (بيلفيجور) قبل أن أنتهي من (سميراميس). فينبغي على العكس الاحتفاظ بالسر تماماً!»

واستدار ناحيتي.

ـ أنت ستقسم لي ألا تقول لأحد أن بيلفيجور على أهبة الظهور. ارفع يدك اليمين، وقل: «إني أقسم».

وتقدمت، ورفعت يدي، وأقسمت. وأصابني الاعتداد لأنني أعطيت قسمي لعمل على هذه الدرجة من الأهمية.

«فيما بعد، قال الشاعر ثانية، فيما بعد، سيكون بوسعك أن تقول: «لقد حضرت القراءة الأولى الخاصة بالمائة بيت الأخيرة من بيلفيجور». نعم سيكون بوسعك قول ذلك».

وصمت لبرهة، وهو يجفف خلسة دمعة لم تكن قد جفت بعد.

«لا لن يصدقك أحد. ولذا سأعطيك بعد قليل شهادة أوتوجراف» ولم أكن أعرف ما هي شهادة الأوتوجراف هذه، ولكنني سعدت مع ذلك.

‹› ‹› ‹›

في الأيام التي تلت، كان وجودي مجنداً، أو بالأحرى كنت مدعواً لقراءتين أخريين سريتين.

كانت قصائده جميعاً من نفس النوع. فقد كان بها ملوك عميان يبكون عند أقدام ملكات مجنونات، وأقزام عور يتقافزون هازئين على حواف البرج، وسحرة، وغربان، وضفادع، وأبواب سرية، ودائما لحسن الحظ ـ البجعات. فقد كان منها أكثر مما في حديقة حيوان.

وفسَّرت لي إيزابيل مسألة القنبلة من الناشرين، ورجال المطافئ، مع طلب الكتمان والسرية؛ ولأني كنت في الحادية عشرة، وأحب إيزابيل، وأكن إعجاباً لأبويها، دخلت بقدمي الاثنتين في العالم غير الواقعي الذي يعيشون فيه، عالم مملكة الكلمات الغامضة، والموسيقى المبهمة، والأحلام المؤثرة التي رحت أحلم بها.

ولم تكن هذه العروض الشعرية سوى فواصل استراحة، فقد كانت أيامنا مشحونة بكل أنواع اللعب المختلفة، على الشرفة الكبيرة الظليلة أو في غابة الصنوبر المصرصرة.

كان لدى إيزابيل عدد من الأحصنة المصنوعة من الرصاص، تتحرك بزنبرك غير مرئي مقفولة عليه علبة، فكان كل واحد منا يختار مقدما الحصان الذي يرشحه، لكن رهاننا لم يكن سوى رهان معنوي فقد كان الرابح يفخر بربحه، والمهزوم يغتاظ. وكان لديهما أيضا لعبة أوز، وتريك تراك. ولم أفهم أبداً لاهذه ولا تلك. ولكني كنت، وهي تلعب، أتأمل رقبتها ، ويديها. ثم أرتني بعد ذلك حذقها في لعبة الديابولو. وكانت هذه عبارة عن أنبوب مثقب، حجمه دقيق. وبواسطة فتيل مربوط بعصوين، كانت تجعل الأنبوب يلف حول نفسه وهو يصفر صفرات سريعة، ثم، وبفرد الذراعين على اتساعهما، كانت تطلقه في السماء، فكان هذا الديابولو يسقط على الفتيل بدقة شيطانية محكمة.

وكانت تريد أن تعلمني هذا الفن ؟ ولكن لأن الأنبوب المصفر وقع مرتين مني ، إحداها على جبهتي والثانية على أنفي، فضلت أن أقصر تعاوني على دور المتفرج والمعجب.

مع هذا، فالألعاب التي كانت تتطلب استخدام الملحقات، أي الأشياء المعقدة إلى هذا الحد أو ذاك والتي نسميها اللعب، لم تتمكن من جذب اهتمامي طويلاً، لأن الأشياء ليس لديها ما يجعلها تشبع غريزة (مثل العروسة أو السيف)، فقد تبخر سحرها سريعاً. فضلاً عن أن هذه اللعبة نفسها، تنتهي بأن تتحول إلى قطع مفككة تماماً؛ لذا فقد حل محل ألعاب الديابولو، ولاعب السيرك الميكانيكي لعبة اخترعتها إيزابيل، وقد أبدعت هذه اللعبة انطلاقاً من قصائد أبيها .. وهي لعبة الفارس والملكة.

كانت هي الملكة ، بطبيعة الحال، وكنت أنا الفارس، وبدأنا بصناعة ملابسنا، فهي ككل الفتيات كانت تعشق التنكر.

وبواسطة ستارة قديمة لها سجاف ذهبي، صنعت ثوباً بذيل طويل، وموّهت على ثقوبه بالزهور. وبواسطة الكرتون المغطى بالورق المذهب الذي كان يغلف قوالب الشوكولاتة ماركة «مينيير»، تمكنت من عمل تاج ملكي بالفعل لنفسها، مزين بشكل حلزوني بشريط أحمر، يتدلى منه غطاء زجاجة كان جديراً بأن يكون مصنوعاً على يد صائغ ماس. ثم استعرنا أخيراً من ستارة الخرز المعلقة على الباب ما جعلنا نصنع عقداً من ثلاثة أدوار.

وكانت بذلة الفارس بالطبع أبسط من ذلك؛ فقد اكتفيت بقبعة إطفائي، كانت صغيرة جداً (لأني أحضرتها من مجموعة ألعاب قديمة تخص بول) لكنها كانت مزينة بقنزعة من الريش، كانت قد انتزعت من مجموعة من عرائس اللعب. وقد اكتمل ذلك بدرع من الزنك، قصصته من بقايا رشاش ماء، بفضل المقص الذي استعرته ـ خلسة ـ من سلة الخالة روز. التي كان

حظها تعساً بالفعل، ففي اللحظة التي تمكنت فيها من قص آخر حرف (كان بالفعل سميكا) سمعت طقطقة غريبة، وسقط نصف أحد السلاحين للمقص، بعد ارتجافة، على الأرض.... ولحسن الحظ، كنت قد انتهيت ولم تعد بي حاجة إلى هذه الآلة الهشة، فجمعتها ودفنتها سراً تحت شجرة زيتون.

هذه التجهيزات، التي استمرت يومين كاملين، كانت ممتعة، وخاصة في اليوم الثاني!

كنا جالسين فى مواجهة بعضنا، تفصلنا منضدة صغيرة، في «الليفجروب». وكانت الغرفة مظلمة، فقد سقطت بضع قطرات بطيئة من المطر على أشجار الأكاسيا، ونفذ عطر رائحة الأرض المبتلة من النافذة المفتوحة.

كانت إيزابيل تخيط، باستغراق. وأنا ألصق الأوراق المفضضة على سلاح سيف خشبي، وأنظر إليها من وقت لآخر. كانت في أجمل حالاتها، لأنها لم تكن «تتخابث». كانت جدائلها السوداء تتدلى على القماش الذي تخيطه، وكان الكستبان الصغير في يدها يدفع بالإبرة الرفيعة، وكانت ترفع عينيها أحيانا لتنظر لي، وتبتسم.

في ذلك الصمت البليل الرطب تحت المصباح النحاسي الملون، وهمس المطر، كانت الدقات الخافتة للساعة تحصي بصبر الوقت الذي نقضيه معا، وشعرت بعمق برقة صمتنا نحن الاثنين. ونهضت هي، بغير أن تحدث ضجة، وجلست إلى البيانو. وراحت أصابعها تعزف موسيقى خافتة، كأنها لا تريد لها أن تخرج تحت المطر، فراحت تسبح في الظلمة الخافتة، وتحلق في السقف.

وتكللت جهودنا بالنجاح. فعندما رأيتها تظهر، والتاج على رأسها. والصولجان في يدها، محاطاً بشرّابات ذهبية وخلفه الذيل الأرجواني، إنهرت وآمنت فعلا بسموها، وأقسمت لها في التو بطاعة سيفي وولائي، وأعلنت أني على استعداد للموت من أجلها، وهو ما قبلته بلا كلفة، وكانت أوامرها الأولى

لي تقضي بإثبات قوتي وشجاعتي.

فقد أمرتني أن أذهب للبحث عن عش مهجور في أعلى شعبة بشجرة أكاسيا مليئة بالأشواك المسننة؛ ثم، أسقطت من يدها زهرة في بئر البراري (التي يصل عمقها لثلاثة أمتار، والتي لم ير فيها إنسان أبدا الماء) و«سمحت لي» بأن أنزل في هذه الحفرة لكي أستعيد هذه الوردة.

وعبرت شبكة عنكبوت ضخمة (كانت خالية)، وصعدت بالوردة الثمينة، التي سمحت لي بأن أحتفظ بها. وفي يوم آخر، اقتادتني، على طريق القرية، حتى مزرعة فيلكس، وكانت حصنا صغيراً على حافة الطريق، نوافذه مغلقة دائما، لأن فيلكس، الذي كان بناء، لم يكن يعود إليه إلا في المساء؛ ولكن في غيابه، كان يحرس أملاكه كلب ضخم، نحيف. كهيكل عظمي ذي وبر. يقفز على العابرين حتى يكاد يشنق نفسه بسلسلته الغليظة، التي كانت لحسن الحظ تمنع عنهم توحش هذا الحيوان.

وأعلنت الملكة لي أنني إذا ذهبت إليه وربتٌ عليه، فسوف تعينني رئيساً لحرس القصر.

وبغير تردد ظاهر، تقدمت باتجاه الحيوان المتوحش ـ معتمداً على الجاذبية المغنطيسية المعروفة في نظرة الإنسان من ناحية، ومن الناحية الأخرى على صلابة السلسلة المعدنية التي تقيده.

وبدا لي أن نظرتي قد هيجت الحيوان، فتوقفت محترساً، على حافة نصف الدائرة التي تحد جيئته ورواحه في عمق مأواه، وقفز، قفزة عجيبة خلعت قفل طوقه. وصرخت إيزابيل صرخة هلع. وحاولت أن أقفز للوراء، ولكن محاولتي جاءت متأخرة! فقد تسلقت قوائمه العالية أكتافي، ورأيت التماع أربعة أنياب، كبيرة، أكثر حدة من مدية قصاص الأثر... ودفعت عني صدره الثقيل بكل قوتي، لكن لساناً طويلاً ناعما راح يلعق وجهي بشدة والحيوان المفترس يزفر

زفرات طويلة.

كان كائناً رقيقاً على نحو غير متوقع، مثيراً للشجن على نحو فريد، وكان وفياً بطريقة مسعورة متوحشة، إذ راح يفترش الأرض بعد ذلك عند قدمي ليلعقهما وهو يبكي من الفرح... وكابدت كل مشقة بالعالم لكي أفلت منه فقد كان يلقي بنفسه على خطوي، ويسعى ليتبعني لنهاية العالم. كانت إيزابيل قد هربت، ولكنها عادت تجري، بينما كنت أنا أعيد ربط طوق الحيوان. وقالت لي ببساطة ـ من على بعد ـ: «أيها الفارس، إني سعيدة بك». وبدا لي أنها كانت باردة، لكنها في المساء وهي تقص هذه الحلقة لأبيها، أكدت أنني أوقعت هذا الحيوان المفترس أرضاً. وربما كانت تعتقد ذلك، لأنها أثناء انتصاري السهل، كانت تخبئ وجهها بيديها. ووجدتني الطفلة «طائشاً مجيداً»، وقال لي الشاعر، وهو يشير نحوي بأصبعه السبابة:

«بيليروفون!».

على هذا النحو، مرت أيام عشرة، بسرعة شديدة، فقد كنت أعود كل يوم متأخرا للبيت، الذي لم أكن أرجع له إلا لتناول الطعام، فقد أعجبت بإيزابيل، واحترمتها، وأحببتها، ولم يعد عندي أي ندم على إهمالي لليلي، لأني كنت قد نسيت وجوده.

وعثرت في العشب، تحت الأرجوحة، على شريط من الساتان الأخضر، سقط من شعر الحبيب الغالي؛ وحصلت أيضاً على زر صدفي من ثوبها، ودبوس أعطته لي، ونواة برقوقة كانت أكلتها، وتفاحة برية صغيرة عليها أثر عضة أسنانها ونصف مشط شعر صغير. وكنت كل مساء أضع كنزي هذا تحت مخدتي، ثم، ألف الشريط الأخضر حول رقبتي، وأضم قبضتي على الفاكهة التي تقدست بأثر أسنانها، وأستعيد، وأنا مغمض عيني، ذكرى اليوم المعجز، وأعد الجمل، التي ـ ربما ـ أعبر لها بها في الغد، عن حبي الخالد.

مع ذلك، لم تتردد الملكة في الإسراف في استخدام سلطتها. ولقد أدركت اليوم أنها بعدما اختبرت مدى جسارتي وشجاعتي، لذّ لها أن تذل هذه الخصال الرجولية أمام ضعفها كفتاة، إنهن يعشقن البطل فالخضوع للعبودية أمجد ألف مرة من الخضوع للعادل الأمين، ويحدث أن تتزوج المرأة الضعيفة من بطل المصارعة المخيف من أجل متعة أن تصفعه.

وبدأت بأن أمرتني أن أحمل ذيل ثوبها، ثم لفتت انتباهي إلى أن هذا ليس من عمل الفرسان، وعرضت عليّ رسماً ملوناً كان يحمل الذيل الملكي فيه اثنان من الزنوج الصغار، ولذا طلت لي وجهي ويدي برماد حطب محروق. وكان عليّ بعد ذلك أن أروّح لها باحترام بمروحة من الريش، أثناء ما كانت تمثل أنها نائمة في السرير الهزاز، وعند استيقاظها. ولكي أسري عنها، رقصت لها رقصة «البمبولا». ولكي تكافئني، قالت لي: «افتح فمك، وأغمض عينيك!» ورحت أقرش ما وضعته برقة تحت لساني، من الحلوى المسكرة، والكريز، والحلزون.

واستغرقت، سعيداً وفخوراً بأن أدهشها، في هذه الخدمة، وارتجفت من التأثر، قبل رحيلي، فقد نظفت بنفسها وجهي ورقبتي بقطعة من القطن مغموسة في ماء الكولونيا..

هذا العطر اللذيذ جذب انتباه بول، فعندما اقتربت منه، تنشّقني بأنفه، وهرع إلى البيت وهو يصيح: «لقد ذهب إلى الحلاق!»

وخرجت أمي للباب، قلقة، وخائفة من أن يكون جوزيف قد استعاد ماكينة حلاقته. وعندما رأت شعري سليماً، سألته: «لماذا تقول هذا» ؟

ـ «لقد وضعوا له رائحة طيبة! لقد شممته!...»

واقتربت بلا مبالاة، وقلت:

«إنها أم إيزابيل التي عطرتني، فقد رشت العطر على وجهي.. وهذا العطر اسمه ماء الكولونيا...»

فعادت أدراجها للبيت، مندهشة بعض الشيء، ولكن مطمئنة.

ولم تخف التحولات التي حدثت لي بالطبع على بصيرة كل العائلة. فكان أبي ينظر لي أحياناً بابتسامة ساخرة، وذات مرة راح العم جول، وهو يقرأ جريدته بعد الغداء، يتأسّى على تجدد المآسي العاطفية، ويتحدث باحترام، مقلق بعض الشيء، عن قوة الأوهام التي تعمي العشاق. ولكن لم يحاول أحد أن يطرح عليّ أية أسئلة. بل على النقيض، فعندما سألني بول عن سر إقلاعي عن الذهاب للصيد مع ليلي، أجابت أمي بدلا مني، قائلة إن ليلي، هذه الأيام مشغول، ولكنه سوف يتحرر من مشغولياته هذه قريباً. وألح بول:

«ولماذا لا يريد أن يصطحبني معه لبيت خطيبته؟

وأفتت الخالة روز: «نحن لا نذهب عند الناس بغير دعوة منهم!»

ـ ولماذا لا تجيء هي إلى هنا، هذه الفتاة؟ فنحن الثلاثة سنتسلى أفضل معاً فستلعب هي دور المرأة الهندية، وتحمل الأكياس، وأنا أمثل أني أضربها، بالعصا، وتمثل هي أنها تبكي، وهلم جرا...

ـ حسنا، قالت أمي، اشرب حساءك. أنا متأكدة أن لعبك لا يعجبها، ثم إن الفتيات الصغيرات لا يذهبن إلى بيوت الأصدقاء بغير أمهاتهن .

ـ إذن، لتأت أمها معها. فلو أنك دعوتها، فسوف تأتي!

ـ هذه فكرة طيبة! صاح العم جول. أنا أعتقد أن هؤلاء الناس لابد أن يكونوا مهمين، بما أن مارسيل يقضي أيامه عندهم. فلابد أن معاشرتهم لطيفة. ولسوف أتحدث يوم الأحد في القداس، مع الشاعر، وسوف يأتي ليشرب كأسا هنا!».

وأذهلني ذلك.

وشعرت على نحو غامض بالقلق، فإيزابيل لا تعرف الطفل الصغير الذي كنته لدى عائلتي، والشخصية التي لعبتها معها، لا أستطيع أن أقوم بها مع ذويّ، فهم لن يعترفوا بها .. ووجدت في التو حلاً لهذه المشكلة؛ فلو أنها جاءت عندنا مع أبويها. فسأتعلل بأن عندي ألماً شديداً في الأسنان، وأظل جالساً على مقعد، بغير أن أتفوه بكلمة.

ومع ذلك. فاللقاء الذي تشككت فيه ـ لقاء الشخصيتين اللتين لم تتفقا ـ حدث في مساء اليوم نفسه.

<> <> <>

بعد ظهر ذلك اليوم، كانت طلبات الملكة عديدة ومتنوعة، فقد لعبت لها دور العبد المخلص الأسود الذي يحمل ذيل الثوب والمروحة، ثم الراقص البهلوان، والفارس، المصاب بسهم مسموم. واحتضرت بشكل مريع عند أقدام سيدتي، التي قالت لي كلاماً مواسياً ومتأسفاً ، وشخصت بعد ذلك الكلب الشرس، الذي يجري وهو ينبح، ولعابه يسيل، حول قصر سيدته، وانتهزت الفرصة لألعق يديها؛ وأخيراً، انتهت جميلتي المحبوبة إلى أن تشجعني وتضع لي في فمي جرادة حية، رحت أقرشها إلى أن اكتشفت ما هي ، وبصقتها وأنا في حالة من الغثيان.

وشاءت الملكة أن تصفح عن عدم ابتلاعي للجرادة، وراحت تنظف لي وجهي طويلاً بماء الكولونيا، ثم ذهبت، وجلست على العرش ـ الذي كان

عبارة عن مقعد البيانو الذي وضع تحت الأكاسيا ووافقت على مقابلتي.

عندئذ، وبينما كنت أقف أمامها في وضع الانتباه، زفّت لي خبراً مدهشاً.

«أيها الفارس، إنني سعيدة بشجاعتك، وإخلاصك لأوامري... لقد أثبتّ جدارتك في الاختبارات التي وضعتك فيها. وسوف تتلقى مكافأتك».

ونظرت في عيني، نظرة متفكرة.

«إن الملكة الوحيدة تظل دائماً مرهقة بهموم المملكة، ولذا فقد قررت أن تشاركني قدري».

ولم أجرؤ على الفهم. وتابعت:

«إن جلالة الملكة الأم بصدد تجهيز معطف ملكي من أجلك. وسيكون موعد زواجنا في الغد. بحضور كل الأمراء المسيحيين، وهي بنفسها التي ستعزف لك لحن العرس الملكي».

وكانت فكرة عظيمة. أكدت انتصاري النهائي، وصرت محمراً تماماً من الزهو فانحنيت باحترام. وأعطتني يدها لأقبلها. ثم قالت:

«والآن اذهب أنت، لأنني أرى شاعراً شهيراً يأتي إلى هنا، شاعراً أكبر من الملك، وعليّ أن أذهب لأخدمه...».

وبالفعل، ظهر لويس، مترنحاً، معوج الفم، يعذبه الإلهام على نحو واضح.

وانسحبت متراجعاً، وأنا أحيي في كل خطوة أتراجعها، وعدت إلى الحصن، وأنا أرقص على طول الطريق.

◇ ◇ ◇

ووصل الصيادان. وراح العم جول بغير احتشام، يشرب أمام أنف جوزيف كأساً كبيراً من النبيذ الأبيض الخالص، تعوم فيه قطعة من الثلج. وكان أبي ينظف مواسير بندقيته، ومن وقت لآخر يرفعها إلى عينيه كما لو أنه يتفحص السماء، التي كانت صافية تماماً، وكانت الخالة تقوم بأشغال الإبرة وهي تنطر للأمام سبابتها بسرعة على النسيج. وكان صرصور وحيد، مبحوح الصوت بعض الشيء، يعزف موسيقى خافتة على أعلى غصن بالتينة.

ونظر لي العم وأنا عائد، وكأسه في يده:

«أوه أوه! قال. إنك تبدو مرحاً هذا المساء.»

– أنا؟ كالعادة، هل جاء ليلي؟

ـ «نعم، قال أبي، وهو يواصل عمله الفلكي. بل لقد جاء في ساعة مبكرة، وعندما رأى أنك لست هنا، اصطحب بول معه».

كان هذا النبأ سعيداً، فقد انتشلني من ندمي، بما أن بول بإمكانه أن يحل محلي. كما كان خيانة صغيرة كذلك، جاءت لتسدد جزءاً من ثمن خيانتي، وأحسست ببراءتي الكاملة أمام نفسي.

وجلست على مقعد طويل، أقضم قالباً من الشيكولاتة. واضعاً كتاباً مفتوحاً على ركبتي، مدعيا القراءة، وكنت في واقع الأمر أفكر في عزيزتي إيزابيل، وأعتبر قرارها بالزواج مني في الغد مصارحة منها بالحب. وقررت أن أعرض عليها، بعد الاحتفال، أن نأتي لزيارة مملكتنا؛ وسوف أقتادها بهذا الشكل إلى غابة الصنوبر، وبحجة تأكيد زواجنا أضمها إلى صدري، وأقبلها قبلة غرامية.

وأثناء ما كنت أعد الحوار الذي سيقودني إلى هذا الفعل الجريء، والحاسم، ظهر بول وليلي. وتوقفا على بعد خمسين خطوة، تحت اللوزة المائلة العجوز، وكانا يتشاوران بصوت خفيف، ثم تقدما، ببطء، وهما يترنحان

ويتبادلان التعبيرات الانفعالية غير المفهومة.

وبدا لي سلوكهما مقلقاً، لا أعرف لماذا.

«حسنا، قال لهما أبي، من أين جئتم؟».

ودفع ليلي، الذي كان يمتص عوداً من الينسون، يده اليسرى، وأشار في صمت بسبابته باتجاه بيت إيزابيل: «كنا نتجول قليلاً هناك، قال بول، وقد اختبأنا، لكي نرى ماذا يفعل مع هذه الفتاة. ولقد رأينا كل شيء».

وشعرت بأن خدّي يحترقان، ولكني لم أفه بكلمة.

وسأل أبي، باهتمام حقيقي: «وماذا رأيتما؟»

– كانا يتسليان، قال ليلي، وهو يراوغ.

– وماذا كانا يلعبان؟

وأجاب ليلي، الذي بدا منزعجاً بعض الشيء:

«الواقع، أني لم أفهم جيداً».

ـ لكني أنا، فهمت! صاح بول. فقد طَلَتْهُ الفتاة كُلَّه طلاء زنجياً، ثم أمسك لها بذيل ثوبها، وبعد ذلك جعلته يركض على أربع!

– وهو ينبح، غمغم ليلي، الذي كان يخفض عينيه طيلة الوقت.

– هاكم لعبة مدهشة بالفعل. قال العم جول.

– ولا جدوى منها قال جوزيف بنبرة حازمة. فلم يحدث في حياتي أن جعلتني فتاة أركض على أربع!

– وأنا كذلك!، صاح بول بقوة، لم يحدث معي هذا في حياتي!

– إنها لعبة اخترعناها! لعبة «الفارس والملكة»!

– من المعروف، قال أبي، أن الفرسان لا يركضون على أربع!

– «ولا ينبحون أبدا!» قال العم

ورأيت بوضوح أنهم لم يسعدوا بهذا. فشرحت لهم قاعدة اللعبة، وأنا أصر على أناقة المشاعر.. الفروسية، وأقول إن المسألة يجري التعبير عنها في أبيات الشعراء «دائماً هكذا». لكن بول أشار عليّ بسبابة الاتهام.

«والجرادة؟ صاح. الجرادة، أنت لم تتحدث عنها. لقد جعلته يغمض عينيه، ويفتح فمه، ثم وضعت له فيه جرادة!»

– «حية!» غمغم ليلي.

ولأني حِرْتُ ماذا أقول، هززت أكتافي وانفجرت بالضحك.

«قولوا لي، قال العم جول بنبرة الريبة، كيف تمكنتم من رؤية ما حدث؟»

– كنا مختبئين خلف الوزال، قال ليلي بصوت خفيض، وقد جاءت تطارده أمامنا بالضبط!

– «وقد مضغها! صاح بول. أجل لقد مضغ الجرادة!» وصحت غاضباً، بدوري: «غير صحيح! لقد بصقتها! بالضبط، لقد بصقتها!

– صحيح، قال ليلي. لقد رأيت هذا!

– «بصقها أو مضغها، قال أبي بخشونة. أنا أرى هذا المزاح مزاحاً أحمق، ومن الواضح أن هذه الفتاة تعاملك كأبله!».

كان امتعاضه واضحاً، ولم أعرف كيف أتصرف. إلى أن سمعت صوت أمي، التي كانت عند الباب، ويداها معفرتان بالدقيق، وقالت:

«إذا كانت البنات تطعمك جراداً الآن، فإني أتساءل، ماذا ستطعمك بعد ذلك!».

وطعنني ذلك في قلبي، لأنها كانت تتحدث بجدية شديدة للغاية. لكن ليلي تدخل لإنقاذي. فقد ابتعد، ببطء، وهو يتراجع، وصاح فجأة: «إننا بالكاد لدينا الوقت للذهاب للفخاخ! لقد نصبت ثلاث دزينات عند العين الصغرى!»

وقفزت على الفرصة: «متى؟»

ـ «هذا الصباح، في الساعة الخامسة، قبل الشغل».

وانتهزتها فرصة في التو: «ألم تمر عليها؟»

ـ لا، لم أمر بعد! لقد أردت الذهاب معك!

ـ «هذه حماقة. قلت، لأنه مع ريح الشمال الخفيفة التي هبّت اليوم، من المفروض أن تمر طيور أبيض العجيزة! هيا بسرعة!».

ولم تكن هناك «ريح شمالية»، ولم نر أبداً طير أبيض العجيزة عند العين الصغرى. ولكنني قلت أي شيء لأغطي هربي، وانطلقت باتجاه التلال، وأسرعت الخطى، حتى أن ليلي وجد مشقة في اللحاق بي.

توقفت بعد ذلك، مقطوع النفس، وجلست على حجر أنتظره.

«أنت تعرف، أنني لم أكن أريد الكلام، ولكنه بول الذي أراد.»

ـ لقد رأيت كل شيء. ولكنني أجد أنه ليس جميلاً التخفي كالجواسيس الألمان لرؤية ما أفعله. فما أفعله لا يعنيكم في شيء.

ـ أعرف جيداً، قال ليلي. أعرف جيداً.. أنا لم أرد الذهاب، لكنه بول، أنت تعرف، لقد تألم بسبب تركك كل العالم من أجل هذه الفتاة. ثم أغاظه أن تلعب دور الأحمق لإسعاد هذه البلهاء. فماذا تتصور نفسها لكي تقودك؟ إنها تعاملك ككلب.

وحِرْتُ بماذا أجيب. ورحت، وأنا جالس على الحجر الكبير واضعا يدي

تحت أفخاذي، أهزهز ساقي، وكعبي وأنا أخبط بغير صوت الحجر الصامت.

ونظر لي برهة، بعينه السوداء، وقال بجفاء:

«وهل تتصور أنت نفسك كلباً؟».

وهززت أكتافي، وابتسمت ابتسامة باهتة. ودفع يديه في جيوبه، وراح يجيء ويذهب في صمت، خافضاً عينيه باتجاه السعتر الذي كان يعلو على قدميه. كان وجهه حاداً ومكفهراً. وأخيراً، توقف أمامي، وهو ينظر لي في وجهي، ثم قال بحزم:

«لقد ركلتك بقدمها. نعم، ركلتك بقدمها».

ورحت أعاني وأنا أتصورني في هذا الوضع، وقفزت تحت الحجر، وأنا أقول: «إذا شئت، ولكن الآن، علينا أن نذهب للفخاخ».

وتبعني.

<> <> <>

في المساء، تحت مصباح «العاصفة»، عانيت لكي أكون هادئاً.. وأنا آكل بشهية البيض المقلي بشرائح صدر الخنزير والطماطم المحشوة. ولأن أحداً لم يتكلم، وبدا الصمت مزعجاً لي ـ وقد شعرت أنهم جميعاً يفكرون في «حارس الملكة» ـ بدأت الحديث طوعاً، فعرضت ـ كما لو أن الأمر يتعلق بمشكلة حيوية ـ الفرق بين الإيقاعات الثلاثة للصدى في هضبة الباس تون.

كان الصدى الأول الذي يتردد هو الصدى الآتي من «المغارة الصغيرة»،

لكنه كان له جواب سريع كما لو أنه يقع عليك الحديث، بمشاجرة، ويبدأ رجعه قبل أن ينتهي الصوت. كما لو كان يتلجلج. بعده، كانت تأتي أصداء حقل بيكفيج، وهي تعيد رجع الصوت كاملاً، بلطف. ولكن كما لو أنها تفكر في شيء آخر.

ثم يأتي الترجيع الأخير (من على بعد، لأنه يتوارى في لبلابة أسفل حافة الجاريت) متمهلاً يأخذ وقته في التفكير، وهو يردد الدرجات الخافتة، بصوت جميل، مبحوح بعض الشيء، لكنه دائماً ودود، حتى لو كان الصوت الذي يردده صوت سباب.

هذه الاعتبارات الهامة، لم أتلق عليها أي جواب. اللهم إلا النظرة السّارحة لأبي. والابتسامة الماكرة بعض الشيء للعم جول، وغمزات العين الشيطانية لبول التي أفحمتني حتى أنني خرست واضعاً في فمي ملعقة كبيرة من الأرز باللبن.

وتحدث جوزيف

«إنني سعيد، قال، أن أراك بعد مهتماً بالأصداء، وبالتالي بالتلال، وهو ما يؤكد أنك ستعود ثانية للصيد معنا وأنك سوف تعاود السير مع ليلي.

ـ السير على قدمين، قال العم، أمر بالفعل مشرف عن السير على أربع...

ـ «كما أن فتاة في الثانية عشرة من عمرها، قالت أمي بحماس، لديها من النضج والخبث ما لغلام في السادسة عشرة. فإذا كان لابد لك من صحبة نسائية، فليس أمامك إلا أن تلعب مع أختك التي هي بالتأكيد مهذبة مثلك».

ونظرت إلى الأخت الصغيرة، التي صار شعرها الآن كشعر الأولاد؛ والتي لم تكن تفهم شيئاً من المحادثة، لأنها كانت مرهقة من الشمس، الأمر الذي جعلها تحك مقلتيها بظاهر يديها الاثنتين. وسألت نفسي: مهذبة مثلي؟! كيف أمكن لأمي المحترمة أن تنطق بشطط كهذا؟

وضحك بول بوقاحة، مغمضاً عينيه فاتحاً فمه. وشرعت في أن أوقفه، عندما تحدث أبي من جديد بنبرة حازمة:

«سوف تذهب صباح الغد لمساعدة ليلي في جميع الزيتون الأخضر، لأن أمك تريد تجهيز برطمان من الزيتون المنزوع النوى لهذا الشتاء. وستأتي لها بخمسة كيلوات. أما بعد الظهر، فأنصحك بالذهاب لنصب فخاخك في وادي البستاني؛ فقد نبهنا موند دي بارييون ثانية لمقدم الصفاريات.»

ـ هذا أمر هام! قلت. فالصفارية، أو كما يقولون الشحرور الذهبي، جميل!

ـ إن الريح تهب بالضبط من جهة الشمال الشرقي، قال العم جول، وهي نفس الريح التي تجلب لنا طائر البشاروش. ولا يجب تضييع الوقت، لأنه لم يعد أمامنا إلاّ ثمانية أيام...

ـ وإلى أين يتجه طيران هذه الطيور بعد ذلك؟» سألت أمي، كما لو أن هذه الهجرة كانت الأولى من نوعها لتلك الطيور.

وألقى العم جول محاضرة عن سلوك وعادات هذه الطيور، وأضاف أبي بضع معلومات شخصية منتزعة توا من قاموس لاروس. ولكني فهمت أن كل هذه البحوث في عالم الطيور لم يكن لها سبب آخر سوى قطع الطريق على عملية إذلالي وتحجيم حكاية إيزابيل لتصبح مجرد حادث عابر سخيف، وإنهائها تماما.

‹› ‹› ‹›

وعندما راح السافل بول يشخر وهو مسند رأسه على مرفقيه (أثناء ما كان أبي ينهي حديثه في وصف طيور صفاريات المشرومات) أخذته بين ذراعي، وحملته لغرفتنا، ووضعته بسريره وهو مستغرق في النوم؛ ثم خلعت ملابسي بدوري.

مع ذلك، خيل لي أن المحادثة تحت التينة مازالت مستمرة، ففتحت النافذة بهدوء، ورحت أستمع، لكنهم كانوا يتحدثون بصوت خفيض، فلم أتمكن من اصطياد شيء إلا أجزاء من الجمل.

«عقلية جد حقيرة» «إنه من الحماقة أن يقوم رجل....»، «المقطب»، «المهرجة»، «النمسوي».

وفجأة اخترق هذه الغمغمات صوت الخالة روز الواضح.

«لقد رأيتها في القداس مع أبويها. إنها دلوعة، ولكن يبدو عليها المكر والغرور!»

ـ ربما، قال العم جول بصوت طبيعي، ولكن هذا بالطبع ليس مأساة!

ـ «بالطبع! أجاب جوزيف. لكني لا أحبذ أن يقوم ابني بدور القراقوز ليُسلّي ابنة سكير».

وجعلني ذلك، بغير أن أنتظر سماع بقية المحادثة، أغلق النافذة بهدوء، وأندس تحت الغطاء، وأراجع الأمور.

كان الموقف خطيراً جداً، خاصة من وجهة النظر الأخلاقية، وأصابني اليأس من الحالة العدوانية المفاجئة لكل عائلتي، وشعرت أني وحيد كروبنسون. ورغم ذلك لم تكن لدي رغبة الائتناس بأي شخص.

لقد خانني بول وخانني ليلي، لكنهما كانا مدفوعين بالغيرة، أي بسبب

حبهما لي. وهذا أمر يمكن بالطبع غفرانه.

وقد لامني العم جول العزيز، بتساهل عطوف، مشوب للأسف ببعض الاستهزاء.

وحكمت الخالة روز بقسوة وحشية على إيزابيل، لكنها لم تقل شيئاً ضدي.

ولم تكن أمي عادلة، وكانت غاضبة تقريباً، لكن ذلك كان لعاطفة الأمومة. وكنت على يقين من أنها كانت ستضحك من الفرحة والزهو لو أنهم أخبروها أنني أرغمت إيزابيل على أكل العناكب النيئة، أو فطائر الديدان اللماعة.

وأخيراً، أظهر أبي فجأة وجهه القاسي الذي يظهر في الملمات، وأصدر حكمه، مع عدم معرفة بالمرة بأي حقيقة.

لقد كانت المسألة، أن خطأهم جميعاً كان يتلخص في أنهم لم يفهموا قوة هذا الشعور الفريد بالعالم، الذي لم يجربوه بالقطع أبداً بما أنه لم يوجد في هذه الدنيا إلا إيزابيل واحدة، وهم لم يعرفوها! فلم يكن بوسعهم إذن أن يعرفوا أنها لا تشبه أحداً. لأن الخالة روز لم ترها إلا من بعيد، وفي القداس، الذي يمتنع فيه الضحك، أما ليلي، الذي تحدث عنها بفظاظه، فليس سوى فلاح صغير. فلو أنها اختصته بكلمة واحدة فقط، لزحف هو الآخر على أربع وهو يأكل الجراد، وربما الصراصير. ولاستسلم لأن تطليه بالهباب من أعلى رأسه لأخمص قدميه، ولكان يأوي إلى فراشه مبتسما بسبب اطمئنانه لأن شريطها الأخضر ملفوف حول رقبته...

ولم تترك لي نبرة الحديث الأخير لجوزيف أي أمل، فقد قرر ألا أراها ثانية. ولو ذهبت إليها رغما عنه، فسيأتي للبحث عني، ولربما شتم الشاعر، الذي

أطلق عليه أنه سكير! فماذا أفعل؟

بالطبع، كان من واجبي أن أقول لهم إن هذه اللعبة لم تكن إلا سلسلة من «الاختبارات»، وأن هذه المرحلة قد انتهت، وأنني سأكون أميراً من الغد، وأنني سأكون زوجاً للملكة.

ولم تواتني الشجاعة، أمام غارة كل العائلة، للحديث. ولكن ربما تسنح لي فرصة أخرى.

وبإمعان التفكير، وجدت حلاً عظيماً، فسوف أذهب في الغداة، سراً، لأرى إيزابيل. ثم، بعد حفل الزواج، الذي ستنتقل إليّ فيه السلطة، سأصحبها إلى الحصن الجديد، والتاج على رأسي، والصولجان في قبضتي المكسوة بكم المعطف الملكي الجوخ، ويدي في يدها، نتقدم على نحو نبيل عبر أزهار الربيع، فتهدينا العائلة المتأثرة، والمفتونة بنا هدايا العرس، وتتبنى إيزابيل.

في الحلم القصير الذي يسبق النوم، كان كل شيء ممكناً، وسهلاً أيضا.. فنمت في حالة من السعادة الكاملة جعلتني لا أبكي.

<> <> <>

عندما استيقظت، كانت السماء تمطر! ففتحت النافذة، ورأيت سقوط المطر بشكل مستقيم ولكن شفاف. فرفعت رأسي لأنظر إلى أي اتجاه تمر السحب. ولم تكن هناك سوى سحابة واحدة، لا تتحرك، كان طرفها يتمدد على منتصف دائرة التلال. ولم تكن أوراق شجر الزيتون تتحرك إطلاقاً، كما لو أنها مرسومة في لوحة.

قلت بصوت خفيض:

ـ «إن ريح الشمال آتية. فلا يمكن أن يستمر الوضع هكذا. فبعد المطر، يتحسن الجو!».

وبغير أن يفتح عينيه، سألني بول: «هل تحدثني أنا؟»

وأجبته بقسوة: «أنا لا أتحدث مع الجواسيس، أنا أكلم الطبيعة!».

فغمغم وهو يستدير باتجاه الحائط :

ـ لقد أصبحت «مخبولاً».

ولم أتنازل وأرد عليه.

‹› ‹› ‹›

وفي المطبخ ، صبت أمي قدراً من الماء المغلي على الفلتر الموضوع بغلاية القهوة.

وسألت وأنا أغتسل أمام الحنفية النحاسية : «أمازال أبي نائماً؟»

ـ أوه لا ، قالت. لقد خرجا للصيد من الصباح الباكر.

ـ أكانت تمطر عند خروجهما؟

ـ «بالطبع، لكن العم جول قال: إن المطر لن يستمر.»

كان ذلك أمراً مقلقاً، لأنه يطبق على الطقس الريفي خبرته التي حصلها في روسيّون، ويخطئ في معظم الحالات. ومع ذلك فلأن مشاريعي كانت

بحاجة إلى شمس ساطعة ، فقد استحسنت نبوءته ولم أناقشها.

واغتسلت بعناية شديدة؛ اغتسال حفلة عرس.

وسبّب فعلي هذا قلقا لدى أمي، التي نظرت لي فجأة نظرة تشكك:

«هل نسيت ما قاله لك أبوك مساء أمس؟ لقد منعك من الذهاب هناك.»

ـ أعرف، قلت ، أنا ذاهب عند ليلي.

«هذا شيء سيسعد الجميع، وخاصة ليلي، فقد كنت ألاحظ أنه يكاد يبكي كل مساء عندما يأتي لنا بالحليب ولا يجدك».

ولم يؤثر في كلامها أي تأثير. فأولاً لا تجب الرحمة مع الجواسيس. ثانياً بما أنه يلعب مع بول، فهو لم يعد بحاجة لي. وأخيراً، بما أن إيزابيل سيكون لها مكان في حياتنا، فسوف يتعرف عليها قريبا، وستأتي هي للتلال معنا، وسنسعد جميعا معاً في نهاية المطاف.

ورحت آكل ببطء شطائر الزبد، ثم خرجت بملفعتي التي غطيت بها رأسي، وأنا أقفز، وأثب ، لكي أتجنب البرك الصغيرة الرمادية التي راح المطر ينخرها بآلاف الزّخات والفقاقيع.

كنت في غاية الشوق لرؤية المعطف الملكي الذي صنعته لي الطفلة التي أصبحت ملكة أمّاً، وجهزت في رأسي الخطاب القصير الذي سأقوله لكي أطلب منها الإذن لكي تصطحبني الملكة لأقدمها لأبوي.

ووصلت إلى وراء المنزل، وعبرت الزاوية، وكان صمت شديد تمسه بالكاد طقطقات المطر. وتطلعت، فلم أجد أحداً.

وتقدمت بلا صوت، وأنا أتسحب إلى جوار الحائط، لكي أتجنب ماء المزراب، ووصلت بلا صوت، ووصلت حتى ستارة الخرز، فطلعت. كان الباب

مفتوحاً. ولم يكن هناك أحد في البهو الضيق. وسمعت خطىً في الدور الأعلى. وطرقت الباب باستحياء فصاح صوت الطفلة: «من هناك ؟»

ثم فتحت النافذة، ورأتني :

«ادخل ، إيزابيل في الأسفل.»

وخيل لي أن تعبير وجهها، وليس صوتها، جدير بملكة أم تستقبل أميراً منتظراً، ودخلت.وتقدمت على أطراف أصابعي، لكي أفاجئ المحبوبة. ولم تكن هي في الليفجروب التي كانت تعج ببعض الفوضى. فتقدمت بلا صوت في الممر. وكانت الملكة الأم، فوق السقف، تسير بخطى ثقيلة. وهي تفتح وتقفل أبواب الدواليب ذات الصرير.

وبلغت المطبخ، فلم أجد أحداً، أين تكون إيزابيل إذن ؟ أتكون في غرفتها، مشغولة بخياطة المعطف الملكي الذي وعدتني به؟ وعندما عدت أدراجي، عبر الممر المعتم، سمعت فجأة ضجة رعد، وانفتح باب رمادي في الحائط المقوس، وكان باب دورة المياة.

منذ نعومة أظفاري، وأنا لا أطيق الضرورات الحيوانية التي تنتقص من الوضع البشري.

فعندما آكل قطعة من اللحم، أفكر أنني أمضغ شريحة من حيوان ميت منذ عدة أيام، وبأنني أشبع باللعاب اللزج هذه القطعة الصغيرة من إحدى الجثث، ويصيبني وجع بالقلب أن هذا الفعل الكريه ليس إلا مقدمة لمسألة كريهة.

وكانت طقوس القصرية، التي تنظمها خالتي وأمي على شرف ابن العم الصغير يعقبها دائمًا اختبار، ينتج عنه نتائج معروفة، وهي نتائج أحياناً مقلقة، ولكن في أغلب الأحيان مجمِّلة. فكنت أغادر سراً المكان مشمئزا وأنا كاتم أنفاسي.

لذا فعندما رأيت إيزابيل تخرج من هذه الخلوة المقززة، مصحوبة بنعيق طرادة الماء المنظّفة، تحولت إلى غبي، شبه مشلول، وتقلص قلبي بعض الشيء في صدري.

ولم يبد عليها أي انزعاج، وصاحت في التو :

«أنت جئت في عز الكارثة! تعال!»

واتجهت إلى الليفجروب، وتبعتها، وأنا قانط بالفعل، وكانت تتحدث أثناء السير، «أولا ، لقد أصبت بالبرد، كانت حرارتي مرتفعة طوال الليل، والآن، أنا مريضة! ثم إن هذا ليس هو الأمر الخطير، لأني أصبت به من قبل.. لكن الطّامة...»

ودخلت إلى الليفجروب، وقطعت حديثها فجأة لكي تشم الهواء :

«ألا تشم شيئا؟»

وامتلأت أنفي على نحو مفاجئ برائحة كريهة، انتشرت دفعة واحدة في كل رأس وجرت تفتح النافذة ، وقالت :

ـ «إنه ذلك القط الشنيع ثانية، إنه فيلكس! فهو يأتي ليسرق من المطبخ ويعيث فيه فساداً»

أثناء ذلك سألت نفسي ما إذا كان هذا السنوري الغامض هو المسؤول حقاً، وأمسكت هي بجرافة الموقد النحاسية، وانكفأت على مرفقيها لكي تفتش تحت كل قطعة أثاث، وهي تحدثني.

«والطّامة ، التي أريد أن أحدثك عنها..»

للأسف! كنت قد عرفتها. هذه الطامة... فلم تكن الطامة إلا أميرتي، جنيتي، التي أصيبت على نحو أحمق بالإسهال، وراحت نظرة العين البنفسجية

تمسح الأرضية، تحت كنبة عرجاء، على أمل أن تصادف خراء قط..

ولحسن الحظ وجدتُه، ونهضت به، بين فكي الجرافة تحمله فاردة ذراعها به.

كنت في حالة بؤس حقيقية. واقتربت من الطاولة، التي رأيت عليها كراسة مدرسية صغيرة. وقرأت على غلافها :

ليسيه موبخراند

كراسة نصوص

اسم الطالب : إيزابيل كاسينيول ٥ / أ

وكان هذا الاسم مكرراً على كراسات أخرى بجوارها، وتساءلت ما إذا كانت هي هذه الإيزابيل. حين رأيت مظروفاً، مرسلاً إلى السيد أدولف كاسينيول، المصحح بجريدة المرسيلي الصغير، كورنيش القنال. مرسيليا.

ولم أفهم شيئاً.

وعادت وهي تقول :

«الآن ستعرف الطامة. لقد تشاجر أبي مع مدير جريدة المرسيلي الصغير، الذي هو أحمق وغيور، وسيعمل أبي بجريدة أخرى. حيث سيحصل على وضع أفضل، ولكن سيكون عليه أن يظل بالمطبعة إلى آخر الليل! لذا فسوف نعود للمدينة، هذا المساء، وستأتي عربة لتقلّنا حوالي الساعة الرابعة، وهذه هي الكارثة.»

ولو كان هذا النبأ قد زف لي في المساء، لكنت بالقطع غرقت في دموعي، لكني كنت في حالة تشوش هائل، جعلتني أجيب بدوري : «هذه خسارة»

ـ «أهذا كل ما عندك؟»

وفردت ذراعي بطريقة مرهقة، وهززت رأسي عدة مرات. وبدا عليها الغيظ.

«لقد تصورت أنك ستبكي!»

وقلت بصوت منخفض ، فقد كنت أحدث نفسي!

«وأنا أيضا تصورت هذا.»

ـ «حسنا ، أنا. قالت بمرارة، عندما تجيء العربة، سيصيبني الحزن. ومع ذلك، فأنا لي أصدقاء بالمدينة، وسوف أدخل الكونسرفاتوار الذي يعج بالفنانين، ... ورغم كل هذا، فأنا متأكدة من أني لن أستطيع منع نفسي من البكاء. ولابد أنك ستفهم لماذا.»

كانت شاحبة تماماً. وملء عينها التعاسة، ورأيت دوائر حَلَقها الذهبية ممطوطة، وأقراطها السوداء متهدلة، فقد كنت بعد لم أبلغ عمر الرقّة المقدسة ، لذا كنت ببساطة محبطاً.

وبعد صمت، سألتها :

«أهذه كراستك المدرسية؟»

ـ بالطبع ، قالت ، لكني لن أكون بحاجة لها في الكونسرفاتوار.

ـ أنا لابد لي من العودة للعمل، فسوف تنتهي الإجازة قريباً. وهذا الأمر يشغلني عن التفكير في شيء آخر.

ـ «على كل حال، سأعزف لك مقطوعة وداع، وآمل أن يجعلك هذا تبكي!»

وألحت عليّ كثيراً، فأعددت نفسي لأن أبذل جهدا لأدخل في حالة تأثر.

ولكنها حين راحت «تجلس إلى البيانو» فتحت فجأة عينين قلقتين، وقالت: «انتظرني، سأعود.» .

وخرجت تجري.

في الطابق الأعلى، كانت قطع الأثاث تتجرجر بشكل صاخب. كانت السيدة كاسينيول ترتب متاعها قبل الرحيل. واتضح أن لويس دي مونماجور، هو أدولف كاسينيول، الذي اتخذ اسما زائفا كالهاربين من الأشغال الشاقة، عندئذ، لاحظت، على الرخام المكسور للمدفأة، كوبا مشروخاً في قعره سُكّر ناعم له انعكاس لزج. وكانت الساعة العاجية ينقصها عقرب، والمرآة الكبيرة الإيطالية عليها غشاوات صفراء ، ولم يكن مفرش المائدة الثمين سوى خرقة منقطة بنقاط سوداء ، مزينة بشراشيب ممزقة، والملكة كانت تدعى إيزابيل كاسينيول.. .

وشعرت أنني انهرت، ونعقت طرادة الماء من جديد.

وعندئذ، قفزت من النافذة، وهربت تحت المطر.

‹› ‹› ‹›

وهرعت إلى ليلي، وأنا مضطرب.

وعندما وصلت، كان شعاع من الشمس يخترق السحب بعنف، وينزرع فيها كسهم عند قمة الرأس الحمراء، وكانت كتلة الضباب الهائلة قد تمزقت بفعل هذا القضيب الذهبي، وقد تباعدت أطرافها. في مثلث لازوردي يتنامى أمام العين.

ووجدت ليلي على حجر العتبة، ومعه مدقة الغسيل، يطري بها سمكة مقددة لتستخدمها أمه في صلصة الطعام.

ورفع صوبي وجها صارم الملامح، راح شيئاً فشيئاً يضـيء بابتسامة جميلة.

«هل أنت بحاجة لشيء؟ قال لي.»

ـ لا ، فقد جئت لرؤيتك. لأن أبي قال لي إن الصافوريات قد وصلت ..

ـ أعرف ، وقد حصلت على ثلاثة منها هذا الصباح، هناك ، عند زيتونة جوستار ولو أنك غير مشغول، فهذه هي اللحظة التي تنصب فيها الفخاخ تحت التاومي.»

ونظر لي ملياً، وكرّر

– لو لم تكن مشغولاً.

ـ «أنا لست مشغولاً الآن.»

وضرب ثلاث مرات بمدقته سمكة المورة المقددة، فراحت تتفتت،

وسأل : «أهذا بسبب ما قالوه لك مساء أمس؟»

ـ ربما، وعلى كل حال، قررت ألا أذهب ثانية لهناك. وقد أعلنتها بذلك.

ـ ربما تكون قد أعلنتها بذلك، ولكن هذا لن يمنعك من الذهاب إليها.

ـ أوه! لا، أبداً!

ـ وكيف تلقّت هي هذا ؟

ـ «بكت ، وأعتقد أنها سترحل.»

وتباهيت بالكذب، ولكن بغير تأنيب ضمير، فقد قالت لي هي أنها ستبكي عند الرحيل.

«هل سترحل لأنك لن تذهب إليها؟»

ـ ربما . وهذا شيء لا يدهشني.

ـ حسنا فعلت! قال، هل نذهب للفخاخ؟

ـ بعد الظهر، لأن أمي تريد هذا الصباح أن نجمع قفة صغيرة من الزيتون الأخضر لكي تضعه في برطمانات!.

ونهض في وثبة، تاركاً السمكة على حرف النافذة، ووضع يده على كتفي: « إذن هيّا على الفور! كنت أعرف أنها تريد ذلك، وقد تركت عامداً حوالي نصف شجرة زيتون نافورة بيُرو بغير قطف. إنها شجرة عجوز وصغيرة الحجم، لكنها تثمر زيتوناً كبيراً بحجم الجوز!».

<> <> <>

وحملت قطافنا إلى البيت، ونال استحسان الجميع. وتحين أبي الفرصة لكي يعلمنا أن الزيتون، ثمرة مفردة النواة، شأنها شأن الخوخ والبرقوق، وبدا لي هذا التعبير تعساً وجافاً، ولكني أعجبت بكلمة «الزيتوني»، التي تقال على موسم الزيتون.

وأثناء الغذاء، تكتمت على عائلتي نبأ رحيل إيزابيل، وتحدثت بجذل عن مشاريع صيد طيور السمنة. التي خططتها مع ليلي. وعندما عظمت من شأن الطعوم الحية الشقراء التي كان يغذيها بأوراق الحطب المبللة بحرص في الماء الفاتر، مرتين في اليوم، قال لي العم جول:

– إن هذه الطعوم بالطبع طعوم جيدة. وهي تجذب جميع الطيور، لكن طيور السمنة، في هذا الموسم، أوصيك بأن تفعل معها الآتي!»

وأشار بأصبعه إلى صحن من الزيتون الأسود كانت أمي قد اشترته من البقال:

ـ «لابد من الاستفادة من هذا، قال، فزيتوننا مازال أخضر، كالزيتون الذي أتيت به ... وهذا الزيتون ناضج لأنه يأتينا من تونس، أو ربما اليونان، وهو يجذب طيور السمنة النهمة لهذا الحصاد النادر، وسوف تتقاتل بسببه، على الفخاخ.»

وقالت أمي ـ التي كانت مفتونة بعودتي إلى الوضع العقلي السليم ـ في التو :

ـ «إن لدي رطلين، سأعطيك نصفهما.»

ومع ذلك، رحت أفكر في إيزابيل، ومن زهوي كذكر صغير خشيت فجأة أن تأتي ابنة أدولف كاسينيول إلى بيتي لتودعني بدموعها الغزيرة ونهنهاتها أمام كل عائلتي. ولأني كنت أمقت المشاهد المؤثرة. والانفعالات التي لا جدوى منها، قررت الهروب إلى التلال قبل مجيء ليلي.

قلت لهم إنني سأذهب وحدي إلى التاومي، لكي أراقب مسار الطيور، وأتخير أماكن فخاخنا، وكلفت أمي بأن تقول لليلي، عند مجيئه في حدود الساعة الرابعة، أنني سأنتظره في كوخ الفحامين، أسفل نتوء التاومي.

وملأت خرجي بالفخاخ، وبكيس ورقيّ محشو بالزيتون التونسي. وأمام نظر أبي، الذي راح يراقب الاتجاه الذي أسير فيه، أخذت طريق التلال، ورحت أصعد من وقت لآخر على الصخور، لكي أقضي على الشك في نفس جوزيف.

وقطعت الطريق، أفكر في مغامرتي.

وتخيلت ذلك الباب الرمادي، وأقراطها المرتخية، والجرفة الممدودة بجريمة القط التي تدخّن كجذوة النار ... لم تكن إذن جنية، ولا ملكة، ولا نبيلة.

كانت الآنسة كاسينيول، مجرد فتاة صغيرة ككل الأخريات.

لعبت بي لعبة إذلالي بجعلي أركض على أربع. لقد كان بول وليلي على حق في السخرية مني، وفي أن يخجلامن ضعفي. كان صحيحاً أن الشاعر يشرب الأبسنت بلا انقطاع، وأنه سينتهي به الأمر للموت مجنوناً، وهو يصرخ من شدة الألم، كأدولف كاسينيول عادي...

مع ذلك، فقد كنت، محباً مجنوناً، وكانت هذه تجربة هامة، لن أنساها أبدا. وتخيلت إيزابيل تحت تاجها الخشخاشي، وتنورتها القصيرة الزرقاء تنفرد كجناح الفراشة في هواء الأرجوحة. في الواقع، لم يكن الخطأ خطأها في أنها أصيبت ببرد في المعدة.

أما عن دورة المياه. فهذا المكان يذهب إليه الجميع، حتى الآباء. فضلاً عن أننا إن لم نذهب إليه، فسيكون الأمر مقززاً أكثر، وسنموت سريعاً. فالحياة هكذا، ولست أنت الذي ستغير من طبيعتها، وعندما وصلت إلى الهضبة الأولى، هضبة الريدونو، توقفت، وغيرت اتجاهي، ورحت أنتظر تحت ظل عرعرة ... ووجدتني أطل على المنزل ... فتمددت على جنبي مسنداً كوعي لعشب الباووكو، وخدي على يدي، ورحت أنظر من بعيد على الأكاسيا التي شهدت خضوعي لحبي ... كان الهواء ساكناً، والسماء صافية حول الشمس المغبرة ومن وراء سقف إيزابيل، شاهدت جانباً من الطريق الهابط من البراري باتجاه قرية الكرمة. كان أبيض يمتد بين صفين من شجر الزيتون ثم ينحني مختفياً في نهايته عند المنعطف.

وفجأة، ظهرت عربة خارجة من وراء السقف، كانت تلتمع ببريق أسود يجرها حصانان أسودان يَخُبَّان. ولمحت قبعة كبيرة خلف ظهر الحوذي، كانت قبعة الطفلة. وإلى جوار القبعة، إيزابيل التي كانت واقفة، تنظر باتجاه البراري، ويدها الصغيرة ترتفع وتلوح بمنديل أبيض.

وتأكد لي أنها تلوح لي أنا ... فنهضت في وثبة، وبغير أن أفكر نزلت على أحجار المنحدر، وقد سالت دموع غزيرة على وجهي، وكنت أختنق بيأس .. لكن العربة راحت تتباعد بلا توقف، في الخبب السريع للجياد التي تنهب الطريق ... واختفت في المنعطف.

وتقطعت أنفاسي، ورحت أضغط على جذع زيتونة، وبكيت كطفل تائه.

واقتربت خطوات مسرعة على حجر الطريق، كانت خطوات ليلي، الذي جاء مبكرا عن موعدنا. ورآني، وجاء نحوي. ونظر إلى وجهي، وقال لي :

«ماذا دهاك ؟»

وطأطأت رأسي، وغمغمت : «لقد رحلت»

فتقدم مني، ووضع ذراعه حول رقبتي، وعلى كتفي، ولأني كنت مازلت أبكي، كرر برقة : «هيا، لا تكن أحمق ... لا تكن أحمق ... لا تكن أحمق ...»

وكرر لي هذه الموعظة عشر مرات على الأقل، وعندما وجد أنها لم تعزني، قال : «اذهب، اذهب إلى المدينة، سوف تجدها هناك ...»

وتلعثمت : لا أعرف عنوانها.

- هل حدثتها عن مدرستك ؟

- نعم .

- «حسنا، لو أنها تحبك، ستكتب لك. وإذا لم تكن تحبك، فلن يكون هناك داع لكل هذا، هيا بنا، لا تكن أحمق!»

وظللت لعدة دقائق أخرى، منكفئ الرأس، بينما كانت دموعي تسيل عامودية. بعدها، جرني من يدي برقة، واقتادني باتجاه التلال. وكانت ذراعه

تثقل كتفي على طول الطريق.

إن عليّ الاعتراف، مع خجلي، بأن هذا القنوط، الذي كان شديداً، قطعه حادث ذو أهمية كبيرة.

كنا وصلنا إلى الهضبة التي بها كوخ باتيستا، وتقدمني ليلي على طرف الحافة، بطول الطريق الذي كان ينوي نصب فخاخنا به. ولأني كنت طيلة الطريق مطأطئاً رأسي، فلم أكن أرى المشهد، ولكن نظرتي عبرت فجأة على الطرف العمودي، وغطست باستقامة في الوادي. ومن خلال قمم الصنوبرة الصغرى، تحت فجأة، في مكان مخلخل، على الأغصن الجافة، شيئاً طويلاً أصفر وأخضر، مستديراً في غلظ فخذي. وكان هذا الشيء ينزلق متموجاً ببطء. وفتحت حدقتي على اتساعهما حتى أن أثر الدموع التي جفت راح يشد جلد وجنتي. وكان الشيء أطول من قامة رجل، ومع ذلك، لم أر له طرفاً على الناحية اليمنى، لأنه كان قد خرج من دغل كثيف. ولكني تمكنت من أن أميز، على الناحية اليسرى، ومن خلال الأغصان، أذنين طويلتين أفقيتين، على جانبي مثلث أصفر يتحرك على الأرض.

واعتقدت أنني أحلم، وأمسكت بقوة بذراع ليلي.

«انظر. ما هذا؟»

وبعد لحظة همس لي : «ثعبان!»

ـ مستحيل. إن له أذنين !

ـ «ليستا أذنيه. فهو يبتلع الآن أرنباً برياً!»

في هذه اللحظة، تحرك شيء في داخل الدغل، على بعد مترين من الرأس المنبطحة ... ورأينا لونه الأصفر الفاقع ... ولم يكن هذا ثعبانا آخر، وربما كان ذيله!

وتراجع ليلي ثلاث خطوات، في شحوب شديد، وجذبني من ذراعي.

ـ أيتها العذراء! قال. إنه ثعبان «بيتوج».

كان «لبيتوج» هذا شارب ضخم أشقر، وقنزعة من الشعر الملفلف جعلته يستحق اسمه المشهور به، والذي يعني بلغة أهل الريف «الهدهد».

وكان يزرع في التلال كرمة كبيرة من الجاكيز، وهو ذلك العنب الأسمر ذو الحبات الصغيرة الكثيفة والذي يعطي نبيذاً قوياً بشكل نادر. وبيتوج الذي كان يكتفي ببصلة في الصباح، وبضع حبات من الطماطم في الظهيرة، ونصف رغيف مفروك بالثوم، كان يكمل نظامه الغذائي بخمسة أو ستة لترات من هذا العصير، وكان جديراً بسمعته التي اشتهر بها عن استحقاق، فقد كانوا يعتبرونه سكير القرية.

ذات بعد ظهر، شوهد يأتي إلى ميدان القرية، ممتقعاً، مرتعشاً، مترنحاً. وانكفأ على صدفة النافورة وراح يشرب كبغل، وأثار هذا العرض المدهش فضول الجزار، والخباز، والسيد فنسان الذي كان يمر بالطريق.

وبينما هو يرتجف ويتلجلج، قص ما حدث له.

كان قد مر في الصباح بكرمته. وبعد القيلولة تحت الصنوبرة، نزل باتجاه القرية، كالعادة حاملاً بندقيته تحت إبطه، وأمامه كلبه، الذي كان يدعوه «المعذِّب»، ولكنه لم يكن يعد يدري لماذا.

وعند عبوره داخل الإسكاور، وقف المعذب مشلولاً، متصلب الأطراف محطوط الفم، أمام أكمة من الأرجيرا تتوسط بلوطة لها عدة جذوع. واقترب بيتوج بغير ضجة، وعندما صار في مكان جيد للرؤية، رفع بندقيته، وصاح كالعادة :

«عمّر ا عمّر ا»

ولدهشته الكبرى، قفز المعذب في الأكمة، ووثب وثبة عجيبة للخلف، ولكنه لم يتمكن من تفادي هجوم رأس حمراء، انقضت من الأرض، وسحبته داخل الأكمة، في التو، وراحت تهتز في رقصة مرعبة.

واعترف بيتوج بأنه تراجع ثلاثين خطوة للوراء، لكي يكون لديه الوقت الكافي لتعمير بندقيته بالخرطوش. وأثناء هذه العملية، راح يسمع صرخات عذاب المعذب، ثم سمع طقطقة (كصوت تَقَصُّف حزمة من الحطب شديدة الجفاف). وطوح بحجر كبير في الأكمة، فارتفعت الرأس المرعبة في الهواء أعلى عود يترقص، غليظ كسمانة رجل...

– طاخ! طاخ! أطلقت طلقة وراء طلقة. ولكن، يا أصدقائي، لم تحدث فيه الطلقات فعلاً أكبر من فعل رشة من حبيبات الحمص!

فقد فَحَّ، وراح يتأرجح وهو ينظر لي. عندها فهمت أنه يريد إيذائي، فأصابني الرعب، وتركت بندقيتي، واحتميت بحافة الوادي لكي أنجو بنفسي. فهل لنا أن نذهب خمسة أو ستة بالرصاص، حتى نتمكن من النيل منه؟

وذهبوا في اليوم التالي إلى المكان، يسبقهم نصف دستة من الكلاب، ووجدوا بندقية بيتوج. ولكن لا أثر للمعذب ولا للثعبان المتوحش. وكمن باتيستا الثاني (فقد كان بالقرية اثنان يحملان نفس الاسم) في شجرة، على مسافة خمسة وعشرين متراً من دجاجة سوداء كان يربطها بحبل طويل، لكنه لم يلمح ظلاً لثعبان، وأثناء ما كان يلف سيجارة، خطف ثعلب الدجاجة أمام عينيه.

بعد ثمانية أيام استنتجوا أن بيتوج ربما كان قد رأى حية كبيرة غير سامة، وأن المعذب ربما راح يقتفي أثر كلبة ربيعية، وأن باقي القصة ناتج من الخواص المنتجة للهلوسة لنبيذ الجاكيز.

لكن بيتوج لم يشأ أبداً أن ينسى الموضوع فقد جهز نفسه بالرصاص، وراح يقضي طيلة نهاراته في البحث عن الوحش، وفي أيام الأحد، بميدان الكنيسة أو في الحلقة، كان يعيد تسميع حكايته، وتخلى عن لعب الكرات الحديدية، لكي يتمكن من التفرغ لهدفه.

في البداية، كان يقول إن الثعبان بلغ طوله «بسهولة» أربعة أمتار؛ ولكن عندما كان المستمعون الهازئون يتبادلون الغمزات، أو ينفجرون بالضحك صراحة كان بيتوج يضيف إلى طول الثعبان خمسين سنتيمتراً أخرى ليرهبهم.

ثم، كان يشهد السماء بشكل احتفالي، ويطلب من الرب أن يسحقه في مكانه لو أنه كان قد كذب في سنتيمتر واحد. وكان يعقد ذراعيه، ويفتح عينيه، المشعتين بالثقة والتحدي، وينتظر لمدة الثلاثين ثانية. التي يمكن أن يحدث فيها شيء. ولا يسحقه الرب؛ فكان يتجه إلى ناحية أخرى من الساحة منتصراً ممروراً، يبحث عن مستمعين جدد. ولكن خلال خمسة أعوام، لم يستطع العثور مطلقاً على من يتحمل الاستماع إليه، فيما عدا الأطفال، الذين كانوا يطلبون منه .. «قصة الثعبان»، والذين كانوا يضجون بالضحك عند كل كلمة. وأحياناً أيضاً كان يجد بعض المتنزهين يتوقفون، ويقدم «مضحك» المجموعة له نفسه. على أنه المندوب الخاص لمتحف التاريخ الطبيعي، ويطرح عليه، بادعاء الجدية، أسئلة محدودة عن ضخامة رأس الوحش، وعدد أسنانه، ويرجو منه أن يقلد فحيحه فكان بيتوج يفح عندئذ فحة طويلة وسط مرح المشاهدين، وباختصار، تحول الرجل إلى عبيط للقرية، وصارت عائلته تخجل منه.

‹› ‹› ‹›

وهذا هو الوحش يتمدد أمامنا !

وسوف نذهب للشهادة في صالح بيتوج، ونقسم في ميدان القرية، على صليب الخشب، وصليب الحديد، وسيكون بمقدورنا أن نبعث شهيد المزاح، الذي سيحتضننا وهو يبكي.

وعندئذ، سيأتي كل صيادي البلاد ليقتلوا الوحش (كما يحدث في الهند الصينية، عندما يعلن عن وجود «نمر آكل للبشر») وسيكون لنا نحن شرف قيادتهم!

‹› ‹› ‹›

عند مرأى حيوان بهذا الشكل، يتراجع الكثير من الرجال للوراء، وكل النساء العاقلات تهربن، لكن معرفتي بالهنود الحمر، وجرأتهم كأبطال مفضّلين عندي (لا يتراجعون أبداً أمام قطيع من الفيلة المتوحشة، بل يغبطون أنفسهم على العكس لسنوح هذه الفرصة الجميلة لهم) جعلت عندي روحاً بطولية مغلفة بطفولة الغلمان، وباليقين بأن هذا النوع من المغامرات ليس له أن ينتهي إلا بخاتمة سعيدة، على الأقل بالنسبة للشخصيات الجذابة.

ومع أن طول الحيوان الزاحف كان أكثر من ضعف طولي، فقد خطوت باتجاه الحافة. وأراد ليلي، المرتعب، أن يمسكني، لأنه لم يكن قد قرأ كتبي.

«أيها البائس، لو أنه فقط رآك، فسيسيل دمك كالماء!»

ودفعته بغير أن أتكلم، وزحفت حتى الطرف القصي من الجدار الصخري وكان الوحش كما هو في مكانه، ثابتاً، رهيباً.

وفي تثنيات بطيئة تغيرت هيئة رقبته بسلسلة من الانتفاخات المنزلقة كان يتمثل داخلها الأرنب البري، الذي كانت آذانه المستعرضة قد اختصرت للنصف.

ولحق بي ليلي، بدون أدنى ضجة. وأشعرني بحالته بأن قرص ذراعي. وأجبته بحركاتي التي عبرت عن انشداهي وحبي، وأشرت له بأن ينسحب، وتشاورنا بصوت خفيض.

«هل ترى هذا الحجر الضخم على طرف الحافة؟ إنه بالضبط فوق الثعبان، فلو أننا دفعناه، سيسقط!»

- أنت مجنون! قال. فسوف نخطئه بالتأكيد، وبعدها سوف يؤذينا.

- إنه لن يستطيع الصعود إلى هنا والأرنب البري في حلقومه ... تعال!

وزحفت من جديد حتى النقطة التي كنت أراقبه منها. وتبعني ليلي.

وأشرت له بأصبعي إلى ركيزة من الصخر، بدا أنها يمكن أن تسقط بالضبط فوق الرأس البشعة المنبطحة. ودفعناها، بأيدينا الأربعة. ولم تتحرك قط كأنها نصب. عندئذ تمدد ليلي على ظهره، وقلدته. ورحنا نزنق أكتافنا في نتوء بالأرض ونشدد قبضاتنا على شقوقها ونحن ندفع الحجر بأكعابنا الهشة. وكان الحجر أكثر من وزننا، ورفض أن يتزحزح، لكنه ارتفع قليلاً وقد ظهر أسفله شق أسود.

وغمغم ليلي وساقاه متصلبتان، ورقبته منتفخة : «قاوم!»

ثم خدش الأرض بيده اليمنى، وجمع بعض الحصى، الذي قذفه في الشق.

وبينما كنت أتقوس يائساً، كرر فعله هذا عدة مرات. وأخيراً قال :

«اتركها بهدوء»

وعادت الركيزة لتهبط، لكنها لم تتمكن من العودة لوضعها، بسبب الحصى الذي شكل مانعاً تحتها، وظلت مائلة للأمام.

وأعدنا هذه العملية ثلاث مرات، فراحت الركيزة الثقيلة تميل أكثر فأكثر ناحية الوادي. وأخذنا راحة أخيرة.

وهمس ليلي : «دلك سيقانك جيداً، وتنفس بكل قوتك أربع مرات!»

ودلكت ساقي، ثم قمت بالتنفس أربع مرات كما وصف لي.

«اسند ظهرك جيداً، هذه المرة ستسقط. سوف أعد حتى ثلاثة!»

وراح يعد بصوت خفيض.

وبذلت جهداً عنيفاً جعل جسدي كله يرتفع على كعبي وأكتافي، وراح حرف الصخرة يبتعد ببطء، ثم اضطرب للحظة، واختفى.

وسمعت دوياً هائلاً، تبعه قصف أحجار راح يرج الأرض تحت كليتي ... وفتح ليلي عينيه على اتساعهما قلقاً، واقتربنا من الحافة زاحفين.

كنت قد حسبت مسار السقطة خطأً، لكن العناية، التي تسهر غالباً على حماية الأولاد الصغار، صححت خطئي.

كان حجرنا قد سقط على ما يشبه كتلة منفصلة، عبارة عن صخرة منخورة فانهارت بلاطة كبيرة من الجير الأزرق ساقطة من الجدار الصخري على الوحش، ولم نستطع رؤية رأسه، التي دفنت تحت الأنقاض، لكن ذيله راح يصفع العرعر وإكليل الجبل بعنف أصابنا بالرعب والشلل، فهبطنا المنحدر بسرعة كالأرانب البرية التي تهرب أمام الكلاب. حتى الحصن الجديد.

كان أبي والعم جول قد خرجا، حاملين أسلحتهما ليلحقوا بالحمام البري ساعة عودته لأعشاشه بغابة الصنوبر الكبيرة بالرأس الحمراء.

وتوقفوا في منتصف طريقهم، مستغربين من عودتنا ونحن نجري قافزين، وبينما كان نفسي مقطوعاً وأنا أشهق بين كل كلمتين أقولهما (لكي أبدو مهماً) حكيت لهم باختصار حكاية صنيعنا، وجلست ألهث، على حجر.

واستدار العم جول، الشكاك، باتجاه ليلي.

«أو هوه! قال، هل هذا الثعبان طويل بالفعل؟

ـ«يكاد طوله يصل من هنا إلى شجرة الزيتون!» أجاب ليلي، وهو يشير إلى شجرة على بعد عشرة أقدام.

وأضفت بعده : وهو غليظ أيضاً في غلظ فخذي!

ـ أعتقد، قال أبي وهو يضحك، أنكما تبالغان بعض الشيء! فلم نر أبداً بالريف ثعباناً أطول من مترين!

ـ آسف! صاح ليلي. فهذا الثعبان، حكى المسكين بيتوج حكايته خمسين مرة، وكل الناس اعتقدوا أنه يكذب!

ـ ثم إنه، لا جدوى من النقاش، قلت : هيا بنا لتروه، لأنه لابد قد مات الآن!

ـ تقدموا أنتم! قال ليلي. أنا سأبحث عن حبل لنجره.»

‹› ‹› ‹›

كان قد مات بالفعل، وفي تقلصات احتضاره، تمكن من إخراج رأسه نصف المحطمة من تحت الأنقاض، وقد كان بالفعل غليظاً غلظ مدخنة مدفأة،

وعلى جلده الأصفر انتشرت بقع زخرفية خضراء.

ولم نتمكن من تحديد طوله بالضبط، لأن جسمه كان مازال متسللاً في الدغل، لكن ما رأيناه منه كان عجيباً في ذاته.

وكشف الصيادان عن دهشتهما، وتقدما بسلاحهما الجاهز، واستبقتهما في ثلاث وثبات، وأمسكت بالحيوان من ذيله.

«حاول يا ليلي أن تخرج الأرنب من فمه! قلت!»

وبيديه الاثنتين، راح يشد الأذنين اللزجتين من المفترس الذي التهمهما، فتمكن من إخراج ما يشبه أصبع سجق طويل جداً مكسو بالفراء، ورماه في الدغل. فأخذت الحبل، وصنعت عقدة كالمشنقة وضعتها حول رقبة الثعبان خلف فكيه الناتئين.

ورأيت أبي مزهواً بشجاعتي، فقد ابتسم وهو ينظر لي ، قائلاً :

«الأولاد الشجعان! من يمكنه يصدق هذا! مع القول بأن تلك الصغيرة الخرقاء جعلته يركض على أربع! لابد أن يعود لرؤيتها، وأن يجر هذا الثعبان حتى شرفتها!»

وبغير أن يظهر عليَّ أي انفعال، وأنا أشد العقدة، أجبت : لقد رحلت.

ـ أين ؟ سأل العم جول.

ـ للمدينة .

ـ «خسارة!» قال جوزيف.

نعم، كان من الخسارة ألا تتمكن من مشاهدة هذا الانتصار الذي يؤكد لها شجاعة فارسها .. وساعدني ليلي في شد الحبل، وراح الوحش يتمدد بشكل استعراضي وراءنا.

وسار الصيادان اللذان تراجعا عن الذهاب للحمام البري خلفنا، وجررناه حتى المنزل.

كانت بطنه السوداء اللامعة تنزلق بدون مشقة على منحدر الطريق، ونحن نسير بخطوة موقعة. ولكن بسبب زحفه السريع، استبقنا الحيوان، في انزلاقة قوية، مرنة حتى أني اعتقدت أنه سيهاجمنا، فتركنا الحبل وقفزنا إلى جانب الطريق. وعبر الشريط الطويل كالسهم بيننا، لكن حجراً كبيراً أعاق انزلاقه، فانقلب على ظهره وواصل الانزلاق، حتى توقف أمام جذع صنوبرة. وانفجر الصيادان بالضحك، ووجدتني مجبراً على القهقهة بصوت أعلى منهما، فقد شعرت ببرد في ظهري!

وأبهج وصولنا الصغير بول، الذي راح يرقص رقصة السّلْخ حول الجثة لانهائية الطول. وراح فرانسوا، الذي كان قد جاء باللبن للبيت ، يردد :

«عفوك يا بيتوج! عفوك يا بيتوج! ليلي، اذهب بسرعة وابحث عنه! عفوك يا بيتوج!»

وجاء أبي بمازورته، وقاس طول الثعبان، الذي أمسكته له من ذيله، وأمسك العم جول بالحبل من الناحية الأخرى لنفرده على امتداده المهيب.

أثناء ذلك، راحت سيداتنا العزيزات، المطلات من النافذة، تصحن صيحات الرعب والتقزز، وكانت أمي تفرك معصمها لكي تتخلص من زغب الدجاجة التي كانت تنظفها.

«ثلاثة أمتار وعشرون سنتيمتراً! قال أبي.»

ـ «يمكننا تصور أنه ثعبان غير سام قد هرب من السيرك! قال العم جول»

وأحبطتني، مع ذلك، عملية القياس هذه، لأنها وضعت حداً لطول الثعبان في ما سأقصه.

«عفوك يا بيتوج!» ردد فرانسوا.

ورحلنا بالثعبان في موكب إلى القرية.

<> <> <>

بالساحة الصغيرة، على مقربة من النافورة، جاء جمع من الأطفال، ثم جاءت النسوة بعد ذلك، وبعدهم الفلاحون. وأحاطت بي صيحات الدهشة، والرعب، والإعجاب، ولأن ليلي كان قد ذهب يبحث عن بيتوج، الذي كان في كرمته، فقد كنت وحدي إلى جوار الحيوان الزاحف، بمنتصف الحلقة، أجيب على الأسئلة الألف، وأنا أقوم بدور قاتل الثعبان الهادئ الأعصاب.

قالت النسوة :

«أيها الرب الرحيم، يا له من وحش! ـ إن مجرد رؤيته، تجعل الجلد يقشعر! ـ ما أشجع هذا الصبي ـ إنه هو، الوحش الحقيقي!»

وكانت الفتيات تنظرن لي بإعجاب حقيقي، فلم أستطع منع نفسي من أن أنفخ صدري. وكان مجدي عظيماً بشكل جعل الصغير بول ينزلق بين الجمهور ويقف إلى جواري، وهو يمسك بيدي، لكي يكون له نصيب من هذا الشرف...

ووصل موند دي باريبون متحاملاً على ساقيه، وأمسك بالثعبان من رقبته، وفتح فكيه، وعلى الرغم من فظاعة الأسنان التي برزت، راح يتفحص أسنانه من على قرب شديد، بغير أن يبدو عليه أي انزعاج، ثم تكلم.

ولم تكن مفرداته أكثر من مفردات فرانسوا، لكنها كانت كافية للتعبير عن أفكاره ومشاعره. التي جسدها قائلاً :

«أي طفل مبارك ! هذا، إنه طفل جميل مبارك!»

وراح يردد رأيه هذا عشرات مرات، مع بعض ضحكات الرضا. وفجأة، وهو يشير لي بأصبعه، عبر عن إعجابه بي، بهذه الكلمات :

«وهذا أيضاً، إنه طفل مبارك! إنه طفل مبارك ندر أن يوجد مثله!»

عقب ذلك، وصل القس، يتبعه السيد فنسان.

وأبدى السيد فنسان إعجابه، وهنأني بصوت عال، بينما راح القس الذي يحمل ماكينة تصويره مدلاة من كتفه، يتفحص الحيوان في صمت، ولكن بمظهر الخبير. وقال بعد ذلك لجوزيف (الذي كان يبتسم بمودة له) :

«هذا الحيوان ينتمي بالقطع لعائلة الحيات الكبيرة.

ـ«بغير أدنى شك، قال القس، ولكنه أضاف، وهو يرفع سبابته، ولكنه ليس من فصيلة الحيات العملاقة، كما قد تعتقد ...»

وعلى الرغم من استعماله للكلمات اللاتينية، هز جوزيف رأسه بضعف «بالنفي» لكي يقول إنه لا يصدقه.

«ذلك أن الحيات العملاقة، تابع القس، على الرغم من اسمها، ليست عملاقة الطول.»

«إذن، سأل العم جول، ما نوع هذا؟»

ـ «من رأيي، قال القس، إنه يبدو لي من لونه أنه من نوع الفيريديفلافوس، أي الثعبان الأصفر المبرقش بالأخضر ... ولكني أريد الآن تسجيل صورة المتوحش وقاتله.»

وأمسكني من كتفي، واقتادني ناحية رأس الحيوان، ووضع في يدي العصا التي استعارها من موند دي باربيون.

«ضع طرفها في رأس الوحش، ودس بقدمك على رقبته.»

واتخذت الوضع بطريقة مسرحية. وترك بول الصغير يدي؛ ولكن بحسرة شديدة ولم يكن ينتظر إلا إشارة مني لكي يأتي وينزرع إلى جواري، لكن المجد الذي يدغدغ قلوب الرجال، جعلني لا أشير له هذه الإشارة.

وتراجع القس، وهو يضبط آلته وقال : «بيليروفون قاهر التنانين!»

وشعرت بوخزة صغيرة في قلبي ... إيزابيل» .. عزيزتي إيزابيل .. وفكرت في أن أستعلم عن هذا البيليروفون، الذي لا أعرف حتى كيف يكتب اسمه، والذي أشبهه، مع ذلك إلى هذا الحد، بما أن الشاعر قال لي ذلك بالفعل ... ورحت أستعيد العربة، المدهونة التي أقلت حبي باتجاه المدينة المزدحمة .. لكن القس صاح فجأة :

«انظر إليّ!... ابتسم! حسناً. لا تتحرك! واحد! اثنان، ثلاثة! شكراً. وسحب من آلة تصويره مربعاً زجاجياً، وأخرج شبيها له من الحقيبة السوداء ووضعه في مكانه الأول ...

أثناء ذلك، بزغ ليلي، مقطوع الأنفاس، عند مدخل الساحة. وأعلن :

«جاء بيتوج!»

ثم وقف بتواضع وراء السيد فنسان، وهو مطأطئ رأسه، ويداه في جيوبه، وراح يحك بلا ضجة طرف نعله، وصحت:

«من فضلك يا سيدي القس، انتظر لحظة! فلم أكن وحدي حين قتلته. تعال يا ليلي وبغير أن ينظر لي، قال «لا» بهزة من رأسه.

«تعال، قال أبي، أسرع! سنصورك...»

ورد، وهو غارق في الخجل :

«لا داعي لذلك! ثم إنني لن أعرف، لأني لم أتصور من قبل قط!»

وراح الجميع يضحكون، وتدخل العم جول :

«أسرع يا أبله! فما عليك إلا أن تقف ساكناً عندما يقوم السيد القس بالعد!»

وأمسكه من كتفه، ودفعه للأمام.

ووصل ليلي إلى جواري في ثلاث وثبات، وهو متألق من السعادة، وتأبطني ورفع رأسه في زهو.

«انتبهوا!» صاح القس من جديد.

ولم يطق بول الصغير صبراً، وتسلل خلفنا؛ ووضع رأسه فجأة بين جنبينا وابتسم ابتسامة لطيفة ناظراً لآلة التصوير، ولم أجرؤ على دفعه، وقام القس بالتقاط الصورة الثانية، في صمت ورع.

ثم صاح موند : «هذا هو بيتوج!»

ووصل أخيراً، وهو يترنح، يتبعه حشد جديد من الأطفال.

كانت هذه هي المرحلة الثانية من المجد، والتعظيم. ورحت أقص عليه ما فعلناه وأعيد إليه كرامته، وأخزي كل من سخروا منه واتهموه بالكذب، وأصبحت اللحظة مهيبة.

وفي صمت تام، خرست فيه كل القرية، انفرجت دائرة المستطلعين مفسحة الطريق له.

ولكنه لم يجرؤ على الاقتراب من الحيوان الزاحف.

وتوقف على بعد عشر خطوات، ونظر لبرهة، وانفجر بالضحك الساخر، وصاح باحتقار:

«أهذا هو ثعبانكم؟ أيتها الربة العذراء! حسنا، يمكنني أن أقول لكم إن ثعباني، ثعباني أنا، أثخن من هذا مرتين، وأطول منه ثلاث مرات! وله رأس كرأس العجل. إن ثعباني أنا يستطيع أن يبتلع من الحقراء أمثالكم خمسة أو ستة!»

واستدار، وابتعد، وهو يقهقه ويسخر، واستدار ثانية بعد عشر خطوات وصاح:

«إن هذا، بالنسبة لثعباني لا يعدو أن يكون دوبارة!»

وأجاب الجمع، المستنكر، عليه، بالاستهزاء منه، فهدأهم القس.

«كونوا كرماء، قال، لأنني متأكد أن هذا التعس المسكين جاد فيما يقول.»

ـ إن السيد القس على حق، قال جوزيف. فما لا يجب أن ننساه، أنه يشرب خمسة أو ستة لترات من النبيذ في اليوم، وأن ثعبانه قد تغذى طويلاً على بخار الجاكيز. ولذا فقد التهم كل مكامن ذكائه، الذي لم يكن مع ذلك كبيراً، وهذا هو السبب الذي جعله لا يتعرف على الثعبان!

ـ «نعم نعم! قال موند. إن الأمر هكذا بالتأكيد!»

واستدار ناحية فرانسوا، الذي بدا متحيراً.

«هل فهمت؟ إن هذا يعني أن هذا الثعبان ظل في عقله الصغير منذ عشر سنوات ... وشيئاً فشيئاً، تورم به مخه. حتى أكل جذور عينيه، وهذا ما جعله يراه الآن صغيراً جداً»

‹› ‹› ‹›

إنى أعترف بأن هذا الحادث الروائى الملحمى قد احتل كل تفكيرى لمدة يومين . فمسألة مجابهة الخطر ، والوصول من ثم للمجد أرغمتنى على أن أدع جانبا أحزانى ، وآلامى ، وآمالى وابتداء من مساء اليوم التالى وأنا أفكر قبل نومى ، رحت أستدعى ذكرياتى ، لكن صورة الوجه الحى حلت محلها تقريباً الصورة الفوتوغرافية التى وعدنى بها السيد القس ، فقررت أن أبعث بها لإيزابيل ، مع خطاب بتوقيع بيليروفون ، بعد أن أحقق فى القاموس طريقة كتابة هذا الاسم المجيد.

هذا الخطاب سيحتوي على قصة المغامرة المجيدة التي سيجري تحويرها بلباقة، فقد بدا لي أنه يجب ـ وذلك في صالح الجميع ـ ألا أقول شيئاً عن الركام الذي قتل الثعبان.

وفضلت أن يتم فيها قتل الوحش بإطلاق حجر واحد مسنون عليه يجري تصويبه بإحكام، في اللحظة التي راحت رأسه الضخمة تتراقص في الهواء، وهي على أهبة الانقضاض عليّ. ومن ناحية أخرى، لم أجد ربما ضرورة للحديث عن ليلي وإعطائه جزءاً من المجد، الذي لم يكن يهمه كثيراً، والذي استلب منه على هذا النحو.

هذه الرواية هي أيضاً نفس الرواية التي سأقصها على العمات، وأبناء الأعمام، وحتى على رفاق المدرسة الثانوية التي سأدخلها، بما أن الصورة الفوتوغرافية الدامغة تؤمن مصداقيتها.

وبعد أن نسخت من قاموس لاروس الصغير هجاءة الاسم الخطير (بيليروفون) ، بدأت تأليف ملحمتي، وعند عودة العم جول من القداس زف لي نبأ تعساً، فلسحر غير مفهوم، لم تلتقط آلة التصوير الكاثوليكية الصور، ولم تتمكن كل معرفة السيد القس بالكيمياء من إظهار أي صورة على اللوحة المتعوذ عليها... وكانت خالتي وأمي، لسوء الحظ، قد أصرتا على دفن جثة

الثعبان، بحجة أننا مهددون بأن يصحو من جديد بسبب لعنة ثعابينية، ووقفتا موقف المعارضة من فكرة نبش قبره وإخراجه لإلتقاط صور أخرى، بفاصل من الرعب الشديد.

كان إخفاق السيد القس إذن أمراً لا يمكن إصلاحه، فبغير وثيقة مصورة، كان يمكن لأسطورة انتصاري أن تتحول لمزحة، ولبيليروفون أن يصبح بيتوجاً آخر ... لذا فقد نحيت فكرة الخطاب، وأويت لصداقتي العائدة مع ليلي.

كنا في منتصف سبتمبر، شهر البرقوق الأزرق، وثمار اللبلاب، والقطلب الأحمر، والأحجار المذهبة. وأرسلت لنا بشائر جليد الألب طيور السمنة السمينة، التي كان باتيستا يشتريها منا بفرنك للواحدة، لأنه كان يبيعها بفرنكين. مما مكنني أن أشتري مقصاً آخر للخالة روز وأضعه مكان المقص الذي كسرته سراً، لتجده في نفس المكان الذي بحثت عنه فيه عشر مرات، الأمر الذي أقلقها كثيراً، خاصة عندما بدا لها أن حديه المثلمين قد أصبحا جديدين، وأنهما استطالا قليلاً. لكن النتيجة التي استخلصتها لم تلم إلا ذاكرتها الخاصة.

صار لدي أيضاً من المال ما جعلني أشتري من بائع متجول طرحة صغيرة من صوف غنم جبال البيرينيه، أسبغت على أمي سعادة وزهوا بأكثر مما كان يمكن أن يسبغه عليها امتلاك منجم للماس. ويجب القول أنه كلفني سبعة فرنكات، وهو ما يعادل ثمن أربعة عشر كيساً من البلي، في سوق طريق الشارتريين. ولم يحدث في حياتي أن ضحيت من أجل امرأة بنسبة كهذه مما لدي من مال.

كنا نقضي كل نهارنا في التلال، وكان لدينا تسع دزينات من الفخاخ. ولكي نمر عليها مرتين في اليوم كان الأمر يتطلب ست ساعات من المشي، وكنا بالجولة الثانية، المسائية، نمرّ على جميع المرتفعات حتى نصل إلى هضبة مغارة سورن.

كانت الشمس الكبيرة المحمرة تسقط في البعيد على البحر الداكن، وكانت ظلالنا التي تستطيل، والتي تلتصق أقدامها بنعالنا، تنزلق من يميننا على السنديان، وتنشق نصفين عند العبور بجذع صنوبرة، ثم سرعان ما تستطيل عامودياً على جدار صخرة مذهبة. وكانت نسائم المساء الأولى، المحسوسة بالكاد، تهب خفيفاً علينا آتية من أعالي المنحدرات. وفي السماء، سرب أسود من الزرازير يغطس ويصعد، مغيراً من كتلته وهيأته، على طول تعرجات طريقه غير المتوقعة، وكأنه عش نمل حملته الريح، ثم كانت تتناءى إلى أسماعنا، خلال الصمت الذي تفوح فيه رائحة صمغ الصنوبر، بعض النغمات المتباعدة للابتهالات الآتية من ناحية الألاووش تتردد أصداؤها في جنبات المكان. ولم أكن قد نسيت حبي، لكن حزني الذي تلون بلون الفصل، أصبح نوعاً من الندم العاطفي وشجناً ناعماً غلف كل ذكرياتي. وامّحت من ذاكرتي كل التداعيات المخزية كصورة الشاعر الذي كان يزحف على أربع من سكره بالطريق، والصورة المستخلصة الأخيرة لتلف عائلة كاسينيول. فكنت أرى فقط عينين بنفسجيتين خلف ضمّة من أزهار السوسن، وعنقوداً من العنب الأسود يمس الشفتين نصف المنفرجتين، وعلى الأرجوحة السحرية، تلك الرقبة السمراء لفتاة تصوب مقدم صندلها الأبيض باتجاه الأوراق المهتزة لشجرة زيتون...

وكنت أستمع، في أحلامي بالليل، لصوت موسيقى آت من بعيد، وكانت الملكة الصغيرة ذات الرداء الأحمر تتباعد. بشكل لا نهائي، وحيدة وحزينة، تحت الأقواس التي تصفر وهي تتناءى لغابة من الزمن الغابر.

‹› ‹› ‹›

صرت الآن سعيداً بعض الشيء، وأنا أتصور أن الإجازة الحقيقية قد بدأت. وقد فهمت أثناء ذلك معنى الإنذار الذي تحمله قطرات المطر الأولى، ولاحظت معنى أن مصباح العاصفة لا يهتز تحت غصن التينة، الأمر الذي كان يجعلنا نتناول عشاءنا في صالة الطعام، تحت الثريا الحديثة المصنوعة من النحاس المقطع، والتي كانت تسجِّف أنصاف الكرات المصنوعة من الأوبالين بمصابيحها المدلاة المصنوعة من الزجاج الأزرق.

وبينما كنت أثني على براعة العم جول، الذي راح يقطع بأناقة دُرَّاجاً، قال لي أبي بدون تمهيد، كما لو أن ما قاله أكثر الأشياء طبيعية في العالم : «سنبدأ مراجعة الدروس.»

وأعقب بول هذا الحديث بقهقهة ساخرة.

ولأني أظهرت استنكاراً وشعوراً بالمفاجأة، ورحت أبحث بعيني عن نتيجة العام المعلقة، واصل جوزيف الحديث : «أنا أعرف تماماً أنك فقدت الشعور بالوقت، لأنك كنت مشغولاً جداً هذا العام.»

ـ نعم، قال العم ... فقد انشغلت بالصيد، والفخاخ، والطبيعة، والخلطة بالناس

ـ وبخطيبته! صاح بول. طيلة الوقت كان يذهب هناك! ورفض أن يلعب معي!

ـ اخرس أنت! قالت أمي. فبما أن الأمر انتهى. لا يجب الحديث فيه.

ـ ولكني ... صاح بول...

ولم يتمكن من إكمال جملته، لأنها جاءت تشد على رقبته عقدة الفوطة، وأضافت: انته من حسائك، وتكلم بعد ذلك.

ـ على كل حال، واصل جوزيف، إنها فترة من حياتك انتهت، فنحن اليوم في الثامن عشر من سبتمبر، وأنت ستدخل التعليم الثانوي يوم الاثنين ٣ أكتوبر، أي بعد أربعة عشر يوماً.

ـ نعم، قلت ... بالطبع. ولكن خلال أربعة عشر يوماً، يظل هناك وقت للهو!

ـ «اللهو حتى العاشرة صباحاً، قال أبي. لكن من الآن فصاعداً سنكرس باقي اليوم للمراجعة. فلابد أن تكون من بداية العام الدراسي لامعاً في فصلك، لكي تعطي صورة مشرفة لمدارسنا الابتدائية، التي يحقر من شأنها أحياناً مدرّسو الثانوي...»

وراح ينظر بجانب عينه للعم جول، الذي راح يمقق بعينه الزرقاء في دهن درّاجة. محاولاً استخراج زخة الرصاص، الذي كان قد أدخلها في لحم الطير المسكين.

وأوقف العم فجأة بحوثه الجراحية بمديته، مشيراً بطرفها للسقف، وهو يصيح «لا» يا عزيزي جوزيف، لا! لا أحد يحقر التعليم الابتدائي. إنه الشيء الوحيد الذي يستحق الثناء من ثورتكم. لكن صحيح أن البعض يتعرض لهؤلاء الذين يعتقدون أنهم بهذا التعليم قد عرفوا كل شيء، والذين مروا مرور الكرام على المعارف الإنسانية، عندما وصلوا إلى مرحلة الإعدادية. وأنا لا أقول هذا عليك، فأنت على العكس متواضع جداً. ولكن لنعترف أنه يوجد البعض ممن يكثرون من الادعاء.»

واحمرت عينا أمي احمراراً شديداً، وزمت أنفها، وقالت بخشونة :

«هناك المدّعون في كل مكان، وربما حتى في المحافظة!»

ـ أوه! قالت الخالة روز، إنها تعج بهم!

ـ ولكننا نعرف، واصلت أوجستين (التي راحت تتكلم بسرعة)، معلمين بسطاء أصبحوا أساتذة بالمدارس العليا، ومفتشين بالأكاديمية، وحتى أطباء، بل ونواباً!»

وفهم العم جول أنه ورّط نفسه، ولكنه، لحبه الشديد لأخت زوجته الصغيرة أجاب بمظهر المقتنع :

«لديك حق، يا عزيزتي أوجستين، فالوزراء، وقضاة المحاكم العليا، والمحامون الكبار هم معلمون سابقون. ولكني أجيز لنفسي أن أضيف أن هؤلاء هم الناس الذين أكملوا دراساتهم الابتدائية بعدد من سنوات العمل في التعليم العالي والجامعي!»

ـ بالطبع، قال جوزيف، هذا طبيعي!

ـ «فضلاً عن أنني، أضاف العم، أعترف، وأعلن أنه حتى شهادة الابتدائية المحلية لها قيمة تفوق بكثير قيمة السنوات الأولى الثانوية!»

عند ذلك، افتر وجه أمي عن ابتسامة جميلة، في الوقت الذي راح فيه جوزيف يعضد من ذلك الرأي بشكل رسمي وعبر شهاده رسمية :

«لقد سمعت هذا القول من السيد رئيس الجامعة شخصياً، وآمل أن يؤكده مارسيل مرة أخرى هذا العام.»

واستدار ناحيتي، وقال في وقار:

«إن علينا دينا للجمهورية، ابنة الثورة. لقد أعطتك منحة، أي أنها ستعطيك مجاناً تعليماً جيداً، وستدفع لك وجبة الظهيرة، وستعيرك كل عام كل الكتب اللازمة لدراساتك، حتى شهادة البكالوريا الثانية. ولابد أن نثبت لها أننا جديرون بكرم عظيم كهذا، وأن نعمل، بغير أي ندم، لأن نضحي من أجل ذلك ببعض أيام من الإجازة. سنبدأ المراجعة من الغد.

ـ ألا يمكننا تأجيل ذلك يومين؟ سألت أمي.

ـ يا صديقتي العزيزة، قال العم جول بنبرة قاسية، لو أنه في عمر ابني، لكنت دفعته للعمل من صبيحة الخامس عشر من أغسطس.

ونظرت إلى ابن العم بيير، الجالس على مقعده العالي، يدير نعارته الخشبية من وقت لآخر صانعاً ضجة شديدة، ليسمع أباه أنه موجود.

وأثناء ما كانت الخالة، المنزعجة، تحمله إلى مهده، تحدث العم طويلاً عن المدرسة الثانوية التي ظل بها ست سنوات في بيربنيان، وأربع سنوات بمرسيليا نفسها.

وبدأ بأن وصف لنا زنزانة مدرسة مرسيليا الثانوية، التي كانت، كما قال، زنزانة حقيقية، قريبة من المستوى تحت الأرضي، لأنها تتواجد تحت سلم، ولا يصلها سوى ضوء ضعيف. عبر شبكة مربعة من السلك، يأتي لها من ممر طنّان طيلة الوقت، وغير مأهول.

وأمسك بول بيدي، وضغطها بتأثر. واستنكرت أمي، وهي شاحبة، أن يعامل البعض الأطفال «كمجرمين». وطمأنها أبي في التو، عندما راح يحدق في العم جول، ويقول إن هذه المناهج الرجعية التي هي إرث بغيض من الماضي الكنسي، بالقطع قد ألغيت منذ وقت طويل.

وأجاب العم بحمية، بأن هذه المناهج لم تنشأ في عهد الملك هيرودس، وأنه هو بنفسه، قد سجن مرة في هذا السجن؛ وهو ما جعله يحتفظ من هذه التجربة بالذكرى الرهيبة، لمعركة طويلة، في الضوء الخافت، مع فأر مفترس سرق منه خبزه الجاف، والتي بسببها تغلب في الحياة على الشعور بالخوف من مجابهة ثانية مع هذا القارض المسعور.

وانتهى إلى أن يستخلص من هذا الدرس نتيجة عدوانية:

«لقد صار ممكناً إلغاء هذا العقاب، وهذا يفسّر حقارة حَمَلَة البكالوريا في وقتنا، كما تفسر الفوضى التي صرنا تعيشها ـ تدمير الباستيل.»

وكان جوزيف بالتأكيد بصدد أن يكلمه عن القديس بارثولومي، وعن جرائم محاكم التفتيش. عندما صرخت الخالة روز من الألم، فلصدفة نادرة، قرصها دبور، أو ربما قرصها عنكبوت (فلم نعرف أبداً) قرصة وحشية في ساقها، فوثب العم جول إلى المطبخ، ليأتي بزجاجة أمونياك، وراحت أمي تصيح عليه واصفة له شكلها «عليها غلاف أحمر، وهي في الرف الثاني ـ إلى اليمين» ولكنه مع ذلك لم يستطع العثور عليها.

ولم يدهشني ذلك، لم يحدث أن رآها أحد، لا في هذا الموضع، ولا في غيره.

٭ ٭ ٭

فى صباح اليوم التالي، ونحن نسير تحت آخر النجوم، أعلنت النبأ المحزن لليلي، وراح يعزيني، وقال لي إنه من اللطيف كذلك أن نذهب للصيد من الخامسة صباحاً إلى التاسعة. فضلاً عن أنه كان عليه هو أيضاً أن يعمل في جمع «طماطم» الشتاء وأن يقوم بأعمال الحراثة الأولى للخريف...

وعدت في حوالي العاشرة، محملاً بالطرائد، ونشرتها على طاولة غرفة الطعام على أمل الحصول على التصريح بالذهاب لنصب الفخاخ في المساء لكن أبي أزاح بيده طيور السمنة بغير أن يفوه بكلمة، وأملى عليّ درساً طويلاً في الإملاء، كان موضوعه العبثي يدور حول عذابات ملك أبله يدعى أبو عبد

الله.

بعد الظهر، وعقب مهرجان للتحليل المنطقي، وراحة قصيرة، كان عليّ أن أحل مسألة بها ثلاث صنابير تملأ حوضاً من الماء، ثم أحسب الوقت الذي يعانيه سائق دراجة ـ لا أدري لماذا للّحاق براكب جواد توقفت به مطيته ثلاث مرات للشرب، وبعد ذلك، دعي بول لسماع قراءة، قمت بها بصوت عال، عن عذابات الزعيم المتمرد الغالي فيرساتجيتوريكس في الأسر ومع المشنقة بروما ...

أخيراً، وفي حوالي الساعة الخامسة، عاد العم جول من الصيد، حاملاً درَّاجا في كل يد؛ ألقى بهما على طيور السمنة، وراح يلقنني درساً حول «أسماء الوردة باللاتينية». وكان جوزيف يستمع، وينتبه بكل سذاجة.

وسألته : «لماذا تريد أن أتعلم لغة لا تعرفها أنت؟ وفيم يفيدني هذا؟»

وأجاب :

«إذا لم نتعلم سوى الفرنسية، فلن نتقن الفرنسية ذاتها. وسوف تعرف معنى هذا فيما بعد.»

وأذهلتني هذه الإجابة، التي تدينه هو نفسه.

يضاف إلى هذا أن الأسماء الاثني عشر للوردة مثلت بالنسبة لي مفاجأة غريبة وسألت العم جول :

«ما الغرض ، من وجود اثني عشر اسماً لنفس الشيء؟»

ولم يمتنع عن الإجابة على هذا اللغز. لكن تفسيره جاء مرعباً فالكلمات اللاتينية تغير بلا توقف هيئتها تبعاً لتوظيفها، وهو ما يسمح بوضع الكلمة بأي موضع بالكلام!

واستخلصت من ذلك أنني لن أتمكن أبداً من معرفة اللاتينية، ولكن لكي

أحصل على رضاء جوزيف، حفظت كالببغاء الاثني عشر اسماً للوردة.

ولم تستمر هذه الدروس إلا ستة أيام، لأنه كان علينا العودة ـ نهائياً ـ للمدينة، لاستكمال تجهيزات أخرى.

في الليلة الأخيرة، ذهبت لوداع ليلي، الذي لم أكن قد رأيته منذ الصباح.

وفي الصومعة الكبيرة لبيتهم، كان شعاع شمس غروبي قد نفذ إلى المنور، مضيئاً كومة من التراب المذهب.

كان جالساً على كرسي مطبخ، أمام كمية كبيرة من الطماطم الشتوية الصغيرة، تشبه البرقوق الأحمر. كان لكل منها عروة خضراء، راح يشد عليها بطرفي خيط مزدوج، ثم يعقد الخيط، قبل أن يفعل نفس الشيء في الحبة التي تليها. وكان يصنع بهذا الشكل جدائل طويلة حمراء لامعة، يعلقها على العوارض البنية الداخلية للصومعة.

وظللت لحظة، أنظر إليه وهو يعمل في صمت. ثم رفع رأسه بعد ذلك، وقال : «لابد أنك فرح من أعماقك بالعودة للمدينة».

ـ لماذا ؟

ـ لأنك هناك، ربما، تراها.

ـ «أنا لا أملك أولا عنوانها. ثم إنني لن يكون عندي وقت لذلك.»

وراح يشد بعناية مرتين العقدة الأخيرة لجديلة من الجدائل، وقال، بغير أن ينظر لي : «هذا العام، استمتعنا جيداً ولكن كان يمكننا أن نستمتع أكثر. وهذا خسارة على كل حال...»

ولم أجب بشيء على تحسره. فقد كان يريد بالقطع سماعي أتبرأ من إيزابيل، وهو ما رفضته بغير كلام، لكنه فهمني، فغيّر من الموضوع :

«هذه المدرسة الجديدة التي ستلتحق بها، ما شكلها؟»

ووصفت له المدرسة الثانوية ـ التي لا أعرفها ـ كأنها معبد من معابد العلم. وركزت قبل كل شيء على اللاتينية، ثم على الزنزانة التي أعيت العم جول. ونصحني بحماس أن أحتفظ معي دائماً بفخ فئران صغير، ثم نهض، وفتش في كيس، وضع منه في جيبي حفنة من القمح المسموم.

أثناء ذلك، رحت أنظر إلى الجدائل الطويلة للفاكهة الحمراء، وتساءلت ما إذا كان من الأعقل أن أجدل الطماطم طيلة حياتي عن أن أتعلم ـ هباء ـ الأسماء الاثني عشر للوردة.

بالمدينة، أتمت أمي، بفضل ماكينة الحياكة، عمل قميص أسود مدرسي، فصلته تحت ضوء باهر التمع على دكنته، ولم يكن مسموحاً لي بأن أرتديه في الشارع، وإنما فقط داخل المدرسة، التي يقتصر ارتداء هذا الزي عليها داخلها . أما بالنسبة للخارج، فقد حصلت على حلّة بياقة بحرية، لم يكن لها فحسب سروال قصير، وإنما أيضاً ـ بالمصادفة البحتة ـ سروال طويل» . وحصلت أيضاً على (بيريه) تلتمع على شريطه بالذهب، علامة «سيركوف» بحروف ذهبية. ثم اشتروا لي أخفافاً «مخيطة» ذات نعال مسمرة، وذهبنا إلى محل «البستانية الجميلة» واخترنا معطفا من النوع الذي له ظهرية مخيطة به، أعجبني وأنا أرتديه وأنظر إلى نفسي في مرآة ذات ثلاثة أوجه، وهو ما جعلني مزهواً، فقد أسبغ عليّ مظهرا شبيهاً بمظهر الأكاديمي.

كما أنني اكتشفت يومها صورة وجهي الجانبية، التي لم أكن قد رأيتها من قبل، والتي سعدت كثيرا بامتلاكها مجاناً. أثناء ذلك راح بول يسأل البائع عن السبب الذي يجعل [البستانية الجميلة] تصنّع الملابس بدلاً من أن تهتم ببستانها.

وعشية اليوم الكبير، ذهبنا للعشاء، بالمساء، لدى خالتي روز، وأهدتني أولا

مقلمة من الكرتون المدهون، على غطائها صورة نابليون في «سانت هيلين»، وهو واضع يدا على بطنه والأخرى مفرودة الكف يظلل بها جبهته وهو ينظر إلى البحر، وكانت مقلمة جميلة جداً، فبالضغط على زر بها كان الغطاء ينفتح من تلقاء ذاته، وكان بداخلها ثلاثة مقابض ريشات جديدة ، وريشات من كل الأشكال (كانت إحداها على هيئة منقار البطة)، وعدد من الأقلام الملونة، وكذلك ممحاة شديدة النعومة، والدهنيّة، الأمر الذي جعلني أتوق لأن أقضمها في التو.

وأهدى لي العم بدوره علبة بها فرجار كلفته فرنكين وخمسة وتسعين سنتيما (كما هو مكتوب على غلافها) وسنادة للكتابة من الجلد الحقيقي، وست كراسات ذات أغلفة كرتونية مكتوبا عليها اسمي، بخط، جميل، يكاد يشبه الخط المطبوع.

وجعلتني هذه الهدايا أفيض بالسعادة، ومع هذا كنت قلقاً بعض الشيء، بسبب الإعجاب المشوب بالغيرة من جانب بول؛ لكن الخالة روز كانت قد حسبت حساباً لهذا، فعندما رفع فوطته من على المائدة ليأكل، وجد تحتها مطواة ذات أربعة أسلحة، كانت منفرجة، بزوايا مختلفة.، بما يمكن من عدها بسرعة، وكأنها معروضة في واجهة محل التاجر. عندئذ قام وقبل الجميع، وجعلته يزداد سعادة. عندما أعلنت له أنني مستعد للتخلي طوعا عن المقلمة مقابل مطواة جميلة كهذه.

أخيرا، وخلال الطعام، أسمعني أبي وصاياه الأخيرة بإفاضة.

فأكد أولا أنه كما هو متوقع، ألغت الجمهورية عقوبة الحبس للطلاب، عندما أشرفت على تعليمهم فتنفسنا الصعداء، خاصة بول الصغير، الذي كان يرتجف من أجلي. لكن أبي أضاف أنه لا يجب الاعتقاد، مع ذلك، أن المدرسة الثانوية أصبحت بهذا الشكل مكانا للفوضى، وأشار بصفة خاصة إلى «عقوبة

الاحتجاز» التي هي نوع من الحكم بالعمل الشاق، والتي من شأنها أن تكون وصمة على جبين العائلة.

وأثناء تناوله الحلوى، وصف العم جول العقوبة القصوى، وهي المثول أمام مجلس تأديب، وهو الذي تعرض له واحد من رفاقة وخرج منه حياً، ولكن منقوص الكرامة.

وعند عودتنا إلى المنزل ـ وكانت الساعة التاسعة ليلاً ـ وضعت كل أدواتي في غرفتي، فوضعت الملابس على كرسي، والجوارب الجديدة في الأخفاف الجديدة، ووضعت على الخزانة، حقيبتي المدرسية الكبيرة، من الجلد الصناعي، والتي انتفخت بكراريسي، ومقلمتي، وقميصي المطبق بعناية.

باختصار، هذه الانطلاقة الجديدة في الحياة جرى الإعداد لها بقدر من العناية يمثل العناية التي يوضع بها قمر صناعي في مداره، وتكشف لي فيما بعد أنني دخلت، بالفعل، عالما مختلفا.

في السادسة من صباح الاثنين ٣ أكتوبر رنَّ المنبه. فاغتسلت، وادَّهنت، وتنظفت (كدت أخرق أذني أثناء تنظيفها) ثم أكلت عدداً كبيراً من الشطائر بالزبد، ووضعت على كتفي سترتي البحرية. كان بول يرتدي سترة رمادية جديدة، وياقة بيضاء مثنية، توسطتها عقدة جميلة من الحرير الأبيض المطوي. أما جوزيف، فقد بدا لي مختنقاً بعض الشيء بياقته المنشاة (وقد كان هذا حاله دائما بعد الإجازة)، لكنه رغم هذا بدا مظهره جميلاً بحلته الرمادية الفاتحة، التي التمعت على صدرها ربطة عنق اشتراكية من الساتان الأحمر.

وكانت أمي قد أعلمتنا أنها لن تستطيع اصطحابنا، لأن الأخت الصغيرة لم يكن لديها ثوب يتماشى مع المناسبة. وأراحني هذا كثيراً، لأنني خشيت من السخرية حين أدخل المدرسة الثانوية على رأس موكب عائلي، في حالة تشبه الجنازة أو الدفن.

رحلنا إذن نحن الثلاثة، حوالي السابعة والنصف. كنت أسير على يمين جوزيف، في الوقت الذي يمسك فيه بول بيده اليسرى.

كانت حقيبتي المدرسية المنتفخة. تسحب أكتافي للوراء، وتجعلني أبرز صدري للأمام، وكانت نعالي الجديدة تطقطق على الرصيف، الذي مازال بعد مزدحماً بأوعية القمامة الصباحية.

وكان أبي يعلمني في الطريق بأسماء الشوارع، لكي أتمكن من معرفة خط سيري. فقد كان على أمي أن تنتظرني عند خروجي بالمساء، ولكن ابتداء من اليوم التالي، كان عليّ أن أذهب وحدي للمدرسة وأعود وحدي، الأمر الذي أرهبني بعض الشيء.

بعد ربع ساعة من المشي وصلنا إلى أول شارع المكتبة، ونبهني جوزيف إلى أن هذا الشارع يعد شيئاً ملحوظاً لأنه لا توجد به مكتبة من أي نوع، وأن عليّ ألا أعتمد على هذه الأسماء التي على غير مسمى.

كان هذا الشارع يفضي في آخره إلى منحدر مائل نزلناه في خطوات سريعة. أسفل هذا المنحدر، جهة اليمين، أشار أبي إلى مبنى ضخم.

« هذه هي المدرسة الثانوية» ، قال لي.

ورأيت بمنتصف الواجهة الهائلة، تحت أشجار الدلب العجوز المزروعة على طرف الرصيف، جمعًا من الأطفال والشباب، يضعون شنطاً جلدية تحت أذرعهم، أو حقائب مدرسية على ظهورهم، ورأيت باباً ذا ضلفتين، عالياً كأنه بوابة كاتدرائية، مفتوحة فتحة صغيرة. والناس يدخلون فيه ، ويخرجون منه، لكن جموع التلاميذ الذين كانوا متحلّقين يثرثرون على الرصيف، لم يبد عليهم التلهف للارتواء من ينابيع المعرفة بدخول هذا الباب.

هذا الباب، قال أبي هو باب «الخارجية» أي المؤدي للمباني التي بها

الفصول. أما أنت فعليك أن تدخل من باب «الداخلية» الذي يفضي إلى الناحية الأخرى للمبنى.

وعبرنا هذه المجموعات، التي كانت تقهقه بصوت عال، أو تحيي وصول رفيق بالتهليل والهتاف.

وواصلنا نزول المنحدر، وبعد حوالي مائة خطوة، أذهلني أن المبنى مازال ممتدا طيلة هذه المسافة.

وفي اللحظة التي انحرف فيها الطريق جهة اليمين ، رن في أسماعنا صوت جرس من البرونز كان على حافة سقف، يرتفع ارتفاعاً عجيباً ـ على شكل أسقف المنازل الصغيرة ذات السطح المثلث. ورأيت ميناء ساعة كبيرة مستديراً بحجم عجلة العربة.

إنها السابعة والنصف! قال جوزيف.

ـ لقد رنت أربع مرات على الأقل!

ـ ثمانية ضربات من أجل النصف! استطرد. إنّها ساعة مصلصلة. أربع ضربات للربع، وثمانية للنصف، واثنا عشر للثلاثة أرباع، وستة عشر للساعة الكاملة، وبالطبع فهي ترن عند حلول الساعات وبجرس آخر، فهي على سبيل المثال، تدق في الثانية عشرة ظهراً ثمانياً وعشرين مرة!.

ـ «أنا ، قال بول، أعرف جيداً قراءة منبه الغرفة، لكن هذه الساعة، لا أعرف كيف أحسبها!».

ودهشت لهذه الرنة الجديدة، وخيل لي أنه في هذه المدرسة الثانوية كان الوقت نفسه خاضعاً للمراقبة الشديدة.

وسرنا ثانية بضع دقائق. ثم انعطفنا لليمين، لندخل في شارع ضيق.

«شارع المدرسة، قال أبي. هل ستتذكره؟ لابد أن تنزل أولا على طول شارع المتحف، ثم تأخذ بعد ذلك شارع المدرسة...»

وأفضى الشارع بنا إلى ميدان صغير، كان اسمه أيضاً ميدان المدرسة... فكل شيء كان تابعا لها.

وفقدت مدرسة طريق الشارتريين العملاقة في نظري ضخامتها وبدا لي أنها تضاءلت لتصبح في حجم مدرسة داخلية صغيرة.

وبأعلى دَرَج يزيد على خمس عشرة سلمة، كان هناك باب آخر بضلفتين، أصغر قليلاً من الأول تعلوه نافذتان عاليتان ، توحي شبكات الحديد التي تغطيهما بمنظر السجن.

كان هذا الباب مغلقاً، ولكن في أقصى الميدان، كان هناك باب آخر، أصغر، مفتوح على مدخل مربع.

عند هذا الباب، وخلف كشك زجاجي، كان يجلس فراش، أو بالأحرى ضابط حراسة، فقد كان لا يعرف بالطبع من نحن، لأنه نظر من خلال الزجاج حوالي نصف دقيقة، قبل أن يفتح شباكاً صغيراً مربعاً كشباك التذاكر.

ولدهشتي الكبيرة، لم يتعرف عليه أبي، فقد سأله ببساطة أين يتجمع التلاميذ الحاصلون على منحة السنة السادسة «أ».

وأجاب الآخر بلا اكتراث مذهل :

«اعبر الفناء الصغير، ستجد في الممر الأيمن السيد المراقب العام ليوجهك.»
ثم أغلق شباكه، بغير أن يبتسم لنا أي ابتسامة ترحيب،

وضعف أبي على الرغم من ذلك. وقال له «شكراً».

«أهو المدير؟ سأل بول»

ـ «لا ، قال أبي، إنه أحد البوابين.»

وسألت : «لماذا لم تذكر له اسمك» ؟

ـ «لأنه لن يعرفني.»

وأقلقني هذا الجواب. فبواب مدرستي السابقة كان يتحدث مع السيد جوزيف بمودة ملؤها الاحترام؛ وكان يسأل في غالب الأحيان عن صحة أمي ، وقال لأبي ذات مرة: «إنه من الظلم ألا تحصل بعد على جوائز الأكاديمية، يا سيد جوزيف. فأنا أرى أنك تستحقها مثل السيد المدير.» وكان هذا الرجل القبيح، المحبوس في قفصه الزجاجي، يبدو في نفس الحالة التعسة المؤسفة لحيوانات الحديقة.

وبدا لي أن الأمور بدأت بداية سيئة؟ وراح أبي يجر بول، الذي ، أدار رأسه للخلف، ليطمئن على أن الباب لن يغلق وراءه ويفقد بالتالي حريته.

وعبرنا فناءً صغيراً مبلطاً بالأسمنت كأنه رصيف، ودخلنا المبنى من باب منخفض، بدا ضيِّقاً وسميكا كما لو أنه قد فُصِّل في حائط سمكه متر.

وأفضى بنا هذا النفق، إلى ممر عالي السقف كممرات الكنائس.

ووجدنا التلاميذ من كل الأعمال قد تحلقوا على البلاطات السوداء والبيضاء التي امتدت على مدى النظر، وكان الصغار منهم بصحبة رجال وسيدات، يرتدون ملابس غالية، بدا عليهم أنهم أهلهم.

وفي تقاطع ممرين، وجدنا السيد المراقب العام أمام باب مكتبه.

كان رجلاً قصيراً سميناً له ذقن مدببة تحت شارب رمادي تتخلله شعيرات بيضاء وكان يضع عوينات تهتز، مثبتة بجديلة سوداء، وكانت على رأسه طاقية من قطيفة رمادية بنفس لون سترته.

كانت تتحلّق حوله نصف دائرة من الآباء، وكان ينظر على الأوراق التي كانوا يعرضونها عليه، ويوجه التلاميذ، لكنه كان واضحاً أنه ابتداء من هذا المكان الحاسم، لم يكن للآباء حق مواصلة التوغل في المدرسة. فكانوا يقبلون أبناءهم ويودعونهم؛ ورأيت بنفسي ولداً صغيراً أشقر يبكي، ويرفض ترك يد أمّه.

إنه بلا شك ولد سيدخل المدرسة الداخلية، ولن يرى أهله قبل إجازة عيد الميلاد.

وبدت هذه الفكرة لبول شديدة الوحشية مما جعل عينيه تدمعان. أثناء ذلك. قدم أبي أوراقي للمراقب العام. ونظر إليها، . وبغير أدنى تردد، قال : «الباب الثالث لليسار. اعبر قاعة المذاكرة، واترك بها حاجياتك، ثم اذهب وانتظر بفناء الصغار.»

وكان يحدثني أنا بهذا الاحترام!

ولاحظت أن أبي أراد أن يحدثه؛ لكن أوراقاً أخرى فردت أمام عينيه، فراح يواصل توزيع التلاميذ في جميع الاتجاهات، كأنه شخص يوزع أوراق الكوتشينة. « هيا ، قال أبي ، فنحن أيضا لدينا اليوم عودة مدرسية، ولا يجب أن نتأخر.» وقبلني ، وقبلت بول، الذي لم يستطع حبس دموعه.

«لا تبك . قلت له. فأنا لن أحتجز هنا حتى عيد الميلاد، وسأعود في المساء للمنزل.»

ـ وهل ستقص عليّ كل شيء؟

ـ أجل كل شيء.

ـ هل يمكن أن يضعوك بالزنزانة ؟

ـ قال لك أبي إن هذا قد منع، بسبب الثورة...

ـ «هيا! قال جوزيف. لنذهب. إنها الثامنة إلا الربع!».

وجره من يده، وابتعدت أنا...

ووصلت إلى الباب الثالث، واستدرت. ورأيتهما كلاهما، وسط التلاميذ، يقفان أمام نفق الخروج، وينظران نحوي، ثم رفع بول يده، ليحييني تحية الوداع.

لكي أصل إلى فناء الفسحة، كان عليَّ أن أعبر ما أسماه المراقب العام «قاعة المذاكرة». وكانت عبارة عن فصل به ثلاثة صفوف من الأدراج ومكانان يرتفعان صوب منبر قائم على منصة بارتفاع بدا لي غير عادي. وكان يمتد جوار الحائط، بارتفاع رأسي، صف طويل من الدواليب المتوسطة الحجم. وعندما رأيت على الأدراج ألبسة الطلاب وأكياس الكتب المربوطة بأحزمة، نزعت عني حمالات حقيبتي المدرسية، وخلعت سترتي، ولبست حلتي. وبينما أنا أزررها، لمحت على السبورة الكبيرة السوداء، التي كانت معلقة على حائط بالقرب من المنبر، كتابة لا أدري من كتابتها بالأحرف الكبيرة، للكلمة الشهيرة للجنرال كامرون بمعركة واترلو، «خراء». هذه الكلمة المنفردة، بغير نقاط أو فواصل، محت بالقطع ذكرى شهري الإجازة أمام الأدراج الخالية، في صمت ولا اكتراث الأشياء التي أحاطت بها، وداخلني الشعور بأنها ماتت ، ولكني داخلني أيضا الشعور بالخوف فجأة من دخول مراقب لا يرحم، فجريت لأحتمي بفناء الصغار.

وتحت شجرة دلب عجوز صفَّرها الخريف، وجدت ثلاثين تلميذًا.

ولمحت بينهم في التو خمسة أو ستة صينيين (كانوا في الواقع فيتناميين) ، وزنجيًا ، وولداً ذا سحنة داكنة، وشعر أكرت، عرفت فيما بعد أنه كان ابن زعيم جزائري قوي، وكان الباقون تلاميذ عاديين.

كان بعضهم يرتدي ملابس مدينية، جديدة، ولكن كان أغلبهم يرتدي

القمصان السوداء، ذات القماش المائل للزرقة، والمزركش بالخروق، وغير المزرر جيداً بسبب رداءة الازرار.

وكان قميصي مكوياً بعناية، من الأعلى للأسفل بثنيات مشدودة، وهو يلتمع بكل صقله، وكان حذائي الجديد، الذي كان يشد على عرقوبي، يئزُّ في كل خطوة أخطوها : «ويت ، ويت ، ويت، ويت!»

وخشيت ألا يكفي هذا للإعلان عن أنني تلميذ مستجد؛ لكن الغلمان ـ الذين كان عدد كبير منهم يسبقني بعام أو اثنين ـ كانوا مستغرقين في الألعاب التي جذبت كل انتباههم.

كان البعض يلعبون البلي، أو نطة الإنجليز، أو لعبة الحصان الخائر. وفي منتصف الفناء تماماً كان عشرون من المشاركين يلعبون لعبة الفروسية.

كان الكبار ـ ومنهم الزنجي ـ يلعبون دور المطية. فكانوا يصطفون صفين متواجهين على مسافة عشرة أمتار. ثم عند إشارة معينة. كانوا يركضون للأمام صائحين صيحات وحشية ويصهلون كالجياد . وكان الفرسان بأخذون الجياد، في معركة للقفز عليها، ويقاتلون من أجل إيقاع غرمائهم، في الوقت الذي كانت الجياد فيه تقاتل بالضربات الماكرة بالأرجل للإيقاع بهم، وفي كل لحظة كان واحد من المقاتلين ينهار، وكان المنتصر المتوحش يوجه هجومه في التو ضد ضحية أخرى.

وبدت هذه اللعبة لي جميلة للغاية، لكن المدرسين بمدرسة طريق الشارتريين لم يسمحوا بها أبدا. وفتشت بعيني عن المراقب، الذي لم يهتم بفض بعض المنازعات التي جرت بين المشتبكين، ورأيت شابا، يروح ويجيء، ويداه معقودتان خلف ظهره، كان نحيفاً ويضع قبعه كبيرة سوداء من اللباد. وكان يسير متفكرا في كل مرّة يمر فيها على مقربة من المباراة، كان يرمق بعينه المتعاركين، بلا اكتراث كامل، وداخلني شعور بأنه قرر ألايوقف نزهته إلا

في حالة مصرع أحد الطلاب.

واستمر وفود الطلاب الآخرين، كان القدامى منهم، البادي عليهم الارتياح، يدخلون الفناء عدواً، صائحين في بعض الأحيان، ويلقون بأنفسهم في خضم الصراع. ورأيت بسعادة ، بعض القمصان الجديدة، كقميصي، لا تجرؤ على التقدم لأبعد من مكانها، ولا تتحدث مع أحد... وجاء واحد من هؤلاء الجدد، وهو مستمر في مراقبة المصارعة، إلى جواري ؛ وبعد لحظة ، سألني :

«هل أنت جديد ؟»

ـ نعم، وأنت؟

ـ «أنا أيضا جديد.»

«كان قصيراً دقيق الحجم. وشعره الأكرت. ذا سواد لامع، يساعد على إظهار امتقاع وجهه. وكانت عيناه تلمعان كقطعتين من الفحم الحجري، وقد برزت على صدغه ملامح شرايينه الدقيقة الزرقاء.

«من أين جئت أنت ؟»

ـ من المدرسة المحلية بشارع لودي.

ـ «أنا جئت من مدرسة الشارتريين.»

وصرنا أصدقاء في التو.

«في أي فصل أنت؟»

ـ في الفصل السادس ب ١ .

ـ أنا في الفصل السادس أ ٢ .

ـ إذن فلن نكون في نفس الفصل، لكننا سنكون معاً في قاعة المذاكرة السابعة.

ـ ما اسمك ؟

ـ أوليفا.

واختلجت.

«أهو أنت الذي نجح بترتيب الأول في المنحة؟

«نعم . من الذي قال لك؟

ـ لقد كنت أنا الثاني!»

وابتسم ، بسعادة: «هكذا إذن، إنها صدفة سعيدة!»

أنا أيضاً وجدت أن لقاءنا يعود لصدفة عجيبة ولإرادة قدرية. وكان من البديهي مع ذلك أن يلتقي حتماً بالعودة المدرسية، تلميذان نجحا بنفس العام بمنحة السنة السادسة. ولكن حتى هذه اللحظة، لم يكن يمثّل واحدنا للآخر إلا اسم مُنافسه، الذي كان تجسده المفاجئ، أمراً مدهشاً، كظهور عقلة الأصبع، أو الكابتن نيمو بلحمهما وعظمهما. وهذا ما جلعنا ننظر لبعضنا البعض بقلق واستلطاف.

«أنا ، قلت مباشرة، قد أخطأت فقط في مسألة الحساب. بينما وجدت أنت حلها!»

ـ كان عندي حظ ، قال. لقد افترضت ثلاثة حلول، ولم أكن أعرف أيها الصحيح. واخترت واحداً منها بالصدفة، وكان هو الحل.»

وأعجبني هذا الاعتراف. فقد كان هذا الرفيع الرقبة «شخصا ظريفًا». وأسفت على رغبتي في التشهير به على أنه ابن مزور نقود، واعتذرت له ـ بيني

وبين نفسي ـ مرتين.

وفي هذه اللحظة، تقوضت المدرسة على رؤوسنا.

فقفزت قفزة للأمام، ثم عدت للوراء ورأيت رجلاً قصيراً بشوارب كثيفة يدق بوحشية على طبل. كانت الآلة ـ المصنوعة من النحاس والمحاطة بإطارين من الخشب الأزرق ـ تبدو لي ضخمة جداً ورحت أسأل نفسي لماذا يقدم لنا هذا الحاذق مثل ذلك الفاصل الراعد، حين دفعتني أمامها موجة المتزاحمين باتجاه باب القاعة، واصطف الجميع في طابورين، أمام الطبلة ، التي ظلت تدق حتى كادت تفلق رأسي، وراحت الساعة تدق كأنها أجراس عدة كنائس تدق في وقت واحد.

وانتهى أخيراً فاصل الموسيقى، واستدار ذو الشوارب عائداً، متراجعاً عبر القاعة. وظهر وراءه سيد مهذب جداً، كان واقفاً، ساكنا كتمثال. وكان طويلاً جداً، يضع على كتفيه معطفاً غالياً لونه بني فاتح؛ يرفع رأسه عالياً، وعيناه السوداوان تلمعان كالزجاج، وتقدم خطوة باتجاهنا، وهو يتوكأ على عصا سوداء ذات طرف من الكاوتشوك، ثم قال بصوت آمر، نحاسي، رنان :

ـ الممنوحون منحة الإقامة الداخلية بالصف الخامس، والسادس إلى قاعة المذاكرة المجاورة، القاعة الثامنة. قلت «الطلاب الممنوحون منح الإقامة الداخلية» وحدث هرج في الطابور الذي انفرط، لكي يفسح الطريق لهؤلاء السجناء.

وانتظر السيد حتى انتظمت الصفوف، ثم ، وبصوت وقور ، قال :

«الطلاب الممنوحون نصف إقامة من الصف السادس والخامس أ و ب ! ادخلوا.»

ودخلنا.

وعلى مقربة من الباب المفتوح، حدثت هجمة عامة، للحصول على أماكن

متميزة ، ولاحظت وأنا مندهش أن هذه الأماكن هي التي تبعد عن المنبر.

وعندما رحت أجلس على الدرج الذي تركت عليه حقيبتي، دفعني المنقضّون إلى الصف الأول، وتمسكت في اللحظة الأخيرة بحقيبتي الثمينة، واندفع أوليفا للأمام تحت ضغط الكبار من الصف الخامس، ثم سقط على دكة بالناحية الأخرى من القاعة. وكانت هناك احتجاجات بصوت عال، وأيْمانُ مغلظة، وصيحات.

وكان معلمنا ، الثابت، كالصخرة في منتصف بحر هائج، ينظر لما يجري، وأخيراً صاح بجملة صرت أسمعها كل يوم، لمدة عامين.

«ما أبطأكم أيها السادة ، ما أبطأكم!»

كان صوته نوعاً من الجعير المحزون ، ومن النواح المهدّد المشوب بالدهشة والأسى. ثم صمت لمدة دقيقة، وبدأت الجلبة تتضاءل شيئاً فشيئا.

«سكوت!»

وحل الصمت.

كان التدافع قد حملني إلى أمام المنبر مباشرة ووجدتني جالساً إلى جوار غلام أسمر جدا ممتلىء الخدين، بدا مروّعا من أنه تم دفعه إلى هذا المكان.

وصعد السيد ببطء باتجاه السبورة السوداء، وهو يجر بعض الشيء ساقه اليمنى. ثم نظر ملياً للجميع، ثم ابتسم نصف ابتسامة، وقال بنبرة قاطعة!

«السادة التلاميذ الذين يتطلب أمرهم مراقبة دائمة هم بالطبع لديهم نزوع لأن يكونوا لصوصاً. ولأني لا أعرف بعد أحداً منكم. تركت لكم حرية اختيار أماكنكم، لذا فأصحاب النوايا السيئة الذين بذلوا قصارى جهدهم العبثي لكي يجلسوا بعيداً عن المنصّة، عليهم أن يخجلوا من أنفسهم. تلاميذ الصف الأخير.

قيام! ونهضوا مندهشين.

«اجمعوا حاجياتكم وبدِّلوا أماكنكم مع الجالسين في الصف الأول.»

ورأيت السعادة تطل على وجه جاري، على حين تقدم الذين تخلُّوا عن أماكنهم واجمين.

وذهبنا وجلسنا بالأدراج الأخيرة، في الركن الأيمن، ننظر إلى المنصة.

«الآن، قال أستاذنا، على كل واحد منكم أن يأخذ لنفسه الدرج الأقرب إلى مكانه.»

وقام الجميع ، وعاد الهرج. وأخرج الكثيرون من التلاميذ من جيوبهم أقفالا، لكي يضمنوا عدم اغتصاب هذه الخزائن القوية المدرسية.

ولم يكن أحد من عائلتي قد حسب حسابه لأن يأتي لي بقفل، ولكني تذكرت أن أبي كان لديه واحد، هو قفل الحارس، الذي حمله إلينا بوزيج! وقررت أن أطلبه من جوزيف في المساء. وكان هذا القفل معلقاً بالمطبخ. مع مفتاحه، لم يلمسه أحد أبداً، وكان يداخلني الشعور بأنه يثير الرعب– ما يزال– في نفوس الجميع، وكنت متأكداً من أن أبي سيعطيه لي طواعية.

وعاد أستاذنا للنواح فجأة : «ما أبطأكم، أيها السادة، ما أبطأكم!»

وانتظر دقيقة تقريباً، ثم صاح بلهجة آمرة كضابط :

«اجلسوا في أماكنكم!»

وفي صمت هائل، صعد المنبر، واعتلاه، واعتقدت أنه سيبدأ التدريس، ولكني كنت مخطئاً.

«أيها السادة ، قال، لسوف نقضي معا عاماً مدرسياً بأكمله وآمل أن تعفوني من مشقة أن أضع لكم الأصفار في السلوك والمظهر، وفي الواجبات. أنتم لم

تعودوا بعد أطفالاً، بما أنكم في الصف الخامس والسادس. لذا ، فعليكم أن تفهموا ضرورة العمل، والنظام، والانضباط والآن، لكي تبدأوا عامكم الدراسي، سأوزع عليكم نظام الحصص الذي ستعملون وفقه.»

وحمل من ركن المنبر رزمة من الورق، وراح يمر بين الصفوف في القاعة، معطيا لكل واحد جدوله.

عرفت بهذا الشكل أن يومنا كان يبدأ في الثامنة إلا الربع، بمذاكرة لمدة ربع ساعة، تعقبها حصتان كل منها ساعة، وفي العاشرة ، بعد ربع ساعة من الفسحة، حصة أخرى لمدة ساعة ، وثلاثة أرباع ساعة للمذاكرة قبل النزول إلى قاعة الطعام بالدور الأرضي الأسفل للمدرسة الداخلية.

وبعد وجبة الغداء فسحة لمدة ساعة كاملة، يعقبها نصف ساعة من المذاكرة، تليها ـ مباشرة ـ حصة لمدة ساعتين.

وفي الرابعة، فسحة ثانية، ثم من الخامسة إلى السابعة، فترة المذاكرة المسائية الطويلة الساكنة.

كان علينا بالمدرسة الثانوية إحدى عشرة ساعة في اليوم، فيما عدا الخميس، الذي كان علينا قضاء صباحه بفترة مذاكرة لمدة أربع ساعات. وكان هذا هو نظام العمل ستين ساعة أسبوعيا، الذي كان يمكن أن يطول عن ذلك بمراجعة الواجبات لمدة نصف يوم أيام الخميس، أو ليوم كامل أيام الأحد.

وأثناء ما رحت أفكر. سمعت وشوشة تقول : «في أي فصل أنت؟»

ولم أفهم في بادئ الأمر أن جاري هو المتحدث معي لأنه ظل ساكناً تماماً مثبتا نظره على جدول الحصص.

ولكني لاحظت جانب فمه، يهتز بشكل محسوس، وكرر السؤال. وأعجبت بطريقته، وحاولت تقليده، وأنا أجيب عليه :

«الفصل السادس أ ٢»

ـ حسناً! قال. أنا أيضاً .. هل أنت محول من المدرسة الثانوية الصغيرة؟

ـ لا ، لقد كنت بمدرسة طريق الشارتريين.

ـ أنا، كنت بالمدرسة الثانوية في العام الماضى ، وبسبب اللاتينية، أعيد السنة.

ولم أفهم معنى ذلك، واعتقدت أنه أراد أن يقول إنه ينوي مضاعفة جهوده. واستطرد :

«هل أنت تلميذ شاطر؟

ـ لا أعرف. على كل حال، كان ترتيبي الثاني في المنحة.

ـ أوه ! قال بفرح. حسناً ! أنا ، بليد تماماً. سوف تجعلني أنقل من كراستك.

ـ تنقل ماذا ؟

ـ الواجبات . عجبا! ولكي لا يكشف أحد ذلك، سأضيف على ما أنقله منك بضعة أخطاء، ثم..

وأصابني الذهول، فالنقل من الجار، كان عملاً مخزياً. وقد قال إنه يريد أن يفعل ذلك، ليس فقط في حالة الاحتياج الشديد، وإنما بشكل يومي! لو أن جوزيف أو العم جول سمع بهذا، لمنعاني بالقطع من مخالطته، ومن ناحية أخرى، فإنه من الخطر « أن ننقل من الجار» فعندما يتشابه واجبان مدرسيان لدى تلميذين، فإن الأستاذ لا يستطيع معرفة أي من الاثنين هو الغشاش، ويعاقب الكريم منهما في غالب الأحيان معاقبة الغشاش.

ووطدت العزم على أن أشرح مخاوفي لجاري الوقح، أثناء الفسحة، وأعددت ما أقوله، في الوقت الذي علا فيه رعد الطبل لدهشتي ، في الممر، وقامت كل

القاعة. وذهبنا لنقف طابوراً أمام الباب، وانفتح من تلقاء نفسه، وظهر وراءه مراقب الفسحة، وقال ببساطة : «هيا!»

وتبعناه.

«أين نذهب ؟» سألت جاري.

ـ «للفصل ، سنذهب إلى المدرسة الخارجية.»

‹› ‹› ‹›

سرنا بطريقة احتفالية عبر ممر تغمره بالضوء نوافذ كبيرة، يعلوها سقف مبني على شكل عقد روماني، يرن تحته الصوت كما لو أنه سقف كاتدرائية.

كانت الآلة المصاحبة هي الطبلة، التي تدق موقّعة خطى السائرين، وكان قرعها يرن بالممر كعاصفة مدوية، منتشراً من السقف إلى الأرض، قافزاً بالأصداء الجانبية، ومتباعداً بعجلة وهو يحتك بالحوائط الأثرية وزجاج النوافذ الذي يهتز.

ووصلنا إلى قاعدة سلم، فقد كانت المدرسة مبنية على أرض منحدرة، الأمر الذي كان من شأنه أن تكون أفنية الفسحة، والمدرسة الخارجية والفصول متواجدة على ارتفاع أعلى مما كنا به.

وأشار لي جاري إلى باب أسود، تحت السلم، به فتحة مطوقة بشبكة حديدية، كان هو باب الزنزانة، وحييت في عبوري عليها ذكرى نزيلها العم جول، الذي رقص في الليل بها مع فأر.

وأفضى بنا السلم إلى رواق ذي أعمدة مربعة، يحيط الفناء الكبير للمدرسة الخارجية من ثلاث جهات، وكانت جهة الضلع الرابع للفناء مسدودة بحائط عال رمادي، به اثنا عشر غرفة مكتب اصطفت أبوابها الصغيرة بشكل هندسي صارم.

واختلط طابورنا في التو بجمهور غفير من التلاميذ يضج بهم الرواق. كانوا جميعهم تقريباً يكبروننا سناً. وكان منهم أيضا من اخضر شاربه، فحسبتهم أساتذة وأدهشني عددهم الكبير، وصحح لي رفيقي خطئي :

ـ هؤلاء ، قال لي، هم طلاب «الفلسفة» وأيضا «الرياضيات» .

كانت الإجابة غامضة، بحاجة لشرح، ولكني كنت مشغولاً جداً، في العجيج العام، بما جعلني أحرص على الاستمساك بدليلي؛ الذي شق بجسارة طريقاً وسط الجمع، وهو يحيي في طريقه الأولاد من سننا.

وتباطأ بعد ذلك تقدمنا، كانت دائرة من الكبار تنزرع كجزيرة وسط الرواق، لتفصل نهر التلاميذ العابر شقين، وكانوا يتحدثون مع بعضهم، بمظهر غير مكترث بالمرة بالفوضى التي صنعوها، وكان يبدو عليهم الرضا الكامل بأنهم يثبتون على هذا النحو أهميتهم، واحد منهم كان يمسك بيديه الاثنتين، خلف حقويه، بكراسات مغلفة بالكرتون، وكتاب ضخم فأسقطها صديقي منه في طريقة بحركة رشيقة من يده، وواصل سيره بغير أن ينظر وراءه. لحسن الحظ، جاء غلام في الخامسة عشرة من عمره، ذو شعر بلون الجزر، وعبر بيننا، وهو الذي نال ركلة مما جعل الضربه تدفعه للأمام. ومررت من حول الكبير الذي راح يلم كتبه، وكانت علامة الركلة على مؤخرة المسرع أمامي، وهو ينظر خلفه وينظر نظرة ملؤها الغضب والحنق، وهو يسب ويلعن.

وتمكّنت من اللحاق بدليلي، الذي كان قد توقف على بعد، وظهره للحائط، يستمع كالخبير، إلى الاتهامات المستنكرة والنصائح الشائنة الذي راح

يصيح بها البريء المغتاظ. وكنت مذهولاً من ثراء لغة طلاب الثانوية، حين غطى صوت الطبل بوحشية على هذه الغنائية الانتقامية. ثم عدنا لنغرق ثانية في الازدحام، وقطرني، قائدي، عبر الدوامات، وعبر المسرعين بشكل مضاد لاتجاهنا، باتجاه مكان عملنا.

كانت قاعة كبيرة جداً حائطها الداخلي به أربع نوافذ تُرى من خلالها أوراق أشجار الدلب التي بالمدرسة الداخلية. وإلى اليسار. كانت دكك مدرسية طويلة بكل منها سبعة أو ثمانية أماكن، مصفوفة على الأرض، وقد اصطف أمامها ابتداء من الباب، موقد، وسبورة كبيرة سوداء فوق منصة تعلو وترتفع قليلا، عليها منبر وفي هذا المنبر أستاذ.

كان رجلاً من وزن ثقيل. له أكتاف غليظة، ووجه سمين أحمر، تتطاول منه ذقن بيضاء، شديدة التموج. يرتدي سترة سوداء. على عروتها شريط بنفسجي يلتمع. وكان هذا وسام الأكاديمية! أمل أبي وحلمه. الذي يفكر في الحصول عليه يوم إحالته للتقاعد. وكان هو نفسه الشريط الذي صنع مجد السيد مدير مدرسة طريق الشارترين. وأصابني الزهو، ولكني كنت قلقاً بعض الشيء، من أن يكون لي مدرس يرتدي وشاح مدير.

واستبقنا عدد من التلاميذ، وأدهشني أني رأيتهم يتنازعون في صمت على مقاعد الصف الأول.

«إنهم الطلاب الخارجيون، قال صديقي، ولابد لنا من الحصول على أماكن نستطيع أن نتمكن فيها من الرؤية. تعال بسرعة!»

وجرني نحو مقعدين مازالا خاليين، بأقصى الدكة ما قبل الأخيرة، أمام نافذة أخرى تطل على الرواق.

وجلسنا بتواضع وخضوع. وكان بالدكة الأخيرة وراءنا، تلميذان

لانعرفهما، بدوا لي كبيرين في السن على الفصل السادس. وحييا صديقي بغمزات الأعين والابتسامات الماكرة.

«وأنت أيضاً ؟ سأل أكبرهما بصوت خفيف.»

ــ نعم بسبب اللاتينية.

وخاطبني ثانية بزاوية شفتيه: «وهم أيضا ، يعيدون.»

ــ وما معنى هذا؟

وبدا عليه الذهول، إذ كان متشككاً بعض الشيء. ثم قال بنبرة استرحام :

«معناه أننا سنعيد السنة السادسة، لأنهم لا يريدوننا في الفصل الخامس!» وأصابني الأسف لمعرفتي بأن صديقي بليد، ولكني لم أندهش لذلك، بما أنني عرفت منه أنه ينوي أن ينسخ فروضي المدرسية.

وبينما رحت أعد كراساتي وأقلامي، نظرت إلى أستاذ اللاتينية، الذي راح يتفحص تلاميذه في سكينة كاملة، وسألت ، بصوت خفيض:

«هل تعرف هذا الأستاذ؟»

ــ «لا ، قال ، ففي العام السابق كنت في الفصل أ، مع برجريه. لكني أعرف أن هذا الأستاذ يدعى سقراط.»

ولم نتمكن من استكمال المحادثة، لأن السيد سقراط كان ينظر نحونا. لكن هذا الاسم حيرني، فأنا أعرف أنه يوجد أحد بهذا الاسم، وهو شاعر إغريقي، كان يتنزه تحت أشجار الدلب مع أصدقائه، وانتهى بأن انتحر بشرب سم الشوكران (الذي كنت أنطق اسمه «سوكران»).

ترى هل انتحر لأنه كان من عائلة هذا الجالس أمامي والذي منحوه وسام الأكاديمية؟

كان الصمت عاماً، لأن أحداً لم يكن يعرفه؛ وفي هذا اليوم الأول، كنا جميعنا تقريباً حائرين ووحيدين، فلم يكن الفصل بعد قد تكون.

وبدأ السيد سقراط درسه بأن أملانا قائمة الكتب اللازمة لنا، وملأت هذه القائمة صفحة كاملة، وكانت هذه المجموعة من الكتب تكلف الكثير، ولكني لم أقلق على جيب جوزيف، لأنني بفضل المنحة التي حصلت عليها كان على المدرسة الثانوية أن تزودني بهذه الكتب مجاناً.

عند انتهائنا من كتابة القائمة، ذهب السيد سقراط إلى السبورة ، وكتب عليها بخط جميل تصريفات «اسم الوردة» وهو يقول لنا أن هذا سيكون درسنا في الغد.

وبينما كان يكتب كلمة «مفعول به» سألني جاري الوقح :

«ما اسمك؟»

وأريته اسمي على غلاف كراستي.

ونظر إليه برهة، غامزاً بعينه ، وقال لي : «إسباني؟»

وصدر عنه ثغاء مرتعش ولم يتمكن من التحكم في انخفاض صوته، فتجاوز الصوت حاجز الهمس، وسمعه كل الفصل، واستدار سقراط دفعة واحدة، في همهمة من الضحك المكتوم، وتعرف على المتسبب فيه:

«أنت ، هناك ، ما اسمك؟»

ونهض جاري، وقال بصوت جهير :

«لانيو» (وهو اسم قريب الشبه في نطقه من اسم الخروف: المترجم)

وصدرت عدة قهقهات مكتومة. لكن السيد سقراط قهرها بنظرة واحدة، وقال بصوت حازم : ماذا ؟

ـ «لانيو ، كرر جاري، جاك لانيو.»

نظر إليه السيد سقراط برهة ، ثم قال بنبرة هازلة :

«وهل لأن اسمك لانيو تظل تثغو بالفصل؟»

وانفجر التلاميذ هذه المرة بالضحك. بملء أشداقهم.

ولم يبد على السيد سقراط الغضب من الضحك الذي حيا تساؤله، وابتسم هو أيضاً حين نهض لانيو (الذي لم يفهم أن بعض الأسئلة من الضروري أن تظل بلا إجابة) . وعقد ذراعيه على صدره، وقال صائحاً!

«نعم ، يا سيدي»

كان يتحدث بجدية شديدة، فقد كان من الواضح أنه يقصد بذلك أن يقول إن اسمه «لانيو» وإنه ثغا بصوت عال.

وعلت ضحكات الفصل ثانية، ولكن سقراط لم يلاحظ الأثر الهزلي الذي لم يحث عليه بالطبع، واعتبر هذا التصرف وقاحة منهم. وهو مادعاه لأن يسدد نظرة قاسية للضاحكين، ثم تحول إلى لانيو، وقال :

«ياسيد ، أنا لا أريد أن أكدِّر هذه الحصة الأولى للغة اللاتينية بأن أوقع عليك العقاب الذي تستحقه لسفاهتك. لكني أحذرك، فلن أتساهل ثانية، عند ارتكابك حماقة ثانية، وبدلاً من أن أدعك تلهو في مرج إجازة الخميس، سأحبسك يا لانيو في مرعى المدرسة الداخلية، تحت تهديد عصا راعي المحتجزين! اجلس.»

ولاقت هذه اللغة الاستعارية الجميلة نجاحاً كبيراً، وردت الروح المعنوية للانيو الذي راح يضحك مع الجمع في سره، ولم يستطع سقراط، السعيد بنفسه وبجمهوره أن يمنع نفسه من أن يبتسم ابتسامه عريضة، وهو يمد لحيته

الجميلة، وهدأ أخيراً من الضحكات المتملقة، وقال :

«إن هذا الحادث الصغير ، ينبهني إلى ضرورة التعرف عليكم بالاسم.»

وصعد إلى منبره، وفتح كراسة، طلب منا أن يرد كل منا عن سماع اسمه بكلمة «موجود» وهو يرفع يده.

وبهذه الدعابة اللطيفة التي داعبنا بها، والتي كانت على طريقة تحسس العدو، جرب الفصل أسلوباً للوقاحة جديداً جداً عليّ، به من العبث قدر أخافني بقدر ما أسعدني.

ونادى سقراط أولا على «ألبان» ، كان أشقر وأجاب «موجود» بصوت ضعيف، وممطوط.

كان التالي «أرنو» الذي أجاب بصوت أكثر وقاراً ، على حين أجاب «أوبير» بصوت حاد.

في هذه اللحظة دفعني لانيو بكوعه، وغمز لي بعينه، وفهمت بأن شيئاً سيحدث، وبالفعل أجاب باربيبه بصوت قرار ممطوط، بينما راح «بيردلوديبيه» (وهو غلام أحمر) يصفر كلمة «موجود» بصوت فتاة صغيرة.

إنهم يغنون له، همس لانيو.

وفكرت في أن مثل هذه الوقاحة الجماعية لم يحدث أن أحداً تسامح معها من مدرسي مدرسة طريق الشارتريين. وأن السيد بيسون على سبيل المثال، كان بمقدوره أن يضع نهاية لمثل هذه الأشياء بمجرد نظرة واحدة.

لكن سقراط واصل النداء على الأسماء، بغير أدنى إشارة تدل على نفاذ صبره، مما جعل جرأة المنشدين تتصاعد، وأصبحت الإجابة ناشزة أكثر فأكثر، بغير أن يبدو عليه أنه لاحظ شيئاً؛ وكانت هذه اللعبة لطيفة، واستجمعت

شجاعتي لأقوم بدوري أنا الآخر، حين جاء دور جايانو، وكان واحداً من البلداء الراسبين الجالسين ورائي، فلكي يحافظ على سمعته بالطبع وعلى مقامه، أجاب بصوت أجش للغاية، ولكن بجهد واضح.

ونظر إليه سقراط باهتمام شديد، وقال :

«أعد، من فضلك.»

وخجل جايانو، وأجاب مرة ثانية «موجود» ، ولكن بصوت عادي. عندئذ قال سقراط، بنبرة بدت صداقية، رغم الحزم الجدير بالأستاذية : «لا ياسيد جايانو، لا ، أنا أحب جميع الأصوات، بما أن الطبيعة متنوعة، ولكني لا أستطيع التسامح مع من يغير صوته، لأن هذا دليل على الوقاحة... أعد إذن كلمة «موجود» بصوتك الأجش المبتسر الذي هو صوتك الطبيعي، الذى سيدندن لنا طوال العام !»

وتعالت بضع قهقهات مكتومة.

وخجل جايانو جداً من نفسه، وأطرق بعينيه في استرحام، وسعل، ثم صمت، وهو ينظر في كل الأنحاء، كما لو أنه ينتظر معجزة تنقذه.

«إني أنتظر» ، قال سقراط.

وحل صمت طويل. وأخيراً بذل المسكين جهداً كبيراً، ونفخ صدره، وتمكن من أن يقول في صوت أجش يثير السخرية : موجود.

ـ «تمام!»

وانفجر الفصل كله بالضحك؛ ولكن ليس على سقراط، الذي افتر ثغره عن ابتسامة وراح يمد ثانية ذقنه، ثم نادى على : «جالوبيرا» ، وجنيبه، وجيج.. » ، الذين أجابوا بتواضع كل بدوره، جاهدين لأن ينطقوا نبرتهم العادية.

وبدأ على لانيو أنه قد جرحه هذا الخضوع الفوري، وراح يهز كتفيه بشكل واضح لجايانو (الذي طأطأ رأسه خجلاً) ، وهمس لي ثائراً :

«سوف ترى!»

وتساءلت ... ببعض القلق ـ عما سيفعله ، في الوقت الذي نادى فيه صوت سقراط : «لانيو!»

ونهض صديقي، بشجاعة مذهلة، وعقد ذراعيه، وأغمض عينيه، وأجاب :

«مااااء...»

ورجت الفصل قهقهة عاتية، وانتهز جايانو هذه الفرصة (متجاهلاً ضعفه) وراح يدبدب بقوة على الخزانة الطنانة لدكة الخشب، بغير أن يهتز جذعه أي اهتزاز (بما يؤكد مرانه الجاد) ، فأحدث رعداً هائلاً.

في نفس الوقت، ندت عن بيرلودبيه، أنّة طويلة، وهو مغلق فمه.

واندفع غلام أسمر، كان يجلس ورائي، وكان قد بدا لي متقدماً جداً في هيأته على سنه ووضع أصبعيه في فمه، وصفر صفيراً قصيراً، ولكنه قوي.

واحمر وجه سقراط فجأة. وانتعش أنفه، وارتفع كتفاه، وتعالت ذقنه لتصبح أفقية. كان يعرف أنه يراهن في هذه الدقيقة نفسها بمصير راحته طوال العام المدرسي، فخبط بعنف على المنبر براحة يده ، وبصوت راعد، صاح:

«سكوت!»

وتوقفت الضجة تماماً ، وظل لانيو واقفاً بلا حراك، في صمت كأنه نهاية العالم. ولم يرتجف، لكن رقبته تراجعت للوراء، وشعرت به وقد نقص وزنه بمقدار الثلث. عندئذ، قال سقراط، بصوت وقور وفخيم، محدداً بقوة كل مقطع وموضحاً كل كلمة في كل جملة موجهاً كلامه للضحية :

«ياسيدي. نحن لسنا في سيْرك.. وتهريجك قد تجاوز الحد المسموح به.. وأنت ترغمني .. على أن أعاقبك... بالاحتجاز ساعتين.. لكي تتعلم.. أن هناك حدوداً .. من الخطر .. تجاوزها.»

ثم في نفس واحد، وهو يشير بسبابته :

«هيا، اذهب وقف إلى جوار الباب، رافعاً ذراعيك، إذا كنت تعتقد أن طيبتي ليست إلا دليلاً على ضعفي، فأنت مخطئ تماماً، وإذا عدت بعد ذلك لتقع في هذه الخطأ ثانية، سأكون مضطراً للأسف لكي أحيلك لمجلس تأديب.»

وراح لانيو ، الصامت الشاحب، ليقف رافعاً ذراعيه، مطأطئاً رأسه، ومقوساً ظهره، على حين راح سقراط، بصوت مهدد، يواصل نداء بقية أسماء القائمة.

وألجمني سوء الحظ الذي صادف صديقي الجديد، لقد احتجز! وارتجفت لفكرة أن يقع هذا الأمر على مقربة مني بهذا الشكل.

أثناء ذلك راح زملائي يواصلون إجابة النداء على أسمائهم بغير أي تلاعب بالأصوات، وعندما جاء دوري أخيراً، أجبت بوضوح : موجود، بلا أي مكر، وبلا ادعاء، ولامذلة.

أخيراً، نطق سقراط اسم «زكريا» ، الذي كان آخر واحد في قائمة الفصل (والذي ظل هكذا طيلة العام لا بالقائمة الألفبائية فحسب وإنما في الدراسة أيضاً) ، وفي نفس اللحظة دوى الطبل الذي ينهي وقت الحصة في الفناء.

ونهض جايانو في التو، ووصل إلى الباب في ثلاث وثبات. لكن سقراط صاح: «إلى أين تذهب؟ عد إلى مكانك!»

وصعد الهارب ليجلس؛ ثم، وبقوة نظرته، أشل الطاغية كل الفصل، حتى آخر قرعة طبل. وأخيراً، عندما سمعنا ضجة تلاميذ الفصول المجاورة، بالرواق، قال، بتسلط متمكن:«اذهبوا!»

ونهض الفصل بلا أي ضجة، وخرج جايانو على أطراف أصابعه، في حالة من تصنع الندم.

وغادر لانيو مكانه إلى جوار الحائط وعاد حتى درجنا ليأخذ كراساته، وخرجنا. نهاية الفصل وبالممر ، قال لي : «إنه يبدو طيبا، لكنه بقرة.»

ولم يبد عليه أنه متأثر من إدانته.

وسألته : «ماذا سوف تقول لأبيك؟

وبدلاً من أن يأسف لهذا، سخر.

«لاتشغل نفسك بأبي. تعال، سنبحث عن فصل اللغة الإنجليزية.»

ـ أهو فصل آخر ؟

ـ بالطبع .

ـ هل سندرس في عدة فصول؟

ـ نعم

ـ لماذا؟

ـ «لأن هناك فصلاً للألمانية، وآخر للإنجليزية. ونحن سنكون معاً في حصة الإنجليزية نحن والفصل السادس أ!»

وتحيرت قليلاً

– وهل سيدرسنا الإنجليزية سقراط؟

ـ «أتهذي! قال لانيو باحتقار. إنه بالكاد يعرف اللاتينية!»

<> <> <>

ووجدنا بالمنصة أستاذاً آخر.

كان أقل مهابة، فقد كان قصيراً، ربعة، شديدة السمرة. ذا صوت مقبول. ونادى علينا من جديد، وأملانا قائمة أخرى للكتب. ورحت أتأمل بفضول وجوه طلاب الفصل السادس الذين يشاركوننا حصة الإنجليزية، ووجدتها تشبه تماما وجوه طلاب الفصل السادس أ.

وعرفت أن أستاذنا يدعى السيد بيتزو، وكان اسماً غريباً بعض الشيء. وشرح لي لانيو الأمر قائلاً أن الرجل إنجليزي حقيقي، وهو ما وجدته متطابقاً مع كونه يتحدث الفرنسية بلكنة لم تكن لكنتنا.

وراح يعلمنا : «This is a chair, this is the desk, this is the door, this is a book» وقد بدت هذه اللغة محبوبة بالنسبة لي لأنه لم يكن بها إعراب ولا تصريف.

عقب هذه الحصة كان هناك ما يشبه الفسحة، أي أننا رحنا نقضي عشر دقائق بالفناء الواسع للمدرسة الخارجية، حيث كان يتجمع مئات من التلاميذ من كل الأعمار بعضهم يخب في السير، والبعض يعدو، مسرعاً باتجاه المكاتب، على حين كان الأساتذة شاردين تحت الواجهة، وهم يحملون محافظهم الثقيلة تحت آباطهم.

ولم يكن هناك الوقت ولا المكان للقيام بأي لعب، وتمكن البعض من فض منازعة جرت بالفصل. وكانت هناك معركتان بين الكبار، لم أتمكن من رؤية شيء فيهما، بسبب تحلق الكبار الآخرين الذين أحاطوا بهما، ولكني أتيحت لي الفرصة لأن أستمع لصوت صفعة مدوّية ولأن أرى عينا متورمة.

وذهبنا بعد ذلك لدرس «الرياضيات» ، وقد كانت هذه الكلمة تخيفني، لكنها لم تكن تعدو تسمية لفصل الحساب.

كان هذا الأستاذ قصيراً جداً. ذا شارب أسود ، كثيف، لكنه صغير، وكان ينطق الراء بطريقة العم جول.

كان اسمه كذلك غريباً : السيد بيتونيا. وراح يسألنا كل بدوره، وبدا لي أن ألبان (وهو الطالب الذي يدرس من الخارج، والمهتم بتصفيف شعره)، ونجوين، الأنامي الحاصل على المنحة الداخلية، مجتهدين. لكنني أنا الذي أجبت أفضل الإجابات، وسال لعاب لانيو لتصوره أنه سينسخ حلول المسائل مني. وهنأني بيتونيا، ووضع لي عشرة على عشرة، وعرفت بهذا الدليل أنه أستاذ ممتاز.

ونزلنا بعد ذلك إلى قاعة المذاكرة، وسمعت مرة ثانية النواح الطويل المنغم :

«ما أبطأكم، أيها السادة، ما أبطأكم!»

ونسخت تصريفات «إسم الوردة» بكراسة اللاتينية، ثم «this is the door» وما تبعها بكراسة الإنجليزية.

وأعجب لانيو بخطي، ولكنه لم يحاول أن يريني خطه، وراح يقرأ، من وراء غلاف كراسته، كتاباً مصوراً.

وهمست :

«ماذا تقرأ؟

ـ جول فيرن.

ـ أي قصة ؟

ـ وبغير أن يرفع عينيه وبغير أن يبتسم، أجاب :

«عشرين ألف خراء تحت الماء.»

وقهقهت ضاحكاً! ونظر نحوي السيد باير بقسوة، وكاد بالتأكيد أن يستجوبني، ولكن لحسن الحظ، علا صوت الطبلة، ليمزق سحر الصمت

المفروض فامّحت النظرة القاسية، وغطسنا جميعاً إلى الدور الأرضي، حيث اكتشفت قاعة الطعام .

كانت قاعة ضخمة مضاءة جيداً بواسطة نوافذ السقف الزجاجية.

وجلسنا على دكك مثبتة بالأرض، أمامها مناضد طويلة من الرخام. امتدت كالأرصفة. واتخذت مكاني بين لانيو وبيرلودييه. وكان بمواجهتنا، أوليفا الصغير، وحوله من الجانبين شميدت وفيجيلانتي.

وأخبرنا لانيو أن المناضد الطويلة مقسمة «لمربعات» كل منها لستة من التلاميذ، يشكلون وحدة، وأن الأطباق التي يأتي بها الجرسونات تتضمن ستة أنصبة من كل طعام. وحتى الزجاجة التي تأتي تتضمن ستة حصص من النبيذ، وعند ذكر هذا النبأ ولأنني وأولفيا لا نشرب النبيذ، راح شركاؤنا الأربعة الآخرون يهنئون أنفسهم بحرارة لوجودنا معهم.

هذه الوجبة جعلت الفسحة رائعة، فلم أكن قد أكلت أبداً مع أولاد في سني بغير أن يكون معنا أشخاص كبار يفرضون علينا الصمت قائلين : («الأولاد لا يتحدثون أثناء الطعام»)، أو يرغموننا على ابتلاع الطعام الذي لا نكهة له («اشرب حساءك!» «كل السلاطة»!). وكانت المحادثة بيننا مفيدة جداً، وتلذذت بمتعة جديدة علي، وهي متعة التلفظ بالألفاظ البذيئة وأنا آكل.

كانت قائمة الطعام عجيبة، فبدلا من الحساء، أعطونا أولا السجق الجاف، والزبد والزيتون الأسود، ثم شريحة من فخذ الضأن، مع البطاطس المقلوة. واعتقدت أن هذا كل ما في الأمر. ولكن على العكس. هل تخمن ماذا أعطونا أيضاً؟ ... لقد أعطونا أطباق مكرونة مغطاة بالجبن السائح المبشور! ثم أعطوا لكل واحد برتقالة كبيرة، ولم يصدق هذا فيجيلانتي، وراح أولفيا يأكل كغول مسعور، وكنت أنا في غاية الدهشة من هذه الوفرة.

وسألت لانيو : أهكذا تمضي الأمور كل يوم؟

ـ تقريباً، قال . فقط هذا النظام نادراً ما يتغير. فشريحة الضأن الباردة، ستظل تطالعك كل يوم، ثم تتبدل البطاطس بالفاصوليا أو ببعض الحصو الذي يقرش تحت ضرسك مخلوطاً بالعدس الأسود.

ـ أنا أحب العدس، قلت. سألقي بالحصو، أما العدس. فسآكله!

ـ في غضون ثلاثة أشهر، قال بيلوديه، ستصبح كالآخرين. تعال انظر مآل العدس وأشار لي، إلى الحائط، على لوحة نسقية ملونة فاتحة، لكن كل الشخصيات المرسومة بها يبدو عليها أنها تكابد مرض الجدري. وبنظرة متفحصة تكشف لي أن الثقوب الصغيرة التي كانت بوجوهها كانت في واقع الأمر دمامل دقيقة الحجم، تشكلت من حبيبات العدس المغلية التي قذفها عليها طلاب الداخلية بالجفنات، عشية الإجازة، بقوة جعلتها تلتصق هكذا.

‹› ‹› ‹›

وصعدنا ، في طابور كالعادة، إلى فنائنا، للفسحة الكبيرة التي استمرت ساعة.

وتركنا شميدت وفيجيلانتي اللذين كانا بطلين في «كرة القدم» ليحاولا تكوين فريق. وراح بيرلوديه يفتعل معركة فيَ ركن الفناء، شاحذاً قبضته ، على أمل أن يستعملها ...

ورحت أتمشى مع لانيو ، تحت أشجار الدلب التي تساقطت أوراقها الميّته.

وجاء غلام أشقر لمرافقتنا. كنت قد رأيته بقاعة المذاكرة. كان يرتدي قميصاً كقميصي، وقال لي بغير أي تمهيد: «أنت ، من المدرسة المحلية.»

ـ «تماماً ، قلت. مدرسة طريق الشارتريين» .

كان يعرفها، لأنه راح يهز رأسه ، بحركة إعجاب، وأضاف بتواضع :

«لقد كنت أنا بمدرسة القديس برنابا.»

ـ هل أنت في الفصل السادس ؟ سأله لانيو.

ـ نعم. السادس ب !.

ـ أنت محظوظ. قال لانيو، فأنت لن تدرس اللاتينية على الأقل! ما اسمك؟

ـ «نيلب .»

وأدهشني هذا الاسم العجيب .

ـ وكيف يكتب هذا الاسم ؟

ـ «يكتب كما ينطق. »

كان أطول مني، وله شعر ناعم نحاسي، وعينان واسعتان زرقاوان ، وكان يضحك بتلقائية .

وتحدثنا ، بشكل طبيعي، عن بدايتنا بالمدرسة الثانوية، وأعلن لنا لانيو ، الذي كان يلعب دور «القديم» أننا بعد لم «نتجرع شيئاً» ، وهو ما يجعلنا ما نزال حالمين، ثم قص بفخار حكاية «ثغائه» التي انتقص منها نيلب لأن في رأيه أن الحبس في أول يوم ينذر بخطر شديد على المستقبل.

واكتفى لانيو بهز كتفيه، وأعلن أن الحبس لا يخيفه، مما ضاعف من

إعجابي ببطولته . ثم ، عندما بدأت الألعاب غير المنظمة للتلاميذ تجعلهم يتدافعون علينا ، ذهبنا وجلسنا على دكة من الخشب الصلب تتمدد إلى جوار الحائط في آخر الساحة .

وعلى الدكة، حدثنا نيلب عن فصله، وحدثناه عن فصلنا ، وعن الضرورة القاسية التي تفرض علينا دراسة هذه اللاتينية اللعينة، على يد السيد سقراط، فأعلن نيلب، الذي لم يكن قد رآه أبداً ولم يسمعه بالمرة، قائلاً ببرود أنه بالتأكيد لا يدعى سقراط ، وأن هذا اسم شهرة.

وتناقشنا بحدة ، وسألته ـ في صوت هازل ـ كيف يمكن لغلام جاء مباشرة من مدرسة القديس برنابا، أن يعرف أكثر منا عن أستاذنا ـ الذي نحن أنفسنا لا نعرف شيئاً عنه.

وككل المناقشات البلهاء ، طالت هذه المناقشة، ورحنا نتراهن، حين تدخل غلام كبير أسمر، كان جالساً على مقربة منا ، وقال :

«سقراط ، يدعى لوبلتييه».

ونهض، ورأيته يرتدي حذاء ذا نعل غليظ مدعم من جانبيه بدرعين معدنيين . وتقدم وهو يعرج بشكل واضح منا ، وأضاف :

«كان يدرس لي بالصف السادس . منذ عامين .. إنه ثري جداً؛ ذات خميس، رأيته على طريق المتحف في أوتوموبيل بنزين ، مرتدياً معطفاً من جلد الدب. فهو لو شاء ، ليس بحاجة للعمل أستاذاً. فقط هو يستمتع هكذا بإيذاء الخلق.»

ـ أنا ، قال ، لانيو ، قد عاقبني بالحبس بالفعل يوم الخميس.

ـ لا يجب أن يدهشك هذا، قال الآخر . فسوف يحدث لك هذا كثيراً...» وأخبرنا أنه يدعي كارير ، وأنه في الرابعة عشرة، وأنه بالصف الرابع أ.

وسألته، كيف أتى إلى هذا الفناء ؟

فابتسم وربت على فخذه بباطن يده .

«إن هذا بسبب قدمي. قال؛ فهذه القدم لم تنمُ كالأخرى. وهذا ليس مرضاً. وبالتأكيد ستبرأ يوما ما ، لكن أمي تغالي في هذا الأمر . وقد طلبت من المراقب أن يدعني في فناء الصغار، لأنها تعتقد أنه أقل خطراً. لذا، فلكي أطمئنها ...

كان وجهه جميلاً جداً، شاحباً بعض الشيء وناعما كوجوه الفتيات ، له شعر معقوص وعينان سوداوان كبيرتان. وأعجبني في التو، بسبب وسامته التي خانتها بوحشية هذه الساق الأقصر من الأخرى.

وكان ، فضلاً عن ذلك ، بئر معلومات.

فبعد أن أوضح لنا حالة سقراط، أعلمنا أن بيتزو لا يدعى بيتزو ، وإنما فيرونيه ، وأكد على أنه كان من «زبدة النماذج الأنيقة» وأنه «يعلمك الإنجليزية بغير أن تشعر أنت بذلك».

أما عن السيد بيتونيا ، فقد كان يدعى السيد جرُو . فقد كان من المسلي التشويش عليه، لأنه انفعالي يعاقب بالحبس دستة من الطلاب ثم يعفو عنهم في نهاية الحصة.

وسألته ما إذا كان يعرف أستاذنا في حصة المراجعة فأعلمنا أن اسمه السيد باير، وأنه يجر قدمه قليلاً لأنه كان جنرالاً سابقاً بالخيالة، وقد أصيب بجرح بليغ أثناء غزو مدغشقر بسبب من سهم مسموم، وهو (شأن كل الجنرالات) لا يعرف اللاتينية ولكنه قوي «بالرياضيات» وهو العلم المفضل لدى الضباط الكبار، الذين عليهم معرفة كيف يحسبون (بلا ورق، ولا قلم) عدد الرجال ، وحصص الجراية، والطلقات، والكيلومترات ، والأعداء، والسجناء، والضمادات

والأوسمة، وحتى النعوش...، التي تتطلبها، في كل لحظة، مصادفات الحرب.

وأعلمنا في النهاية، أن هذه المدرسة الثانوية أسسها نابليون الأول، وأن هذا محفور على لوحة رخامية، بالممر الذي يفضي إلى الفناء الأوسط. ولذا فإن طبول المدرسة جاءت مباشرة من الحرس الامبراطوري . وأن طبلتنا التي تقرع في الداخلية، (وقد عرف ذلك عندما أسر به إليه الفراش) كانت هي نفسها التي قرعت آخر نداء عسكري في معركة واترلو. وغطّى في التو هذا الكشف البليغ الأثر للطبلة التي تضاءل أمامها جرس مدرسة طريق الشارتريين ـ صوتها الفخيم، الذي أحيا ذكرى الدرع العملاق للحرس الإمبراطوري القديم، وأعادنا لقاعة المذاكرة، ودفع بالجميل الصغير الأعرج باتجاه فناء طلاب الفصول المتوسطة.

وتبدل أستاذنا في الساعة الثانية، فقد صعدنا إلى الدور الرابع لحصة الرسم.

ولم يكن لهذا الأستاذ أبداً مظهر المعلم ، فقد كانت له ذقن جميلة بيضاء، وشعر طويل كشعر الفنانين.

«عجباً ! قال لي لانيو عن دخولنا . هذا تينياس! ولسوف نضحك!»

وبسبب ما كشفه لي كارير، فهمت أن هذا اسم مستعار، وأنه يعود لسبب طول شعره، وكان تينياس أصم لا يسمع، وبالتالي كان طيب القلب على نحو يدعو للإعجاب فقد كان يكتفي بأن ينظر لنا، وكانت كل أنواع الضجة ـ الصياحات، والمواءات، والنواح، والأغاني والصفير ـ مسموحاً لنا بها.

في هذا الجو المهرجاني، علّمنا تينياس بجدية كبيرة كيف تُفَصَّل الأقلام ، ثم أرانا كيف نبري سن قلم الفحم بورقة زجاجية ، ثم وضع بعد ذلك إناء فخارياً كبيراً على ركيزة خشبية ذات ثلاث قوائم وحاولنا رسمها. وكان علينا أن نتعلم كيف نعرف الأبعاد عن بعد، بإغماض عين والإمساك بالقلم على طول الذراع وهذا الأمر يصعب شرحه، لكنه عمل عظيم، لا يعرف أحد من

مخترعه.

في الساعة الثالثة ، وضعت طبلة الحرس الامبراطوري نهاية لعملنا الفني، وقد تنكر زكريا في ملامح زنجي بسبب بودرة فحم. ولم يتمكن من العودة بوجهه للونه الطبيعي. وهو السبب الذي دعا أستاذ التاريخ، الذي كان بانتظارنا في فصلنا، لأن يطرده مع بعض الشتائم المخزية، وأمره بأن يذهب ويغسل وجهه بحجرة العيادة. ولم يعد زكريا من هذا المشوار، فقد حاصره المراقب العام بالمدرسة الخارجية، وحكم عليه بالوقوف ورفع يديه في ركن مكتبه، وعاقبه. بالحبس ساعتين، وعاد المسكين زكريا بسبب من دموعه التي سالت على وجهه للونه الطبيعي، فيما عدا دائرتين سوداوتين كانتا تحيطان بعينيه مما أسبغ عليه شكل البومة المريضة.

ولم يكن لأستاذ التاريخ هذا الذي كان يدعى السيد ميشيل اسم مستعار وكان قصيراً إلى حد ما، وسمينا وذا خدين متهدلين، وشارب كثيف أسود.

وتحدث إلينا عن الكون ، ثم عن النظام الشمسي ، ثم عن الكرة الأرضية التي كانت صغيرة بما يدفع للتساؤل كيف تكون مرسيليا دقيقة الصغر لهذا الحد. كما كان هناك أيضاً غموض في مسألة الاستراليين، الذين يمكن تصور أنهم يسيرون ورؤوسهم لأسفل، بغير حتى أن يلاحظوا هم ذلك. وعلمنا السيد ميشيل أن هذه هي الجاذبية التي جاءت من قانون إنجليزي. ولم يكن هذا جميعه أمراً يمكن تصديقه، وعند خروجنا، سألت لانيو عن رأيه، فأجابني :

«ربما كان هذا هو السبب في أن القنغر يقفز بهذا الشكل . ثم إنني لا يعنيني هذا الأمر بالمرة.»

وأثناء فسحة الساعة الرابعة، في فناء الداخلية، جاء غلام ليناديا، لكي نتجمع في مجموعات من خمس أو ست أشخاص، لكي نذهب ونتسلم كتبنا المدرسية من المكتبة. وكان بالمكتبة سلم شديد الضخامة. وممرات شديدة الطول!

وكانت تكاد تكون باتساع متحف لونج ـ شامب.

كان أمين المكتبة عبارة عن رجل في الثلاثين من العمر، نحيل ، وأشقر، وكانت عيناه الزرقاوان تنظران لنا بود من وراء عويناتها. وأعطاني لفتين كبيرتين من الكتب من كل الأحجام، كان بينها كتابان كبيران جدا، وهما قواميس اللاتينية، وأذهلني وزنهما، وأحبطتني فكرة أن على أن أدخل في رأسي، هذه الكيلوجرامات الأربعة أو الخمسة من اللاتينية لتتضخم بحيث لا يتسع لها البيريه الذي أضعه على رأسي.

وانتهى اليوم بحصة مراجعة لمدة ساعتين. كرست كلها لترتيب أدراجنا ، ثم ترتيب دروس الغد.

وراجعت «اسم الوردة»، ثم جدول الضرب، الذي كنت أحفظه حتى ١٣ × ١٣.

وراح لانيو يقرأ إلى جواري، بحمية واضحة القاموس اللاتيني ـ الفرنسي وسألته عن سبب الحماس، فهمس لي :

«في قاموس أبي، توجد كل الكلمات الخارجة. أما هذا فلا نجد فيه حتى تعبير قعر الزجاجة ...

ـ يحتمل، قلت، إن الرومان لم تكن لديهم زجاجات.

ـ «هذا ممكن ، قال لانيو. وعلى كل الأحوال، بالتأكيد أنه كانت لديهم...»

لكن النظرة القاسية للسيد باير أوقفت الحديث كلية.

عند خروجنا في الساعة السابعة، وجدت المفاجأة التي كنت أتمناها. فقد جاءت أمي مع بول لينتظراني في ميدان المدرسة الثانوية الصغير. واندفعا ناحيتي،

وقبلاني بانفعال كما لو أنني كنت عائدا من أمريكا. ثم، راحت أمي تتفحصني، تحت قنديل غاز لترى كيف كان تأثير هذه التجربة علي.

وأجبت بحمية على أسئلتهما، ورحت أقص عليهما، ونحن سائرين، تفاصيل ما فعلت، كما أوصاني جوزيف.

وعندما كنا نضع المفرش، الذي توسخ بسبب يد بول غير النظيفة، توقف بول عن الحركة فجأة، ثم صاح، بقلق طاغ: «لقد نسي حقيبته المدرسية!»

وهززت كتفي، وأجبت بعجرفة:

«بالمدرسة الثانوية، لدينا أدراج نضع فيها كل أشيائنا!

– أهي مقفولة بالمفتاح؟

– ليس بعد. لكن أبي سيعطيني قفل القصر. أليس كذلك يا أبي؟

– ألست تفضل أن أشتري لك واحدا آخر؟

– «لا، قلت. أنا أفضل هذا، لأنه سبب لنا الرعب. وحتى هذه اللحظة، ألاحظ كيف تنظر أنت إليه. ولو أنني استعملته كل يوم، سيتحول إلى شيء عادي شأنه شأن كل الأقفال».

وأثناء الغداء، حكيت لهم كيف كان يومي من أوله لآخره، وراحت العائلة تستمع إلي في اهتمام شديد.

وعندما قلت إن أساتذتنا خاطبوني بكلمة «حضرتك»، وأنهم كانوا يلقبونني «بالسيد»، راح بول ينظر لي بإعجاب شديد، وأعلن أبي:

«أنا لا أظن أنهم قساة».

وتحدثت عن سقراط، مركزاً على وشاح المدير الذي يرتديه، ثم بيتزو، ورحت أردد، أمام بول المندهش:

«This is the table, this is a chair. this is the door».

ثم وصفت فوضى فصل الرسم، وأخبرني أبي أن هذا يعد تقليداً، مسوغاً بأن الصمت أمر لا ضرورة له لكي ترسم، ثم تحدثت أخيراً طويلاً عن السيد باير، الذي كان يعجبني جداً، لكن جوزيف تشكك في أنه كان جنرالاً بالخيالة.

«أولاً، قال، هذا لقب غير موجود. ثم أنني لم أسمع أبدا بأنهم أرسلوا خيالة لمدغشقر. وأخيراً، لو أنه ضخم كما تقول، فهو بالتأكيد لم يكن يخدم بالخيالة، التي هي فرع من الفروسية الرشيقة».

وعندما لاحظ أنني أحبطت قليلاً، أضاف:

«بسلاح الفرسان، ممكن، أو حتى بالمدرعات. على كل حال، لو أن التلاميذ هم الذين اخترعوا هذه الحكاية. فهذا أمر يثبت أنهم يحبونه جداً، وأنه مدرس كفء. اجتهد لتكسب وده!».

‹› ‹› ‹›

خلال الشهرين الأولين، كنت مغترباً تماماً، فعلى الرغم من أهمية كل هذه الأوضاع الجديدة، كنت في حالة من الأسف لتركي مدرسة طريق الشارتريين العزيزة، التي كان بول ينقل لي أنباءها كل مساء.

قبل أي شيء. لم أكن في هذه القلعة الثانوية إبن جوزيف، ذلك الغلام الصغير الذي يدلله المدرسون، والذي كان يلعب أيام الخميس أو الأحد في الفناء الخالي للمدرسة. وأصبحت غريباً، عند الآخرين.

ولم يعد لي «فصلي» أو «درجي». فنحن نغير بلا توقف مكان دراستنا، والأدراج ليست أدراجنا الخاصة، لأنها كانت تخدم آخرين، لا نعرف عنهم الكثير، اللهم إلا أسماءهم أحياناً، التي تظهر (بسبب التنقل كل أسبوع) محفورة بعمق بمطواة في مائدة الخشب الصلب السميكة.

وبدلاً من أن يكون لي مدرس واحد، صار لي خمس أو ست أساتذة، لم يكونوا مدرسين لي فحسب، لأنهم يعلمون أيضاً صفوفًا أخرى؛ ولم يكونوا ينادونني باسم مارسيل بل كانوا أحياناً ينسون اسمي! ثم إنهم لم يكونوا هم الذين يراقبوننا أثناء الفسح. ولم نكن نرى منهم سوى أنصافهم العليا بمنابرهم، كأنهم هؤلاء الفرسان المهرة الراكبون طيلة الوقت، أو كصرافي المحلات الكبرى.

كنت في نهاية المطاف، محاطاً بعدد كبير من الشخصيات، يختلفون جميعهم عن بعضهم البعض، ولكنهم متحالفون ضدي لكي يدفعونني في طريق العلم. فبالإضافة إلى أساتذتنا وإلى أستاذ المراجعة، كان يوجد هؤلاء «البيادق»، الذين يلعبون دور البوليس في الفُسَحْ، ويراقبون المطعم، «ويقومون بالمراجعة» كل صباح خميس، ويديرون «الحركة».

وكان من يقود انتجاعنا بين الداخلية والخارجية، هو «الأزرق». وقد أطلقوا عليه هذه التسمية لأنه كان أصهب، ذا عينين واسعتين زرقاوين زرقة صافية. وكان طويلاً جداً ونحيلاً جداً، وكنت أتخيل أن سرته ملتصقة كمحارة على حد عموده الفقري.

كان دائما موجوداً بموقعه، لا يحدثنا أبداً، إلا ليقول «هيًا»، أو «أسرعوا»، بصوت مختنق من أثر الصمت الطويل. وأعلمني كارير أنه يعد لليسانس في الرياضيات، وأن عينيه المحدقتين هاتين، لا ينطبع عليهما شيء مما تراه، فنظرتهما المعكوسة متحولة باتجاه حشود الأرقام التي تتجمهر في أروقة مخه التالف.

وكان بيدق صباح الخميس الذي يدعى بيكوازو، ذا شعر أسود مجعد، وعينين مستديرتين، وأنفه أفطس. وكانت له هيئة فلاح قوي، لكن كارير قال لي إنه فيلسوف. وكان يثبت زعمه على ذلك بإطراقته غير المكترثة. فبعد أن كان، يتأكد من صمت قاعة المراجعة كان يضع قطعتي قطن في أذنيه، ويكتب بلا توقف عشرات الصفحات، ولكن لا يجب تصديق مسألة الفلسفة هذه، لأنه كان حتى بغير أن يرفع رأسه، يقهقه بصوت عال. وعلى كل حال، كان «نموذجا ظريفاً»، لأنه كان يتجاهل عمداً ألعابنا الصغيرة وثرثرتنا.

هؤلاء البيادق، الطيبون بوجه عام، كانوا تحت إمرة مراقبَيْن عامَّيْن كانا يثيران حميتهم ويدفعانهم للعمل.

وكان مراقب الداخلية، الذي يرتدي طاقية رمادية يذرع الممرات بلا توقف كأنه مدفعي على نهر مُحتل، وكان يظهر في الفناء في اللحظة التي لا يكون حضوره فيها مرغوباً.

وكان مراقب الخارجية، ذو الشوارب الطويلة اللامعة، والمدببة كالإبر، رجلاً ذا عوينات زجاجية، ونظرة باردة، وحذاء طويل بأزرار تبرق.

كان يجب أن يكون هو مخترع رادار تلك الحقبة، لأنه كان يستدل بلا كلل على التلاميذ المطرودين من الحصص، وكنت لكي تهرب منه، لابُد لك من أن تختبئ وراء عمود من أعمدة الرواق، كما يفعل السنجاب عندما يرى صيادا، كانوا يطلقون عليه طائر الموت، لأن لقاءه، المفاجئ دائماً، كان يزف سوء الحظ المدرسي.

وكان يترأس هؤلاء المساعدين، شخصيتان موهوبتان، هما المراقبان العامان.

ولم يكن لمراقب عام الخارجية اسم ولا لقب. وكان طويلاً جداً، ورفيعاً جداً، يرتدي سترة رمادية لؤلؤية مزررة، مع جيترات بيضاء على خفيه الأصفرين

الفاتحين، اللذين بلون شاربه، الطويل المتهدل، الشبيه بشوارب غالٍ محترم. وكنا عادة مانراه خارجاً أو داخلاً مكتبه، أثناء مرورنا بالرواق، وهو يتحدث بتهذّيب مع أمهات التلاميذ. ولم يكن يكلف نفسه عناء النظر إلينا. وكنا نخشاه كثيراً رغم أنه لم يوقع أبداً عقاباً على أحد، لكننا كنا نفترض أن العقاب الذي سيوقع من شخصية على هذا المستوى من الارتفاع سوف يكون ساحقاً بالتأكيد لمن يوقع عليه.

وكان مراقب عام الداخلية معروفا أكثر لدينا. ولم يكن يضع جيترات على حذائه، وكان قصيراً. بالإضافة، إلى أنه كان أثناء فسحة الثانية عشرة والنصف ظهرا يستدعي الحاصلين على الأصفار في السلوك لمكتبه، لكي يوبّخهم، وينتزع منهم تعهدات التوبة عن هذه الأفعال المغضبة. وذات مساء جاء للمرور على قاعة المذاكرة، أي للوقوف وراء كل تلميذ من التلاميذ، والنظر للحظة على واجبه، وإعطائه بصوت خفيض بعض النصائح. ولأنني لم أحصل أبداً على درجة صفر في السلوك، فقد كنت أجده شخصاً ظريفاً.

وأخيراً، كان يتسلطن فوق الجميع، السيد مدير المدرسة، الذي لم يكن يظهر إلا لماماً.

المرة الأولى التي رأيته فيها؛ كان بصحبة السيد مراقب عام الخارجية، عندما جاء إلى فصلنا لكي يبلغنا بنتائج اختبار الرياضيات، وكان لدخوله علينا أثر مهيب.

كان رجلاً ضخماً، يرتدي قبعة من الحرير، وصدرية بيضاء، وردينجوت طويل أسود لامع. وكانت له لحية عريضة سمراء، وعدسة مكبرة مثبتة على إحدى عينيه.

وعند ظهوره أمام الباب، نهض الفصل كله واقفًا، عاقداً ذراعيه على صدره. عندئذ أمسك بطرف قبعته العريضة الحريرية، وحيانا طويلا وهي تلتمع

في يده التماعة سوداء، ثم تقدم باتجاه المنبر، وشد بغير أن يقول كلمة على يد بيتونيا، الذي اتجه باحترام لملاقاته.

وقرأ المراقب العام، الذي كان يرافقه، نتائج اختبار الرياضيات بصوت عال، وظل السيد مدير المدرسة صامتاً طيلة الوقت، ولكن بطريقة مهيبة.

ولم يعلن السيد المراقب العام الترتيب فحسب. فبعد أن أعلن الدرجات التي حصل عليها كل متسابق، فصَّل بشكل متعاقب الدرجات الثلاث، التي أعطيت في «السلوك والواجبات، والدروس».

كان ترتيبي الثالث. بعد جيليس، وبيكون، اللذين كانا الأوائل. وسعدت كثيرا لأنني كان لدي ميل طبيعي بألا أكتفي بأي شيء. وكان لانيو قد نسخ حلولي مضيفاً إليها بضع أخطاء مفتعلة، ولكنه حاول أن يجيد إجابته، وتطلب الأمر أن ينتظر مدة دقيقتين على الأقل. ليحصل على نتيجته، وكان ترتيبه الثاني والعشرين، وهو ما جعله في وضع لا هو بجيد ولا هو برديء. وابتداء من هذا الترتيب، صار صوت السيد المراقب العام شيئاً فشيئاً محزوناً، ثم آسفاً، ثم مستنكرا. وأخيراً، تلا بطريقة ممطوطة، وبنبرة مذهولة.

«الترتيب الواحد والثلاثون والأخير، بيرلودييه، ٢ ،١، ٦ ، ٤ وصفر».

عندئذ، وبغير أي رعشة، ترتجف لها لحيته، كرر السيد المدير، بصوت قاتم: «صفر».

وقام السيد المراقب بوضع علامة × على الورقة، وقال بطريقة آلية:

«يعاقب بالاحتجاز يوم الخميس».

وهكذا، وبغير أن يتفضل السيد المدير بنطق أي عقاب، أمكنه أن يوقع بكلمة واحدة عقابه، بنفس الطريقة التي يكفي فيها أحياناً لصدى الريح أن يثير بركاناً.

هذا التنظيم كان يخيفني. فقد كان العاملون به كثيرين بالفعل، لا يمكن فهمهم، ولا حبهم، ولا إغواؤهم. وأسفت على السيد بيسون، الذي لم يكن وسيما، ولكنه كان يعرف كل شيء؛ والدليل على ذلك، أنه كان يعلمنا كل شيء: الفرنسية والحساب، والتاريخ الطبيعي، والجغرافيا، ولم يكن حاصلاً على الوشاح الأكاديمي، وكان يصفعنا صفعات خفيفة أحياناً، لكنه كان دائم الابتسام...

‹› ‹› ‹›

من ناحية أخرى، لم يكن طلاب المدرسة منسجمين. فقد كان هناك المقيمون إقامة داخلية، والمقيمون نصف إقامة، والخارجيون، الذين كانوا يشكلون بالفعل نوعاً شديد الاختلاف عنا.

عندما طلب مني بول أن أصف له هؤلاء الخارجيين، أجبته مباشرة:

«إنهم تلاميذ يرتدون يوميا حلة يوم الأحد!»

– إن هذا يكلف غاليا! قال بول.. المفعم بالإعجاب.

– إن آباءهم لديهم الكثير من المال، فأحدهم. وهو يدعى بيكوت، غني

لدرجة أنه يضع كل صباح الزبد على شطائره من الوجهين.

وصفر بول صفرة طويلة، وهو مندهش من هذا السفه الشديد. وكان أمراً حقيقياً، أن الطلاب الخارجيين كانوا في غاية الوسامة.

كانوا يأتون في الصباح، بكل بهائهم. مرتدين أحذية مفتوحة، من الجلد الأصفر أو الكستنائي، ذات أربطة عريضة كالأشرطة، تنعقد في ضفيرة تشبه عقدة الفراشة. وكان منهم من يركب في نعله قطعة سميكة مستديرة من الكاوتشوك، مثبتا بها هلال معدني مثبت بمسمار منكل. وكان هذا هو «الكعب الدائر»، قمة الفخامة الحديثة. كان هذا النعل يطبع على التراب أثناء السير نوعاً من بصمة تشبه الميدالية، بهذا الهلال البارز من منتصفه. ولذا كان من السهل علينا التعرف على مرور طالب خارجي بسهولة كما كان يتعرف مقتفي الأثر العجوز على أثر نعامة أو خرتيت.

كانت جيوبهم تمتلئ بالبلي، وكانوا يستمتعون بمصاصات الكراملة الطرية (وهي من ماركة «الكلب القافز») أو أقراص عرق السوس بالبنفسج؛ وكانوا يشترون في فسحة الساعة العاشرة، أهلّة الزبد أو القراقيش البيضاء التي كان ثمن الواحدة منها خمس سنتيمات من الفِراش، وهو ما جعل من الفراش منذ وقت طويل بسبب هذا التقليد مليونيرا.

لكن فخفختهم هذه كانت ساحقة في الفصول.

كانوا يفتحون الأقفال المعدنية لحقائبهم الجلدية الصهباء، أو المصنوعة من جلد الماعز المصبوغ باللون الأزرق، وكانوا يخرجون منها أولاً ـ قبل أن يجلسوا ـ مفارش صغيرة مثلثة، ذات بريق في أغلب الأحيان يشبه بريق الحرير، ويفرشونه بعناية على الدكة، لكي يصونوا مؤخراتهم المتميزة، التي لا تطيق تحمل الاحتكاك بالخشب الصلب؛ وكان هذا الاحتياط يماثل احتياطات الأميرة الكونتيسة، التي استيقظت ذات يوم مزرقة اللون، بسبب وجود حمصة

تحت مراتبها الريشية الأربعة.

وبعد أن كانوا يُجلسون أشخاصهم، كانوا يخرجون مقلماتهم المدهونة، التي كانوا يفرشون محتوياتها أمامهم، من المحايات الكبيرة كقطع الصابون، و«برايات الأقلام» المعدنية اللامعة المثقوبة ثقباً مخروطياً، وأقلام الرصاص الكبيرة والمختلفة الألوان. وكان أوفان، الذي يجلس أمامنا، قد أراني كذلك قلم رصاص لم يكن من الخشب! كان سنه غليظاً جداً، وملفوفاً بشريط صغير من الورق، وكان يفتح ويقفل بمسمار ملولب. وعندما كان السن ينكسر، كانت تكفي إدارة الشريط لبضع سنتيمترات، فينبري القلم! وكانت لديهم أيضا مغامد للريشة من العقيق، أو من السبخ، أو من مادة أخرى ثمينة، كانت توضع بها المقابض، والأسنان المذهبة، وكان بها محافر صغيرة من الصدف حادة الطرف كالشفرة.

إلى جانب هذا الثراء، كانت أدواتي تبدو فقيرة، وأعترف أنني كنت أشعر بالخجل منها في الأيام الأولى؛ ولكني ابتدعت تلقائياً الحكمة الفلسفية، التي عزت لقرونٍ الفقراء، وخلصتهم من وحشية التطلعات؛ وخلصت إلى احتقار ثروات الآخرين، ورحت أنظر إلى التميز المادي على أنه شيء ثانوي تماماً، وقررت أن كل البضائع الفاخرة تضفي الشرف على صناعها لا على حائزيها. وعلى هذا النحو، تمكنت من أن أحب، بغير أي ألم، ساعة يد أوفان، الملتفة حول معصمه بسوار من الذهب. فكان يخبرني بالساعة بطريقة مهذبة مثله، كان يتصرف دائماً بطريقة مسؤولة، فلم يكن يشارك في أي شجار ولو بسيط، خشية أن تنكسر ساعته.

مع ذلك، فقد تمكن واحد يدعى بيرنيبه، من الصف السادس، وكان جاراً إلى يساري في حصة الإنجليزية، من أن ينتصر على حكمتي، وعليّ أن أعترف أنه أيقظ في نفسي الهادئة ـ لعدة دقائق ـ غيرة مؤلمة وحقيرة.

قيل إن أباه كان ترسانياً، ولذا اعتقدت طويلا أنه يصنع المسدسات،

والبنادق، وربما المدافع، لأن ثراء بيرنييه كان ملحوظاً على كل شيء فيه، فقد كانت لديه ساعة جميلة، وقفازات جلدية، وأخفاف جديدة دائماً، وكان يكثر من شراء أهلة الزبد.

ذات صباح، وأثناء ما كان السيد بيتزو يخبرنا أن الصفات، في الإنجليزية، متغيرة، حول بيرنييه انتباهي عن هذا الخبر السار وهو يمسني مساً خفيفاً من كوعي. وغمز لي بعينه، وأخرج من جيب سترته الداخلي، أنبوبا فضيا فك غطاءه الملولب. ثم أدار القطعة الكروية المعدنية التي تغلق طرفه الآخر، ورأيت سن قلم مذهب ينبثق من مقدمته.

«إنه من الذهب! همس. هذا مكتوب بأسفل غطائه!»

وبدت لي هذه الفخفخة عقيمة على نحو مؤسف، وسألت ببرود:

«هل يمكن أن نكتب بهذا؟»

وغمز بعينه مرة ثانية، وقال: «انظر!»

وبغير أن يغمس السن في المحبرة، كتب اسمه أمام عيني!

واعتقدت في بادئ الأمر أنه عبارة عن نوع من القلم الرصاص. ولكنه صحح لي. فهذه الآلة تكتب بالحبر الأزرق، الذي تحتفظ به في أنبوبها، والذي يصل من تلقاء نفسه إلى السن الذهبي!

كانت هذه هي اللحظة التي فكرت فيها بمرارة بالتوزيع غير العادل للثراء، فقد كان بيرنييه يكتب كما لو كان قطة تخربش، وشعرت بوخزة شنيعة في القلب.

وشرح لي أن هذه الآلة تدعى «القلم الحبر»، وأن أباه قد أتى به من إنجلترا، وأن هذا القلم يسمح بالكتابة لمدة أسبوع بلا توقف، ثم عندما يفرغ أنبوبه،

يمكن ملؤه من جديد بالضغط على قطعة فيه تشبه الطلمبة.

ورغبت في أن يريني كيف يعمل، لكنه لم يكن بعد مدرباً على استعمال هذه الآلة الإنجليزية، فلم يتمكن سوى من نطر بعض الحبر الذي لا يمحي فجأة على كراسته البديعة الجديدة.

وشعرت بسعادة غامرة. غفرت معها له امتلاكه لهذا الشيء الرائع الذي لن يتمكن أبداً من معرفة استعماله.

وكان أشد عيوب هؤلاء الطلاب الخارجيين، أنهم كانوا سريعي البكاء، وكان يحدث أن يذهبوا للتشكي من صديق بسبب دعابة بريئة، كركلة قدم أصابتهم، أو عندما يقذفهم أحد بكرية صغيرة من الورق (مغموسة بالحبر طبعا) ينفخها بأنبوب على صفحة كراسة مكتوبة لهم. كما أنهم لم يتفهموا دائما لغتنا، التي كان ما بها من بذاءة شديدة يفوت عليهم إدراكه. وكانت لغتهم الخارجة نوعاً من الحديث المستحي، فقد كان أقصى ما يتفوهون به كلمة «أضربك بالشلوت!»، وذات يوم بلغ بيكون قمة غضبه، وصاح على بيرلودييه: «إنك لست إلا مغفلا!»، وكان ضعف القدرة على التعبير على هذا النحو يجعلنا نبتسم مشفقين. وعندما أتحدث عنا هنا، فأنا أعني طلاب الداخلية.

وحيث أن وطننا، كان قاعة المذاكرة، التي يتسلطن عليها كل يوم السيد باير. (ما أبطأكم» أيها السادة، ما أبطأكم!) فقد كانت هي المكان الذي نعلق فيه كل بعد ظهر قمصاننا، تحت الخزانات المقفولة بالأقفال التي نحتفظ فيها بأشيائنا، وأحيانا أسرارنا. فقد حاول بيرلودييه أن يربي فيها فأرا أبيض، مات في ظرف أسبوع بعد ما التهم وقرض «نتيجة اختبار» أجاد فيه بيرلودييه، وكانت هي التي تحمل الدرجات الجيدة الوحيدة التي حازها، والتي جاءت نتيجة غشه بوقاحة لوصف لغروب الشمس من مجلة «أصداء الموضة».

وكان قوامنا في قاعة المذاكرة لا يتغير، كما يحدث في الفصول، وكنا

نقضي كل يوم سبع ساعات معا، سواء أمام الأدراج، أو بالفناء، وقبل كل شيء، كانت لدينا الألفة التي اعتدناها بسبب المطعم؛ لذا كان الطلاب الخارجيون يبدون غرباء علينا، لأننا لم نرهم أبدا أثناء الطعام...

مع نهاية الفترة الأولى، تكيفت، وشعرت بقاعة المذاكرة كأنها بيتي، الذي أذهب إليه كل يوم وأجلس بسعادة، بين أفراد قبيلتي.

وقضيت طوال هذا الصف السادس، إلى جوار لانيو، بالدرج الأخير بالصف الأول إلى جوار خزانتي مباشرة.

في البداية، كان بيرلودبيه يجلس أمامنا، إلى جوار سيكار وكان مصابا باللعنة، لأنه كان يثير انتباه السيد باير طيلة الوقت بأنواع الضجة المختلفة، فقد كان يسعل، ويتنحنح، ويتمخط بصوت كصوت البوق، ولم تكن هذه الأصوات هي أكثر ما يزعجنا.

فلحسن الحظ، بعد شهر من هذا، تفتقت قريحة بيرلودبيه الصوتية عن فكرة تعسة. فقد جاء معه إلى المدرسة بآلة موسيقية صغيرة. كانت صفارة معدنية، مثقوبة في وسطها، ثقبا تدلى منه خيط كاوتشوكي رفيع. وكان يضع الصفارة على لسانه، وفمه مغلق تقريبا، ويسهل عليه أن يصفر بها صفيراً موسيقياً لطيفاً، بغير أن يستطيع أحد أن يحدد مصدر الصوت.

وكان من الواضح أنه قد تدرب على هذه الآلة في بيته، لأن بدايته في الصفير عليها كانت ماهرة بفصل الرسم. ولم يكن الخطر كبيرا، لأن تينياس لا يسمع شيئا، فكان العازف يواصل صفيره لعشرين دقيقة، لكي يجربها، وعندما يجد أنها لم تحدث أثرا، كان يصمت. محبطاً.

في حصة اللاتينية، لم يدم العزف المنفرد أكثر من خمس ثوان، طرد سقراط بعدها زكريا الذي أنكر، ولكن بشهامة، لأنه لم يدل على الفاعل،

وخرج، رافعاً رأسه بنبل. بعدها لم يواصل السافل بيرلوديه عزفه، وأكد الصمت التام الذي تبع هذا العقاب إدانة البريء.

بفصل الإنجليزية، دعت الآلهة الموسيقار للعمل، فقد راح بيتزو يكتب على السبورة، من أول دقيقة: «the little bird is singing on the tree»

وترجمها لنا: «العصفور الصغير يغني على الشجرة».

وأكد بيرلوديه في التو على صحة هذا الزعم بزغردة طويلة. فابتهج أستاذنا، واتجه صوب النافذة ليفتحها على مصراعيها، في محاولة لأن يرى، خلال أوراق الشجرة، هذا الجاثم الذي يغرد في الوقت المناسب.

ولابد أنه تمكن من تحديد بضعة عصافير، لأنه راح يشير لنا بأصبعه على الأوراق الصفراء الخريفية، ويقول:

«هذا هو العصفور الصغير الذي يغني على الشجرة!»

وراح بيرلوديه، بوجهه المنكفئ على كراسته. يكتب هذه العبارة. وهو يوضحها بصفرة قصيرة أثارت موجة من القهقهة العامة. وذهل بيتزو، لسماعه هذا العصفور خلفه، واستدار مرة واحدة باتجاهنا، وراح يذرع الفصل بنظره. كان أمامه ثلاثون وجها عليها مختلف التعابير، ورفع بيرلوديه ريشته من على الصفحة، ونظر إليه بأعين تفيض براءة.

وأغلق بيتزو النافذة، وبغير أن يحوّل بصره عنا، عاد بخطوة بطيئة صوب المنبر. لكنه عندما أدار لنا ظهره ليصعد إليه، نادى عليه العصفور بجذل باسمه:

«بيتزو! بيتزو!»

فالتفت نحونا، وسدد إلينا نظرة حادة مهددة، وقال:

«من هذا البليد الذي قلد العصفور؟»

وأجاب عليه الصمت.

«حسنا، قال بحالة من الحنق. أفهم من هذا أن مهارة هذا العصفور لا يعادلها إلا جبنه. أقول جبنه».

وراح يردد هذه الكلمة بتقطيبة ملؤها الاحتقار. لكن بيرلودييه، المحنك في الجريمة، لم يصبه أي انفعال إلا الرغبة العارمة في الضحك التي راح يموه عليها بعطسة، وخفّت انفعالات بيتزو.

بعد الظهر، وفي فصل الرياضيات، راح بيتونيا يشرح لنا على السبورة السوداء بعض التنويعات على طرح الكسور التى لها نفس المقام، وهو الشرح الذي أجاده تماماً. ولاحظ أن كل واحد من الحلول التي قام بها كانت تعقبها صفرة خافتة. وراح يفتش عن مصدرها كل مرة طويلا، إلى أن لاحظ. بالصف الثالث، الصغير فيرنيه. كان هذا طالباً خارجياً، هادئاً كأنه لوحة مرسومة، لكنه كان حين يكتب باهتمام، تصدر عنه دون أن يشعر، أنّة رفيعة، تكاد تتصورها من بعيد صفيراً. وتصور بيتونيا أنه هو الذي يصفر. لذا فقد راح يهنئ فيرنيه على «ذكائه الاجتماعي»، ثم عاقبه بالوقوف أمام المدفأة، وتوعده بالحبس. وخشي بيرلودييه للحظة أن يشي به هذا الطالب الخارجي.

لكن فيرنيه، الذي كان في قمة الخجل، لم يجرؤ على قول أية كلمة، وظل حتى نهاية الحصة في ركن المعيَّرين، عاقداً ذراعيه بشكل أمين على صدره في استسلام، ليقدم لنا نموذجاً للتلميذ الشاطر المعاقب، الذي يدل سلوكه المحكم على براءته.

وشعر بيرلودييه ببعض الخزي، وعندما قرع صوت الطبل، وفي الضجة التي سبقت الخروج، وبينما كان يدعي إعادة ربط رباط حذائه، أطلق صفرة طويلة عجيبة، لكي يعلن براءة الشهيد الذي كان طيلة الوقت واقفاً بلا حراك. وتعرف عليه بيتونيا بوضوح، ونظر إليه بحدّة.

«يا سيد فيرنيه، قال. أخشى أن أكون قد عاقبتك ظلماً، لذا فأنا أشهد الآن برضائي عنك مكافأة لك على سلوكك القويم، واحترامك للانضباط. وأهنئك على ذلك يا سيد فيرنيه».

وحينما كان السيد فيرنيه، المحمر من الزهو، يعود لدكته لكي يأخذ حاجياته، أضاف بيتونيا، أثناء الصمت الشديد:

«أما عن العصفور المغرد الذي جبن وتسبب في عقاب بريء، فأتصور أن العار الذي سيشعر به هذا الأبله بسبب فعلته، مضافاً إليه احتقار زملائه، سيكون عقاباً عادلاً له، على الأقل اليوم. اذهبوا!»

وعبر بيرلوديه عن ندمه في التو بصفرة ضعيفة، ولكن في حزن شديد. وأثناء تزاحم الخروج، تظاهر بيتونيا بأنه لم يسمع هذه الصفرة، متغاضياً عن إثارة الموضوع، والقيام بتحقيق كان سيفضي بالطبع للاشيء، ولكنني رأيت نظراته تقسو، مما بدا لي نذير شؤم على أي تصرف مقبل من العصفور المغرد.

‹› ‹› ‹›

كان ذلك في المساء، أثناء المذاكرة، عندما وضع السيد باير حداً للصفير.

ففي الساعة الخامسة والنصف، وفي الصمت الحافل بالعمل، وأثناء ما كان مدرسنا يطالع الجريدة في المنبر، سمعنا صفارة باهتة، كأنها نوع من التوطئة، لعندليب يعد صوته.

وأصابت الجميع حالة من الحمية المفاجئة. وراح بينزيش وجامبييه، اللذان كانا يلعبان الضامة يخفيان لوحة الكرتون التي يلعبان عليها تحت الدرج،

ويفتحان كيفما اتفق كتب الدراسة. وأهمل لانيو قراءة ما سيوضح مصير راعي البقر ـ الذي كان مربوطا لعمود التعذيب ـ ورحت أنا أقلب بحماس قاموس الفرنسي ـ لاتيني.

ومن أجل ادعاء الجدية، راح بيرلودييه وهو يرص أمامه الأقلام الملونة، ويمسك بالممحاة في يد، وبالفرجار في أخرى، ينسخ خريطة فرنسا من الأطلس المفتوح أمامه، باهتمام بدا أنه يفوق الحد.

ولم يرفع السيد باير عينه من على جريدته.

عندئذ، وأثناء ما كان بيرلودييه ينكفئ على الأطلس، ويرفع مرفقيه، صفر صفرة طويلة راحت تعلو، وتعظم، ثم راحت تخفت تدريجياً. وراحت كل الرؤوس تنكمش وكل الأكتاف تتقلص. ونهض السيد باير، بغير اكتراث بالمرة، وبغير أن ينظر ناحيتنا، نزل من منبره، وراح، بخطوة المتنزه، للجهة الأخرى، ثم انعطف على واجبات لامبير؛ وكان يدير لنا ظهره، وراح يقول بعض الملاحظات بصوت خفيض. وسمعنا زقزقة عصفور، ما لبث أن شرع في تغريدة أجمل بكثير من الصفرات القصيرة لبيرلودييه. ولم يلتفت السيد باير، وفكرت في أنه ربما كان أصم، وأنه كان يخفي عنا ذلك حتى الآن، وهو الأمر الذي كدرني بعض الشيء.

وصمت العصفور. عندئذ توجّه السيد باير إلى آخر القاعة، ولكن في الجهة المعاكسة لناحيتنا، وشرع يتفحص باهتمام حلول مسائل جالوبير، الذي كان طالبا بالصف الخامس (ب) علمي.

وعاد العصفور للصفير، واستغرق فجأة في التغريد. وكان السيد باير مازال يعطينا ظهره، وراح يحدث جالوبير. الذي كان يستمع، ناظراً إليه بكل اهتمام، بانزعاج واضح، لأن الصفير كان يربكه.

لكن السيد باير لم يسمع شيئاً طول الوقت، وأثار عدم اكتراثه هذا عصبية بيرلوديه وراح ينظر إلى ظهر السيد باير، ويهز رأسه بطريقة احتجاجية، كما لو أنه منع من أداء دوره أو أن شيئاً منعه من أداء واجباته.

ثم أطلق ثلاث صفرات طويلة واحدة بعد الأخرى كانت لها نبرة التحدي، وأتبعها بنواح طويل... وترك السيد باير جالوبير، بعد أن ربت على كتفه مشجعاً، ثم اتجه نحونا، متفكراً، في خطوة بطيئة.

وتوقف بجوار الخزائن، التي تصطف إلى جوار الممر الذى نجلس فيه، وانحنى فجأة على خريطة بيرلوديه.

«ما هذه الخريطة؟» سأله،

وبغير أن ينطق لوديه بكلمة، أشار إلى الأطلس، كما لو أنه يفكر بطريقة نابليون في أن كروكياً صغيراً أكفأ في التعبير من خطبة طويلة.

وألح السيد باير: «من الذي أعطاك هذا الواجب؟»

وفتح بير لوديه عينيه على اتساعهما، وراح يعبر بالإيماء عن أنه لا يعرف شيئا.

«ماذا؟ قال السيد باير، هل تجهل اسم أستاذك في الجغرافيا؟ ما اسمه؟» وتدخل لانيو في التو، مقدما خدمة، وقال:

«إنه السيد ميشيل.»

ـ أنا لا أتكلم معك أنت! قال السيد باير.

وأمسك في يده بالخريطة، وراح يتأملها، وقال بصوت عال:

«ما اسم أستاذك؟»

ولم يتمكن بيرلوديه من التراجع أكثر، وبجهد يائس، قال: الفيِّد ميفيل.

ـ «حسنا جدا، قال السيد باير. أخرج ما في فمك!»

وخشيت للحظة. أن يختنق بيرلودييه، في محاولة ابتلاع الصفارة، فقد ازرد وجهه وصار قرمزياً. وراحت كل القاعة تنظر إليه، وهمّ بلداء الصف الأول بالوقوف نصف وقفة لكي يطالعوا بشكل أفضل ما يحدث. وأرعد صوت السيد باير «أسرع، وإلا استدعيت السيد المراقب العام!».

وأدخل بيرلودييه، المرتعب، أصبعه السبابة في فمه، وأخرج الصفارة التي التمعت باللعاب، ووضعها على الدرج.

ونظر السيد باير لها لبرهة، ثم قال (كما لو كان يعقد مؤتمراً عن الآلات الموسيقية):

«هذه الصفارة بديعة، ولكنها ليست حديثة كما قد يعتقد البعض. كانت لدي واحدة منها عندما كنت تلميذاً بالصف الخامس، في مدرسة الآرل... ولقد صادرها للأسف أستاذ حصة المراجعة، الذي كان يدعى السيد جريمو. فهل تعرفون ماذا فعل بي السيد جريمو؟».

كان يقول ذلك، وهو ينظر إلى بيرلودييه المسكين، كمن لا ينتظر إجابته.

«أنتم لا تعرفون، استطرد السيد باير، ولكن يمكنكم بالطبع أن تخمنوا. حسنا، لم يكتف السيد جريمو بمصادرة صفارتي، ولكنه حكم باحتجازي يوما كاملا. هو يوم الأحد واحتراماً مني لذكرى هذا الرجل الأمين، أجدني مضطراً لمعاملتك بمثل ما عاملني. لذا فسوف تأتينا هنا بالمدرسة طيلة يوم الأحد المقبل، ولا يستبعد أن يوافق السيد المراقب العام بمبادرة منه على استضافتك استضافة استثنائية يوم الخميس التالي، لأنه لا يحب الموسيقى. والآن اجمع حاجياتك، واذهب للجلوس في الدكة الثانية، أمام المنصة مباشرة، في مكان بيجو، الذي سيحل محلك هنا. ولكن قبل ذلك، جفّف هذه الصفارة واذهب وضعها إلى

جوار محبرتي. وأعتقد أن السيد المراقب العام سيضعها في مكان بارز ضمن متحفه الصغير للأدوات الإجرامية».

وهكذا تخلصنا من الحضور المهدد لبيرلودييه، الذي أفادنا إبعاده مرتين، فهو لم يعد يثير ريبة السيد باير فينا، وأيضا رحنا نتمتع بحريتنا، بعد نقله إلى مكان بعيد عنا في قاعة المراجعة.

أما حضور بيجو، فقد أثرى جداً ركننا. فقد كان بالصف الخامس أ، وكان علاّمة، يستطيع أن يتلو ككتاب مفتوح خلاصة التاريخ الإغريقي، وهو ما جعل درجاتي في الترجمة عن اللاتينية تتحسن بشكل مفاجئ.

كان يجلس إلى جوار «بيجو»، ريموسا، وهو تلميذ في الصف السادس ب أ. وهو أشقر، رفيع، وذو خط جميل جدا، على الأقل في قاعة مذاكرتنا. وكان أبوه حلوانيا، فكان يخرج من جيبه كل صباح كيساً صغيراً من الورق الأبيض، ويوزع علينا منه الحلوى، وأحيانا الشوكولاتة المحشوة بالمشروبات الروحية القوية.

أمامهما، كنا نرى ظهرَيْ شميدت، وفيجيلانتي.

كان شميدت سويسرياً، طويلاً وبديناً، ككل السويسريين، وكان يضحك بطريقة عنيفة، وهو ما كان يسبب له الكدر، فما من مرة يحدث فيها هازل من فصله «ضجة»، إلا وينفجر هو بالضحك، فكان هو الذي يطرد. وكان يجيد لعب كرة القدم، وكان يعلمني، بصبر شديد، حساسية ركلة الكرة بالكعب. وأنا أحتفظ له بعرفان أبدي لهذا، حتى ولو لم تساعدني هذه المقدرة الثمينة على أن أحقق بها شيئاً كبيراً، حتى يومنا الراهن على الأقل.

وكان جاره، فيجيلانتي، ينحدر من كورت، أي من جبال كورسيكا. وكان عظمه أكثر غلظاً من عظمي، وله ذقن ثقيلة، وشعر أسود، وعينان واسعتان زرقاوان. وكان يتكلم بطريقة عجيبة، وهو ينطق حروف الراء ليس فحسب

بالطريقة التفخيمية التي ينطقها بها العم جول، ولكن بنعيق خفيف، وكانت جمُلُه تصدر عنه بطريقة رتيبة متعرجة ومنغمة. وكان طيباً وكريماً، ولكنه كان سريع التأثر، فذات يوم دعاه بيرلوديبه «فيجا تيللي»، فامتقع وجهه، وتوعده إذا عاد لتكرار هذه المسبة «ليجعلنّه يرى النجوم في عز الظهر».

فامتنع الآخر، الذي لم يكن يحب أن يراها لا في الظهر ولا في الليل عن تكرارها.

في الدكة الثالثة بالصف الأوسط كان «نيلب» صديقنا، الذي كنا ندعوه «بقس دير القديس برنابا»، لأنه كان يتباهى بأنه لم يفته لمرة واحدة حضور قداس الأحد. كان بساماً، صبوراً، خدوماً، وكان الأساتذة يضربون به المثل. رغم ذلك، كان يهتم كثيراً بأفعال «التصرفات الرديئة»، وكان يتابع العقوبات التي تثير الدموع من حوله، كما يتابع علماء الإجرام المخلصون نفسيات القتلة الذين يؤلفون الكتب عنهم، ويقومون بعمل الاستقصاءات عن السجون، ورغم أنه لم يرغب أبداً في المشاركة في «الضجيج»، إلا أنه كان يسدي النصائح التقنية الممتازة، ويسعى لإحكام الخطط المزمعة، وكانوا أحياناً يأتون لاستشارته من أماكن بعيدة وحتى من فناء الفصول المتوسطة ليسألوه عما يمكن أن يتعرضوا له إذا ما كسروا بلاطة، أو إذا ما قذفوا كرة عفنة، أو عن فرقعتهم لبمبة. عندئذ كان هذا الغلام الورع الفاضل يذهب إلى حدود ارتكاب الجريمة، كل هذا وهو يحصد الدرجات الممتازة وشهادات التقدير وهو يستحق لعشرين مرة أن يتجرع سم سقراط الفيلسوف.

وأخيراً، وعلى مبعدة منا للأمام، بالصف الثاني، كان أوليفا، أوليفا الصغير، الذي يضحك بتلقائية، ويلعب بالكسور العشرية، والذي يعرف، وهو مغمض العينين كيف يضرب ثلاثة أرقام.

وكانت لي خلطة أيضاً بكارير الجميل، الذي كنت ألتقي به في الفناء،

وبثلاثة من الطلاب الخارجيين هم: بيكون، وزكريا، وبيرنيبه ابن صانع السلاح. وكان هؤلاء هم أصدقائي، وهم الذين كوّنوا عالمي الصغير، الذي تحدث به باستمرار الأحداث كبيرة الأهمية، وأقر اليوم بأن حياتنا بالمدرسة حلت تقريبا ارتباطنا بعائلاتنا، التي لم نكن نتحدث عنها فيما بيننا، فلم يحدث إلا بعد مرور عشرين أو ثلاثين عاما من ذلك أن تعرفت على أصول بعض من أصدقائي هؤلاء.

فقد التقيت ذات مساء، في عشاء، بقبطان سفينة، كان هو أوليفا، الذي حولته الدراسة في المدرسة البحرية إلى رياضي، وقد أعلمني عندئذ بأنه فقد أبويه في سن السادسة، وأن اللذين ربياه هما أخواه، اللذان كان أحدهما يعمل بناء، والآخر عاملا في أحواض السفن، وأسفت على أنني لم أعلم بهذا في المدرسة الثانوية، الأمر الذي كان من شأنه أن يحببني فيه أكثر. وبنفس الشكل، لم أكن أعرف أبدا أن والد زكريا كان يمتلك ستين سفينة، ولا أن والدة «جالوبير» كانت ممثلة شهيرة جدا. فقد كان وجودنا معا قاصراً علينا نحن، وكان تواجد أي أب أو أم بالمدرسة الثانوية أمراً يجعل الابن في حرج بالغ.

من ناحية أخرى، كانت عائلاتنا تجهل تقريباً كل شيء عن حياتنا المدرسية، فلم أكن أقص عليهم بالبيت سوى الأشياء الطريفة، أو المجيدة، كحادث انزلاق «الأزرق» من على السلم أثناء النزول من المطعم، أو حادث انتصارنا، في كرة الشراب، على فريق السنوات المتوسطة. فضلا عن أنني كنت أتحدث بلغة يزيد من غموضها الاختصار المدهش، أو التحويرات الغريبة، التي كانت لغة اصطلاحية (مؤقتة ومتغيرة) للمدرسة الداخلية.

وكانت الأنباء الوحيدة المحددة التي تتلقاها عائلاتنا تأتيهم عن طريق الشهادات الفصلية، وعليّ أن أعترف، بكل أسف، أن الاطلاع عليها كان يحدث لعزيزي جوزيف، إحباطاً شديداً.

بفضل الأعوام التي قضيتها بالمدرسة الابتدائية، حصلت على نتائج مشرفة جداً في الحساب وفي الإملاء؛ وساعدني شغفي بالكلمات على التقدم السريع في الإنجليزية، وبعون من العلامة بيجو، أحرزت بعض النجاح في الترجمة اللاتينية. لكني كنت بليداً في الإنشاء، فمع أنني كنت أحفظ عن ظهر قلب دروسي في النحو، وكانت رأسي محشوة بالقواعد والأمثلة، لم أفهم كيف استعملها، وكنت أعتقد بكل طيبة أنه يكفيني أن أكون قادراً على تلاوتها. وعند ترجمة جملة كنت أفتش عن الكلمات اللاتينية في القاموس وكنت أنسخها كما هي محل الكلمات الفرنسية، وهو ما جعل سقراط يدعي أنني كنت صانع أخطاء نحوية وعبارات مبهمة متميزة، لم أكن حتى أعرف معناها.

من جهة أخرى، لم يكن التاريخ يهمني كثيراً، فهؤلاء الملوك لم يكونوا سوى عائلة واحدة، وكانوا جميعهم بابوات، وقد شنوا جميعهم الحروب، بما لم يجعلني أميز بين بعضهم البعض، على الرغم من الأرقام التي تفصلهم عن بعضهم البعض، وكان يبدو لي أنه من العبث حفظ مواد معاهدتين متعاقبتين، تلغي ثانيتهما الأولى. ثم إن هؤلاء الناس جميعاً قد ماتوا من زمن بعيد، ولم يكن بمستطاعهم أن يضيفوا لي أو يأخذوا مني شيئاً، فلا يتحدث التاريخ أبداً إلا عن الماضي. أما أنا فما كان يهمني هو المقبل، وحواديت السيد ميشيل عن الحقب الثورية، التي استهلكت التقاويم، لم تكن تعني لي أكثر من نزهة في مقبرة.

وكانت الجغرافيا تمتعني بعض الأحيان، لأنها كانت تتضمن حكايات شخصيات أكثر جاذبية، مثل ماركوبولو، الذي كانت لديه عصا مجوفة مليئة ببيض دود القز. وكريستوف كولومب وصيحة «الأرض! الأرض!» والبيضة المسطحة ذات الطرف، المستقيم في منتصف طبق - وهو ما يبدو لي اليوم شيئاً أحمق مثله مثل حل الإسكندر لمسألة العقدة الغوردية التي قطعها بسيفه - «ولا بيروس» الذي تم شواؤه في سيخ بواسطة أكلة لحوم البشر، وهو في زي

الأميرال. لكن المضائق، وأشباه الجزر، وأطراف اليابسة، والروافد، ومصبّات الأنهار كانت حقاً كثيرة العدد بالنسبة لي، فكانت تسبب لي اضطرابا لحد الغباء خاصة عندما أنظر على الخارطة وأجد أن الضفة اليسرى من نهر السّين على نفس الجهة التي تقع بها الضفة اليمنى لنهر الرون.

وكان هذا هو السبب، الذي جعلني لا أفعل شيئاً كبيراً لتحقيق مجد مدرسة طريق الشارتريين، على حين رفع أوليفا الضعيف عاليا علم مدرسة شارع لودي.

هذه النتيجة المتدنية التي حققتها كان لها عذر.

فقد تسبّبت بالقطع من سني ومن غموض التغيرات التي حورت تكويني في سن المراهقة، فقد كان من الصعب جداً عليّ أن أركز انتباهي على الموضوع المطروح، ولم أفلح في هذا إلا بمشقة كبيرة. وبالتأكيد، كان بمقدوري الانتصار على هذا الكسل الفيزيقي لو أنني كنت مفعماً بالأمل في انتصارات باهرة، لكن لسوء الحظ، كان بفضلي بيكون وجيليس، وهما شخصان غير عاديين كانا يتنافسان على ترتيب الأول.

كان بيكون غلاماً طويلاً ومتميزاً، وكان ينفحني غالبا قطع حلوى العرق سوس لكنه لم يكن يبتسم أبداً ، لأنه بسبب وجود جيليس، كانت حياته جحيما. فعندما جاء ترتيب بيكون الثاني، فقد القدرة على الحديث لعدة أيام ، وجاء اثنان أو ثلاثة من أفراد عائلته، كل بدوره، للاستفسار ـ سراً ـ من المراقب العام عن كيفية حدوث هذا الحادث الغريب.

من ناحيته، جيليس (النحيف ذو الأذنين الطويلتين) فقد طوع الكسور، وساس المفعول به المستعصي كما يسوس هنديٌّ قوسه. وكان يعرف قائمة المديريات كما يعرفها ساعي بريد بالسكك الحديدية، وكان يتحدث عن الفراعنة بدراية مومياء بعثت حية.

الأكثر من ذلك، أن حماسه وذاكرته كان يساندهما بقوة ورع أمه ودعواتها، فقد كانت عشية كل امتحان، تذهب لتشعل شمعة لقديس ذلك اليوم الحاسم. لكن هذا الحشد ـ غير القانوني في رأيي ـ لم يكن ذا تأثير دائم، ففي امتحان الحساب، عمل قربان الشموع المفسد بلا شك على إهانة بعض القديسين القدامى الأشداء، لأن جيليس لم يتراجع فيه ترتيبه أمام بيكون فحسب، بل جاء ترتيبه فيه الرابع! مما جعل أباه، وهو رجل ضخم ذو لحية من سكان شارع الفردوس، يحمر من الغضب والخزي، ويقتاده إلى طبيب ليوخزه بالإبر في مؤخرته ويأتي له بمراجع لكي يعطيه درسا لمدة ساعتين كل مساء، وأربع ساعات كل يوم خميس.

كانت المعركة بين الحالمين الاثنين وحشية لدرجة أن أساتذتنا أخذوا على عاتقهم تعيينهم أوائل بلا منازع في كل المسابقات المدرسية.

كان التفوق على هذين المسعورين، أمراً لا يجب التفكير فيه، وبدا لي أن مجدهم أمر غير مرغوب فيه، فأعينهم المحاطة بهالات السواد، وخدودهم الشاحبة، وعصبيتهم الدائمة كانت دليلاً على الأخطار الناجمة عن العمل المحموم وكنت أرتعب فعلاً عندما أرى بيكون وهو يقضم مَحَّايَتَه، أو عندما كانت تصدر بغتة ـ وبغير أن يشعر ـ من جيليس التأوهات المتقطعة. وكان من رأي لانيو أنه إذا لم تكن أمام هذين التعسين فرصة الموت في عز صباهم، فإنهما سينتهيان بالتأكيد في مستشفى للمجانين.

وكان بديهياً إذن أن كل جهودي لن تستطيع حملي إلى أبعد من ترتيب الثالث وعلى سبيل المثال، هل يغامر أحد بكل ثروته في شراء ورقة يانصيب، إذا كان لديه اليقين القاطع بأنه لن يكسب جائزة كبرى؟ لذا قررت أن المغامرة لن تأتي بالمأمول منها، وركزت جهدي الأساسي في كرة القدم، ولعبة (كلو بامية)، ونط الحواجز، ولعبة عراك الأفراس والقراءة المثابرة لمغامرا ت «بافالوبيل

ونيك كارتر»، ونات بينكرتون». وكان لانيو يشتري ثلاث مجلات صغيرة بالأسبوع وأنا أقرؤها بتأثر، بغير أن ألحظ أنها تقدم في كل مرة نفس الأشياء.

وأصاب أبي، الذي كان يتمنى لي عاماً باهراً، الإحباط من تدني نتيجة مجموعي العام، وأنبني على ذلك. فحدثته عن جيليس وبيكون، المهددين بالأنيميا، والالتهاب السحائي، وتشكيت من آلام في ركبتي، كانت حقيقية في واقع الأمر، ومن صداع وهمي في الرأس.

وعندما قال، في نبرة مغمومة: «التاسع والعشرون في التعبير اللاتيني، بدرجات أربع من عشرين!» ردت عليه أمي مباشرة:

«لكنه الأول في الرياضة البدنية، وهو يكبر بمعدل سنتيمتر كل شهر! نحن لا نستطيع أن نفعل كل شيء مرة واحدة.

ـ «حسناً، قال أبي. لكن لابد من تنبيهه أنه إذا استمر على هذه الوتيرة، فلن يصبح أبداً أستاذاً بالثانوي وسوف نكون مرغمين على أن نوظفه كمستخدم بالترام أو كمشغّل مصابيح، أو ربما عامل كرتون، أليس كذلك؟»

ولم ترهبني قط هذه التوقعات، فقد كنت أفضل أن أكون سائقاً لترام أوبان، عن الاستمرار في فصل سقراط.

ولاحظت مع ذلك بعض القلق عندما استمعت ذات مساء، عبر الحائط، لمحادثة بين أبويّ.

كان الوقت متأخراً، ولكني لم أكن قد نمت بعد، لأنني كنت قد التهمت بشراهة رطلاً من الكستناء المشوي.

وقص جوزيف على أمي حكاية زيارة قام بها ـ بغير أن يقول لي ـ للمدرسة، التقى فيها بسقراط وقتاً طويلاً.

«حسبما يقول السيد لوبليتييه، قال، فإن النمو العقلي للصغير متخلف بعض الشيء عن نموه الجسماني. وهو لا ينقصه الذكاء ولا الذاكرة، لكنه، في هذه المرحلة، لا يتطور.

ـ ماذا؟ صاحت أمي، هذا معناه مباشرة أنه غير طبيعي!

ـ ولكن لا، قال جوزيف. فالسيد لوبيلتييه من رأيه أنه سيتطور بالتأكيد لاحقاً وأنه قبل أن يصل للصف الثالث، سوف يدهشنا! فضلاً عن أن درجاته في نهاية المطاف تنجحه، فيما عدا درجات اللاتينية. لكنه في المجموع العام يمر....

ـ إن مجموعه يجعلني أسخر من اللاتينية! قالت أمي. هل رحت تقوم بدور القديس؟ الولد متخلف! لقد رأيته بنفسي، هذا اللوبيليتييه. ويمكننا القول عنه إنه متطور! فهو مدهن كالخنزير، وله مؤخرة حصان حراثة.

ـ عندما قابلته ، قال أبي، لم ألاحظ هذه التفاصيل.

ـ حسناً، ذات سبت، عندما ذهبت لآتي بالصغير في الرابعة، أشار لي على هذا السيد بالشارع، وأستطيع القول بأنه منافق كبير، لأنه حياني بتهذيب شديد وليس أبداً كما تحيي والدة تلميذ متخلف! الحقيقة أنه لا يريد الخير لابننا لأنه جاء من المدرسة الابتدائية، ولأنه أذكى مائة مرة من كل الآخرين مجتمعين! متخلّف! لقد سمعت عن خَرَقٍ كثير، ولكني لم أسمع أبداً بخرق كهذا! سوف أقول ذلك لأختي لكي أسرّي عنها بعض الشيء... أختي المسكينة، التي لم تتشكك أبداً في أنها خالة متخلف ! آه كلما تذكرت أنه عرف القراءة في سن الثالثة!

ـ «لا ترفعي صوتك هكذا، قال جوزيف، ستوقظين الأطفال!»

واستمرت محادثتهما لبضع دقائق أخرى، لكني لم أسمع شيئاً إلا

همهمات، ونمت وأنا في حالة من القلق الطاغي بسبب هذه الكلمة الغامضة.

‹› ‹› ‹›

صباح اليوم التالي، وعند وصولي للفناء، في فسحة الساعة السابعة والنصف، فتشت عن كارير، علاّمتنا. ووجدته تحت السقيفة. كان يسير ببطء، وحيداً حاملاً كتاباً في يده مغلقاً صفحاته على سبابته، وكان يحرك في سكون شفتيه الملتهبتين كأنه قس يتلو صلواته. وعندما رآني أتقدم نحوه، توقف فجأة عن السير، وبدا عليه التوحش، وأشار عليّ بأصبعه، .... وصاح:

«إن تعاستها لم تخدش قط اعتدادها

فقد ظلت لها هذه الضحكة المنغّمة

وراحت تطلي وتزين وجهها

لكي تصلح ما أفسده الدهر...»

وبغير تمهيد، قلت :

«مامعنى «متخلف» ؟ أن يكون إنسان متخلفاً، ماهذا؟»

وبدلاً من أن يجيبني بالقول، كمش فجأة رقبته بين كتفيه، ولصق ذراعيه بجسده رافعاً قبضتيه في مستوى صدره، تاركاً كفيه تتدليان، وراح يرعشهما بحالة من التشنج. ثم أخرج من فمه نصف المفتوح لساناً متدليا بلعابه، وراح ينظر بقلق بكلتا عينيه على أرنبة أنفه، وأخذ يغمغم ويثأثئ.

ثم عاد لهيئته الطبيعية، ولسيره، وهو ينوح:

«ارتجف، قالت الفتاة المسوقة للذبح!

فرب اليهود، المتوحش يعتمد عليك أنت أيضاً !»

وتبعته، ورحت ألح:

«وأنا ، قل لي ، هل تعتقد أنني متخلف؟»

فأجابني بوقار احتفالي:

«إن هذا ظاهر كالأنف في وسط الوجه»

ــ وماذا ترى؟

فأجاب

«إني أخشى عليك من التعرض لعقابه

يا ابنتي!» فمع انتهاء هذه الكلمات البغيضة

بدا ظله آتيا نحو سريري

ومددت يدي نحوه، لكي يقبلها

ونطق هذا البيت الأخير برجفة صوت عاطفية، وهو يمد يديه وكتابه ناحيتي حين قرع الطبل، حاسماً النقاش.

وقد فهمت بوضوح أنه يمزح، لكن ذكرى تمثيله الإيمائي لم تثر ضحكي، وبدأت أفكر، ببعض القلق، في حالتي .

◊ ◊ ◊

بفسحة الثانية عشرة والنصف ظهراً، حكيت للانيو ــ بنبرة مازحة ــ كل

الحكاية.

وحاول بعض الشيء، حاول أن يهدئ من روعي.

«ماذا؟ صاح مستنكراً، هل تعير ما يقوله سقراط اهتماماً؟ إنه لا يفهم شيئاً في شيء. اللهم إلا في المفعول به المطلق... أنا أقول إنك أذكى الجميع! وأنت لست الأول، ولست الأخير، كما أنك تضحك على النكات التي يقولها الآخرون، ولكنك لم تعاقب أبداً بالاحتجاز... فقد وجدت المخرج المناسب، لأنك لا تلفت الأنظار إليك. وبالنتيجة، أقول لك إنك أقوى واحد في الجميع!»

عند ذلك، وككل الأطفال تقريباً، رحت أتصنع لكي أضيف إلى فضائلي، فضيلة التواضع الشديد الظاهر، وهذا عيب تخلصت منه فيما بعد، فقد أثرت فيّ مجاملة لانيو تأثيراً عميقاً، لأنها أظهرت لي، أنني حتى من وجهة نظر صديقي، لم يكن بي أي عيب أخلاقي، في عالمنا الصغير.

كان لانيو هو البطل الحائز على العقوبات؛ وبيرلوديه، صانع «الضجيج»؛ و«شميدت» هو الأستاذ الرياضي المعترف به بلا شبيه في كرة القدم؛ وزكريا، هو البليد النموذجي؛ وفيجيلانتي الشخص الذي لا يتراجع أبداً، حتى أمام الكبار؛ وكان أوليفا معتبراً صاحب الامتياز الأكيد، ونيلب يكتب الشعر؛ وكان كارير هو العلاّمة، الحكيم، والحكم، كان لكل من هؤلاء شخصيته. أما أنا، فمن جهة كان طريق التفوق المدرسي مغلقاً أمامي بالثنائي بيكوت ـ جيليس، ونعتني سقراط «بالمتخلف»؛ ومن جهة أخرى، كان شعوري بالخوف من الاحتجاز فلم أتمكن من جذب اهتمام رفاقي وبقيت خاملاً فيما دون المتوسط.

وبدا لي هذا الموقف فجأة أمراً لا يمكن التساهل معه، وقررت أن أقوم بعمل مدو لكي أخرج منه، فلو شاء سوء حظي أن أعاقب بالاحتجاز، فسأفسر الأمر لأبي بأنني كنت مرغماً على المخاطرة دفاعاً عن شرف اسم العائلة.

ذات بعد ظهر، وفي فسحة الساعة الرابعة، وجدنا أوليفا جالساً، وحيداً على دكة تحت السقيفة، وهو أمر كان من عاداته، ولكني لاحظت أن أنفه متورّم، وأنه يبدو مرهقاً.

«ماذا حدث لك؟» سأله لاينو.

ـ «إنه بيجوما»، قال، وأرانا أنفه المشوّه المحمر.

وكان بيجوما هذا طالباً خارجياً، طويلاً، ضخماً، سميناً، وشديد البذاءة، وكان يفتري على الضعاف، ويتباهى علناً بثراء عائلته.

وسألت: «ماذا صنعت له؟

ـ لاشيء... إنه غيور مني، لأنه ترتيبه الأخير دائماً. لذا قال لي:

ـ إنهم يشفقون عليك ويعطونك درجات جيدة، فالمعانون جميعهم من العجزة، والممنوحون بائسون وقلت له أنا: «وأنت لست إلا سميناً ممتلئاً شوربة». وفجأة، لكمني في وجهي.

وفهمت أن ما قاله كان بالطبع شتيمة. على كل حال، وجدتني أغلي من الغضب لأن هذا السمين قال عنا ذلك. وذاعت حكاية هذا الفعل الشائن سريعاً في جنبات الفناء، والتفت حلقة من المتفرجين المستنكرين حول أوليفا، ووطدوا عزمهم على الانتقام انتقاماً نموذجياً. لكنهم عندما تحدثوا في شأن أن يتوجه أربعة منهم أو خمسة لتأديب المعتدي أعلنت أن هذا أمر لن يكون نزيهاً، وقلت

بيرود: «واحد يكفي.»

ـ لديك حق صاح بير لوديه، الذي كان راغباً في العراك. وسوف أتولى أنا أمره غداً صباحاً!

ـ لا، قلت. أنت لست حاصلاً على منحة ولابد لمن يؤدبه أن يكون حاصلاً على منحة!

ـ إذن من سيفعل هذا؟ سأل لانيو.

ونظرت إلى المجتمعين، وقطبت حاجبي، وقلت: «أنا».

وحلت لحظة صمت، وابتسامات أكدت لي أن سمعتي لم تكن في المستوى المطلوب لقرار بطولي على هذا النحو. وأعلن بير لوديه: «مع تقديرنا لأنك لن تغضب، فسوف يفعل بأنفك ما فعله بأنف أوليفا».

ونظرت له في عينيه، وأجبت:

«سنرى ذلك صباح الغد، في فسحة الساعة العاشرة، بالفناء الخارجي».

ولمحت الدهشة على العديد من الوجوه، واندهشت أنا نفسي من لغة الحديث القاطعة التي تفوهت بها. ومع ذلك، وضع لانيو يده على كتفي، وأعلن بطريقة زعامية: «لا تشغل نفسك به، فأنت لا تعرفه. وأنا أعرفه».

ولم أقل شيئاً، ولكن لكي أؤكد ما أعلنه صديقي، وضعت يدي في جيوبي وابتسمت ابتسامة خبيثة، كما لو أنني شخص ظل يخفي طويلاً أوراقه، ولكنه سوف يلقي الآن بورقته الرابحة.

هذا السلوك بدا أنه ترك بعض الانطباع على المشاركين، وهو على كل حال كان مريحاً لي، فاستجبت بخطوة هادئة، ولكن مترنحة، لنداء الطبل.

كانت ساعتنا المذاكرة مجيدتين. فلقد تجول النبأ من درج لآخر، وراح الجميع ينظرون نحوي، كل بدوره معبراً بالإيماءات أو الحركات الجسدية عن استحسانه، وإعجابه، وقلقه، وعدم ثقته.

وانجذب اهتمام السيد باير سريعاً لهذا الجو غير المألوف ؛ وعندما أشار لي نيلب المتشائم إشارة عدم الموافقة، اتهمه بأنه «يقوم بدور القراقوز منذ خمس دقائق» وهدده بوضع صفر له في السلوك، وهو الأمر الذي يعد سابقة في حياته المدرسية. ثم سأل فيجيلانتي ما إذا كان قد انتهى من ليّ عنقه باتجاهي. وتوقفت الإيماءات، فمرر لي بعضهم سراً أوراقاً ، مصحوبة بغمزات أعين من بعيد!

«إذا أنت ضربته أولاً فستورّمه». (شميدت) ـ «اضربه بكعبك في أصابع قدميه» (ريموسا) ـ «لا تأكل كثيراً هذا المساء». (نيلب) ـ زغزغه، فهذه نقطة ضعفه». (أوليفا) ـ «إذا أورمك، فسأتولى أمره عنك». (بيرلوديه) «رشقه فلفل أسود في عينيه، ليس إلا». (كابانيل، المدعو «خطم الكلب»)

وأجبت بهزات من رأسي بطريقة الشكر، وبابتسامات تؤكد اطمئناني، ولأني كنت قد أصبحت محور اهتمام القاعة، شعرت بالقوة أكثر فأكثر، وصرت ممتلئاً بالثقة والزهو.

واصطحبني لانيو حتى باب بيتي. وفي الطريق، غيرٌ من نبرة صوته، إذ قال لي فجأة: «اسمع، هناك شيء نسيته!»

ـ وما هو؟

ـ ماذا لو عوقبت بالاحتجاز؟

ـ حسنا، سأقول الحقيقة لأبي، وسوف يهنئني!

ـ أنا ، أقول لك ... وأنت تفهمني ... إذا أردت الانسحاب في اللحظة الأخيرة، يمكننا أن نفسر الأمر للآخرين بأنك تخشى الاحتجاز، لأنك ممنوح!

ـ «حسنا ، هل تعتقد أنني أفكر في الانسحاب ؟»

ولم يجبني في التو، ثم قال بصوت منخفض :

«بيجوما أكبر منك، ثم إنّه شرس.»

وأثر في نفسي اهتمامه هذا، لكن عدم ثقته فيّ أغضبتني».

«هل أنت خائف عليّ، الآن؟

ـ أعني أن ...

ـ «حسناً ، غدا صباحاً في العاشرة وخمس دقائق، سترى ما أستطيع فعله!»

<> <> <>

بعد العشاء ، وأثناء ما كنت أخلع ملابسي، جاءت أمي لغرفتي، وقالت بصوت خفيض.

«ماذا دهاك ؟ هل أعطوك نمراً سيئة ؟

ـ لا ، يا ماما، أؤكد لك ...

ـ أنت لم تأكل شيئاً تقريباً.

ـ هذا لأني أكلت كثيراً في الساعة الرابعة، فقد دفع لي لانيو ثمن هلالين بالزبد.

ـ لا يجب أن تقبل هذا أبداً، قالت لي، غداً سأعطيك عشرين سنتيما لكي تتمكن من دعوته على شيء. احرص على أن تنام جيداً، فأنت تبدو متوتراً قليلاً. هل تشعر بألم في الزور ؟

ـ «لا، لست أشعر بعد.»

وقبلت جبهتي وخرجت.

وأيقظ قلقها ، الذي أكد على قلق لانيو، قلقي أنا أيضاً، وهو القلق الذي رفضت التعامل معه حتى الآن، عندئذ ، تأكدت من أن الفترة الدعائية لمغامرتي قد انصرفت ... وعليّ، صباح غد أن أقاتل من أجل فعل الخير.

ولأن سمعة هذا الـ «بيجوما» كانت مقلقة، وفكرة أنه كان يهاجم الضعفاء لم تثبت أبداً أنه هو نفسه ضعيف، وأنه، ويبدو حتى على مظهره كان كثير العراك، وأنه يكسب معاركه دائماً ... ولم أكن رأيته أبداً إلاّ عبوراً بالفناء الخارجي، وباستدعائي لصوره التي كانت تهرب من ذاكرتي، تكشف لي أنه كان طويلاً مثل شميدت، ولكنه أسمن منه بكثير، «سمين مليء بالشوربة» كان هذا من السهل قوله، ولكننا لا نعرف أبداً بماذا يمتلئ البشر فلربما كان «ضخماً مليئاً بالعضلات» ، التي بمقدورها طرحي أرضاً من أول لكمة، فإذا عدت للقيام بأنف كأنف أوليفا، فإن كل سيرتي البطولية الشفوية ستتحول إلى مادة للهزل.

كان هناك سبب تقني جعلني أخشى سوء العاقبة، فهذا الأبله الخارجي لا يلكم ضحيته سوى لكمة واحدة، لكمة إنذار بسيطة، ومع ذلك فإن نتيجتها

كارثية، وبالطبع فإن أوليفا ليس قويا جداً ، لكن أنوف الضعاف ليست أكثر هشاشة من أنوف الأقوياء وأنفي أنا لن يصمد أفضل من أنفه. لقد رأيت أنفي في أبعاده الثلاثة بمرآة «البستانية الجميلة». كان رقيقاً ، ومستقيماً بشكل واضح، ورأيت أنه لطيف هذا الأنف الذي ربما أفطسه ذلك المتوحش لمدى الحياة، وقد أُصبح شكل الصيني الذي غسل وجهه بماء الكلور (كما يداعبونه) وسوف تمرض أمي لذلك ... أي جنون دفعني إذن لأن أتوجه وأنفي أمامي، نحو هذه المأساة الهزلية؟ وحاولت أن أطمئن نفسي باستدعاء إعجاب رفاقي بي، والدعم المعنوي الذي منحوني إياه عن طيب خاطر، ولكني فهمت في التو أن إعجابهم المندهش لم يكن بحال من الأحوال دليلاً على ثقتهم في قوتي، ولكنهم كانوا يشجعون الشجاعة العبثية لضعفي.

بالتأكيد، هم لا يتمنون هزيمتي ، ولكنهم سيسخرون منها بلا رحمة، في الوقت الذي سيعمل أوليفا ولانيو على تضميد أنفي الأفطس وعينيّ المتورمتين بمناديلهما المبللة.

وشعرت بقشعريرة تعذبني، ورحت أفتش عن طريق للهرب من المذبحة بغير أن أفقد ماء وجهي .

إن الجبن دائماً ماهر. لذا فقد شرعت بعمل سيناريو.

كانت أمي بادية القلق على صحتي، ولم يكن أمامي إلا التظاهر بأنني في بداية مرض شديد باللوزتين، وسوف تحتجزني بالبيت ليومين أو ثلاثة، خلالها، وبحجة أنني أجد صعوبة في البلع، أكف عن الطعام تقريباً. وهذه التمثيلية، سوف تمهلني حتى صباح الجمعة . بعدها، أعود للمدرسة بسحنة صفراء، وخدين ضامرين، وأنا أعرج بسبب آلام ركبتي.

وسوف يستقبلني الكثيرون بابتسامات بشعة، أو بهمهمات فظة. سأدعي أنني لم أرها، وسأقول للانيو كأنني أسر له بسر«إن الطبيب منعني من الخروج،

لكني جئت لكي أقتص من بيجوما.»

عندئذ، سيرفع كل من لانيو ، وبيرلوديه، وأوليفا ، وفيجيلانتي، أذرعهم صوب السماء ويصيحون :

«أنت مجنون ! ـ ستتعارك في الحالة التي أنت عليها! شجاعة كهذه ، أمر لا يصدق!»

ثم ألح أنا وأتوجه في فسحة الساعة العاشرة ـ وأنا أعرج ـ للبحث عن بيجوما، ويتبعني أصدقائي، وهم يحجزونني بأذرعتهم عن التقدم، بينما أطوح أنا بذراعي في الهواء معاركاً وأنا أصيح بوحشية صيحات مرعدة ـ وفي النهاية يتطوع بالذهاب بدلا مني بيرلوديه ليؤدب بيجوما.

وبدت لي هذه الخطة محكمة، وضحكت في صمت لحيلتي التي وجدتها شيطانية ... ونمت، مطمئناً وراضياً، إلى أن سمعت صوت جوزيف ، الذي كان يمر بالممر في طريقه للنوم وهو يدندن بصوت خفيض :

النصر الذي نتغنى به

يفتح أمامنا الحواجز ...

عندئذ ، شعرت بوجنتي تشتعلان، وخبأت رأسي تحت الغطاء.

<> <> <>

ركلة قدم في عظمة الساق، ولكمتان في الوجه، هل يساوي هذا عناء تمثيل دور الأحمق الذي لا ينخدع فيه ربما أحد، والذي لا ينطلي عليّ أنا

شخصياً؟ ماذا يمكن أن يقول أبي، وماذا يمكن أن يقول بول، إذا عرفا بجبني؟ ولأنني وعدت فسأذهب للتحرش ببيجوما ـ وإذا أوقعني أرضاً، فسوف أقوم، وأهاجم.

مرتين، ثلاث مرات، عشر مرات، حتى يهرب صائحاً من الخوف؛ وإذا خرجت من المعركة بعينين متورمتين وأنف معوج، سيحملني أصدقائي كالمنتصر، لأنه لا شيء أجمل من المنتصر الجريح ...

ورحت أفكر في فرص انتصاري ، هادئاً، محملقاً بعيني في الظلام.

‹› ‹› ‹›

لم أكن قد تعاركت من قبل مع أحد عراكاً جدياً. ففي المدرسة الابتدائية، منحني اعتباري ابناً لجوزيف، حصانة كاملة ؛ وبالمدرسة الثانوية ، أبعدني خوفي من الاحتجاز عن العراك، ولكني في الفناء بالألعاب العنيفة، مثل الهجوم السريع، أو لعبة «رولان في رونسينو» ، أثبتت صلابة كبيرة في فن الاشتباك بالأقدام؛ وفي معارك الملاكمة التمثيلية، فاجأت سرعتي في غالب الأحيان خصومي، ففي يوم معين ورمت بغير قصد عين ريموسا، الذي قال لي قولا لن أنساه : «أنا أعرف جيداً أنك لم تقصد، فأنت لا تعرف مقدار قوتك!».

وأراحني هذا التعبير الذي تذكرته. فتذكرت أيضاً، أنني أثناء اللعب مع لانيو ونيلب، تمكنت في غالب الأحيان عملياً من ليّ أذرعتهم، ممتناً في هذا لنيك كارتر، أو من الضرب بالكوع من أسفل لأعلى، وهي الضربة التي صنعت مجد نات بنكرتون. كما أنني تحققت، منذ بعض الوقت، و من خلال

رؤيتي لعضلات أذرعي، أنها صارت بارزة، وأنها أصبحت صلبة كالخشب ... وجعلتني كل هذه الأسباب مليئاً بالثقة، فقررت النوم فوراً ، لكي أكون «في حالة استعداد» للمعركة.

لكن ليلتي مع ذلك انقضت في توتر ، لأنني ظللت حتى الصباح أقاتل بيجوما المرعب. كان قوياً جداً حقاً، ولكنني كنت أسرع منه كثيراً، ولقد أوسعته بوابل من الضربات المباشرة، الخطافية والمتتابعة، فأورمت أولاً عينيه الاثنتين، بالضرب المباشر الأنيق الذي أثار التصفيق. ثم وجهت الضرب لأنفه، الذي كان طرياً كالأذن، ثم انتفخ في الحال.

وراح يرتجف من الحقد والخوف، ولكنه بدلاً من أن يهرب، سدد نحوي ثلاث ركلات، تفاديتها بقفزات ضفدعية بسهولة غير طبيعية ... وعندما نهضت ، أمسكت بيدي الاثنتين قبضته اليسرى، فخلعت ذراعه من كتفه بليّه على نيك كارتر، ورحت أُركّعه بهذه الطريقة، في الوقت الذي أمسك بي فيه لانيو، وهو يقول : «كفى ، كفى، يكفي هذا!»

◊ ◊ ◊

ووصلت إلى المدرسة مع بداية الفسحة الأولى الصباحية، وأثناء ما كنت ألبس قميصي بقاعة المذاكرة الخالية، ظهر لانيو مع أوليفا وبيرلودييه وبعض الآخرين، وكان من بينهم اثنان من المعانين بقاعة المذاكرة المجاورة. هم بن سيبول، وهو أفريقي، والياباني القصير الذي يلقبونه (سيترونيه).

ونظر الجميع نحوي بفضول، وسألني بيرلودييه الساخر :

«أما زلت عند قرارك؟»

وأجبته بغلظة : «أنا لا أرجع في وعدي أبداً.»

وبدا القلق بوضوح على وجه لانيو وصاح :

«أنت لم تعد بشيء أبداً ! أنت فقط قلت ...

ـ قلت إنني سأحطم وجه بيجوما، وسأفعل ذلك في العاشرة.

ـ افعل ذلك إن شئت، قال فيجيلانتي، ولكن لا أحد يجبرك على هذا.»

كانوا جميعاً يخشون عليّ من النتيجة لأنهم لم يعلموا بانتصاري الذي حققته أثناء نومي، عندئذ ظهر كارير ، الذي كان يضع يده اليسرى ـ وهو يمر ـ على الدراج، لكي يستند وهو يعرج.

واعتقدت أنه جاء ليضبط الأمور، ليمنعني من العراك. لكنه بسحنته الجادة. الجميلة كسحنة وجه رجل ، قال بهدوء :

«إنني فخور لكوني صديقك . وأجده أمراً في صف الدفاع عن الخير، أن تهاجم غلاماً هو يقيناً أقوى منك، وأنا على يقين من أنك ستنتصر عليه لأنك تعارك من أجل الكرامة. وكل ما يمكن أن تخشاه، هو الاحتجاز، أو الاحتجاز لنصف يوم. ولكني سأساعدك في هذا الأمر. فالأزرق هو الذي يراقب الفسحة . وهو في العادة لا يقول شيئاً لأحد، لكن العراك، قد يجذب انتباهه ... لذا فسأتكلف بإشغاله بأن أطلب منه حل مسألة في الجبر ... وبالنسبة له، يعد الجبر أمرا لذيذاً كالكراملّة الطرية، وبإمكانك القتال في هدوء.»

وزغرد ستيرونيه ، بصوته الخفيض : «تعال معي إلى الفناء، سأريك حيلة ».

ـ أية حيلة ؟

وشرح لي بدماثة :

«ستمسك بإصبعه من منتصفه، وتثنيه هكذا بطريقة عكسية، فهذا سيكسر إصبعه، ويفك أربطته، ويجعله يبكي على الفور.

ـ هذا أمر معقد، قال بن سيبول ، والأفضل ضربة خطافية في البطن، عندها سينحني، ثم تضربه ضربة ركبة في أنفه وستتفعص كالتينة.

ـ أنتم لطفاء حقاً، قلت، ولكني أعرف ماذا سأفعل.

ـ نعم ، سخر بيرلودييه ، فما ستفعله معه، أنت تعرفه ـ لكن ما سيفعله بك، أنت لا تعرفه! على كل حال، لو أنه قطعك إرباً فلدي لفّة ورق لاصق!

– اخرس أنت! قلت بغلظة. لا تنرفزني، وإلا بدأت بك!» وخطوت خطوة للأمام، مقلصا أكتافي ومغلقاً قبضتي.

عندها ، تظاهر بيرلودييه بالرعب، ورفع ذراعيه لأعلى، وصاح بصوت حاد كصوت الفتيات : «النجدة ! يا أمي! إنه يريد ضربي! النجدة!»

وهرب إلى الفناء، في قهقهة عامة، لكن قرع الطبل ودخول السيد باير وضع نهاية لهذه التمثيلية.

‹› ‹› ‹›

قبل الفسحة الدامية، كان عليّ أن أقطع ساعة مع قواعد النحو الفرنسي، ثم ساعة مع اللاتينية. وراح صوت سقراط يرن في أذني، مرة ثانية، بشرح المفعول به المطلق الأثير لديه. أثناء ذلك ، عرض عليّ لانيو، المستشار بانتظار المأساة، خطة للمعركة، بجانب فمه.

«إذا شئت ، سأذهب لأحدثه أولا . وأنت تأتي له من الخلف ...»

وهمست : «لا ، أريد أن أهاجمه وجها لوجه» .

ـ «دعني أقول لك ...»

وكنت أريد أن أدعه يكمل، لكن سقراط لم يدعه:

– «السيد لانيو، قال، إني أرى على وجهك تشنجاً يثير القلق، فمن يصدق أن فمك يقع أسفل أذنك اليسرى، ولو رغبت في أن تجنب نفسك عناء ساعتين من الاحتجاز، أنصحك بأن تعيد فمك إلى ما تحت أنفك.»

ولزم لانيو عند ذلك الصمت، لكن بيرلودييه راح يريني من بعيد، من لحظة لأخرى، لفة الورق اللاصق. وتظاهرت بأني لا أراها. وعقدت ذراعي على صدري كما يفعل التلاميذ الطيبون، وكان ذلك في الحقيقة، من أجل أن أتحسس عضلاتي، فقد رحت أحركها، لكي أعدها للمعركة ... لكن الوقت لم يكن يمر، وشعرت بالتنميل في ساقي، وغزا المفعول به المطلق السبورة السوداء ، وأخذ لانيو يرقص ركبتيه على أطراف قدميه، وراح الحبر يهتز على سطح المحبرة .كانت شمس يونيو تبعث ضوءا ذهبياً يغمر الفناء الخالي من خلال أشجار الدلب، هذا الفناء الذي ربما سال فيه الدم بعد قليل ...

لا ، لم أعد خائفاً، وشعرت باستعدادي للانتقام لأنف أوليفا وبإعلاء شرف قاعتنا الدراسية، وشرف اسم العائلة، ولكني وجدته أمراً شاقاً أن يظل المرء مستعداً هكذا وقتاً طويلاً، ورحت أترقب بكل قواي دقات الساعة الكبيرة، وأخيراً دق جرسها الصغير دقة. فقد كانت الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق، ثم قرع الطبل.

أثناء زحمة الخروج، تقدمت بخطوة واثقة باتجاه باب الصف السادس ب، كان لانيو يسير إلى يميني، وبيرلودييه إلى يساري، وتبعنا عشرة من الطلاب

المعانين، وجرى أوليفا، الذي كانت أنفه قد أصبحت زرقاء ، للقائنا، بصحبة نيلب.

«لا تفعل! قال لي أوليفا لقد أخطأت حين قلت لك، لا تذهب!»

وأزحته بنبل من طريقي، ورأيت بيجوما مستنداً إلى دعامة من دعائم السقيفة، وهو يلوك هلالاً بالزبد بين فكيه السمينين . كانت رأسه أكبر من رأسي، لكنها لم تكن بالضخامة التي خشيتها ، وكانت طيات الدهن بادية الغلظ على فحذيه، بما دعاني إلى التخلي عن فكرة أنه مليء بالشوربة حقاً.

وفي صمت مطبق رحت وانزرعت أمامه وقلت :

«هل أنت بيجوما؟»

وأجاب، وهو يلوك بلذة هلال الزبد، باستخفاف شديد :

«نعم، ومت بغيظك.»

وسمعت قهقهة، ولكني لم ألق بالاً لهذا الاستهزاء.

«يبدو أنك قلت إن المعانين هم من العجزة وإن الممنوحين مساكين. هل لديك من الشجاعة ما يجعلك تعيد هذا القول؟»

كنت أحسب أن هذا الاستهلال، الذي قلته في نبرة عدوانية، سيخجل الغريم، وأملت كثيراً في أن يلجأ للاعتذار، لكنه نظر لي بدهشة ملؤها الاحتقار وأعلن ، وهو يضغط على حروف كلماته :

«إن المعانين هم من العجزة، والممنوحين مساكين، والدليل على ذلك هو أن الحكومة تطعمكم هنا، لأنه لا يوجد في بيوتكم ما تأكلونه.»

ثم دفع إلى فمه بالنصف الثاني من هلال الزبد.

وعلت همهمة استهجان بين الجمع، ووجدتني فجأة مشتعلاً بغضب

محتدم كغضب قطّ ثائر. فهذا الغلام تحدث عن فقر جوزيف! واندفعت باتجاهه في وثبة واحدة. وبظهر راحتي المفتوحة، ضربته من أسفل لأعلى.

في فتحتي أنفه، بكل قواي التي ضاعفها الغضب. كانت هذه هي ضربة نات بنكرتون التي «تفقد الغريم توازنه»، وقد نجحت ضربتي مزدوجاً لأنها لم تقلب فقط فتحتي أنفه باتجاه سقف الرواق، وإنما أيضاً لأن راحتي دفعت في طريقها، بنصف هلال الزبد ـ الذي كان طرفه بارزاً ـ حتى حلقومه.

وتلقيت في نفس اللحظة ضربة عنيفة على عيني اليسرى، ثم سمعت ضجة بشعة لتجشؤ متقطع، وتبعتها قرقرة غثيان، وخطوت خطوة للوراء ثم اندفعت من جديد، وضربته مرتين في تجويف بطنه، وانثنى وهو يتقيأ مضغة هلال الزبد، ثم أدار لي ظهره، عارضاً أمامي مؤخرته الكبيرة، التي دفعتها بنعلي، دفعة عنيفة، فألقيت به في الفناء الذي تمدد فيه على بطنه، على حين راح المتفرجون يحيونني بالصيحات العالية.

وتبعته، وأنا أُحدِّث ظهره الممدّد، وأصيح:

«قف، أيها الجبان، انهض فلم أنته منك بعد! فليس هذا إلا البداية!»

واستدار على جنبه، وراح يرفس رفسات عبثية، ونصحني فيجيلانتي قائلاً:

«اقفز على بطنه!»

وتوجهت لأطأه بقدمي، حين أمسك بي أوليفا ونيلب، كل من ذراع، وسمعت صوت لانيو يردد قوله الذي حلمت به:

«كفى، كفى، هذا يكفي!»

ونهض الغلام السمين فجأة، فدفعت بقوة أصدقائي لكي أنطلق باتجاهه.

لكن الأزرق الذي أفلت من إغواء مسألة كارير، ظهر من وراء الأعمدة،

وبدا على وجهه للمرة الأولى اهتمام بالأحداث. وألقى الجبان بنفسه أمامه وهو يصيح: «ياسيد! ياسيد! انظر ماذا فعل بي!»

كان عندما سقط على وجهه، نزل على شفته العليا، التي سال منها الدم وتورمت أمام أعيننا.

ونظر الأزرق لهذه الظاهرة بفضول حقيقي، ثم أجاب بلا أي انفعال:

«رأيت، وقد رأيت كل شيء، وسمعت كل شيء. هيا انصرفوا».

وألح بيجوما، المذهول: «إنه طالب معان! هو هذا!» وأشار عليّ بأصبعه.

«أعرف، قال الأزرق، أعرف».

ثم صمت، متفكراً. وانتظرت، بلا حراك، كلماته الحاسمة التي ستحدد عقوبة انتصاري، فهل سيقتادني إلى المراقب العام؟

وقرع الطبل طويلاً، ولكن بلا جدوى. فقد ظل الجمهور الفضولي، الذي أحاطنا ثابتاً في مكانه لا ينطق، بانتظار المحاكمة.

عندئذ، قطب الأزرق فجأه حاجبيه، وقال بحزم:

«ماذا؟ ألم تسمعوا الطبل! انصرفوا!»

وأدار ظهره لنا وابتعد في خطوات هادئة، في زحام الطلاب، وأحاطني أصدقائي، الطافحون بالسعادة والزهو، بموكب منتصر حتى فصل الانجليزية.

هذا النصر كان له صدى كبير في فناء الداخلية. وراح لانيو يقص قصة المعركة بطريقة هوميرية، وخلص إلى القول:

«لو لم أكن هناك لأمنعه عنه، لكان قد أجهز عليه!»

وراح بيرلوديه يعرض ما حدث كخبير تقني، وأثنى جداً على ضربة ظهر

اليد أسفل الأنف، التي رحت أوضحها عدة مرات، لحلقة من طلاب المعرفة. ولكي يكتمل المجد، كانت الضربة الوحيدة التي تلقيتها قد أورمت لي عينا، أحمرت في بادئ الأمر، ثم تحولت لدائرة ملونة شديدة الوضوح بعد الظهر.

لقد كان حقاً يوماً مجيداً، عكرته قليلاً خشية النتائج المحتملة لانتصاري، لأن سلوك الأزرق ظل بالنسبة لنا غامضاً. فقد رأى البعض أن الكلمات التي تفوه بها، كانت هي كل ما لديه ليفعله، ورجحوا أنها تعني تصفية كاملة للموضوع، وتوجس الآخرون من أن هذا لم يحسم أمر شفتي بيجوما المتورمتين، وأن ضجة انتصاري، لم تصل بعد إلى الأذنين المفتوحتين على وسعهما باستمرار ـ للسيد المراقب العام. ولأن هذه الفرضية المقلقة لم يكن من الوارد تصور نتيجتها إلا في الغد ـ أي في أزمنة المستقبل ـ قررت ألا أفكر فيها إلا عندما يحين وقتها وأن أستمتع في هدوء بانتصاري.

وأثناء المذاكرة، نظر نحوي السيد باير باهتمام، وسألني «عمن فعل بي هذا» وأجبت بتواضع بأنني أثناء لعب الكرة، تلقيت ركلة كرة في عيني، وهو تبرير معقول، قبل به جوزيف في نفس المساء بلا أي نقاش.

‹› ‹› ‹›

صباح اليوم التالي، وفي قاعة المذاكرة الخالية، انتهيت من تزرير قميصي وأنا أتحدث مع شميت ولانيو. وكان ورم عيني قد تقلص، لكنه ظل داكن اللون، لأنني تمكنت، بسبب فركه أثناء الليل، من إفساد الأثر العلاجي للكمّادة التي وضعتها لي أمي، والتي ـ بسبب من سذاجتها ـ عملت على محو أثر جروح المجد التي جهلت قيمتها.

وفي اللحظة التي شرع فيها لانيو بالثناء على عيني، أطل صدر الفراش ـ الطبال من فرجة الباب المواربء، ونادى عليّ وصاح:

«مطلوب لدى المراقب العام!»وروّع لانيو، وقال بصوت خفيض:

وروّع لانيو، وقال بصوت خفيض: «لقد فعلها الأزرق، وقدم تقريراً!»

ونزل عليّ هذا النبأ المخيف كالضربة في أحشائي، وأصابني الشحوب، بينما راح شميدت يجاهد لطمأنتي:

«ما الذي تخشاه؟ قال. ربما بسبب سوء عملك، أو سوء سلوكك. لقد كنت تدافع عن صديق. فأنت تستحق التكريم لا العقاب!

ـ «ربما ، قلت. لكن لو حرموني من المنحة؟»

ودخل فيجيلانتي، ووراءه أوليفا.

«ماذا؟ صاح. إن هذا سيكون جريمة! أنا أقول إنهم سوف ينذرونك لا أكثر».

وانبرى أوليفا بحزن.

«سأذهب معك. وسأقول إن هذا كله بسبب خطئي أنا!»

ـ غير صحيح، رد لانيو. إنه كله خطأ السمين المليء بالشوربة! اشرح للمراقب العام أن بيجوما قد اعتدى عليك، وكل الناس سيشهدون معك!

ـ هذا ، قال فيجيلانتي بوقار، سيكون كذباً لأنه لم يحدث!

ـ ماذا؟ صاح لانيو مستنكراً، من واجبنا أن نقسم على أن بيجوما بدأ بلكمه في أنفه! ولسنا بحاجة للقول بأن ذلك حدث مع أوليفيا!

ـ «معه حق، أعلن شميدت. هيا بنا جميعاً».

وأطل جذع الفراش المائل ثانية، وصاح:

«وماذا بعد؟ هل سمعت؟»

وخرجنا معاً إلى الممر، الذى كان الفراش بشخصه، بانتظاري فيه. ونظر إلى أصدقائي، وسأل:

«ماذا يريدون، هؤلاء؟»

ـ نحن شهود! قال لانيو. سوف نقول للمراقب العام إنه لم يكن مخطئاً، وأن الآخر هو الذي بدأ!

ـ لو أنه هو الذي بدأ، فهو المخطئ! قال الفراش.. إن أنفه صارت كالفلفلة الحمراء. وفمه مشقوق متورم. وأبوه في حالة من الثورة والغضب وقد سأل المراقب العام ما إذا كانت هذه مدرسة ثانوية، أم مذبحاً.»

عندئذ ، أصابني الرعب فعلاً وبدا القلق على لانيو.

«هل جاء أبوه؟»

ـ «جاء، ومازال هناك. لقد تركتهم، هو وأبوه، والمراقب العام، والسيد برنيول، الذي كان يحكي ما حدث».

كان السيد برنيول، هو نفسه الأزرق وفهمت أنني ضعت واستندت لكتف لانيو.

«ومع ذلك، فقد صنعت صنيعاً حسناً، قال فيجيلانتي. وأرضيت ضميرك!»

ضميري! بماذا سينفعني ضميري! فلو أن بيجوما قد تشوه وجهه، فسأعرض بكل تأكيد على مجلس تأديب وسأفقد منحتي. ولن يكون أمامي مخرج سوى الهرب مع ليلي في التلال...

وسار أوليفا أمامي. وكان يلتفت وراءه من وقت لآخر، وهو ينظر نحوي بخضوع وصرت أمقته. فقد كان بالفعل ملاك الشر بالنسبة لي، ففي امتحان المنحة، خطف مني ترتيب الأول، وهذا أنا بسببه، وبسبب كرامة أنفه، قد أطرد من المدرسة الثانوية، لكي أجلب العار لأبي. ورحت ألعنه من أعماق قلبي. وأسفت بمرارة لهذا الانتصار الذي أضاعني ودمّر عائلتي... ثم رحت أفكر فجأة في هذا الأب الغاضب، الذي ربما صفعني أمام الجميع... إن ذلك لوحدث سيكون طامة كبرى... وعندما طرأت هذه الفكرة على خاطري، وجدتني أنكمش، وأرغمت نفسي على الوقوف، لكي آخذ نفساً عميقاً أمام الأعين القلقة لأصدقائي والتفت الفراش الذي كان يتقدمنا، وقال مرة ثانية:

«هل ستأتي ؟»

ووصلنا أخيراً أمام الباب المزدوج الذي يمر منه كل يوم، منذ سنوات، كل المعاقبين، ولم أكن قد مررت به أبداً، وتوقفت من جديد.

وأبعد الفراش مرافقيّ، بغير أن يبدو عليه أي انفعال، ثم أمسك بي من كتفي، وقرع الباب خفيفاً، وأرهف سمعه، وفتح الباب، ودفعني بداخله، وأغلقه خلفي.

‹› ‹› ‹›

رأيت في بادئ الأمر ظهر الأزرق ، كان واقفاً، ويده اليسرى مطبقة على قبضته اليمنى وراء ظهره. وعلى الناحية الأخرى من المكتب، كان السيد المراقب العام جالساً، ثابتاً، أمام دفتر مفتوح.

إلى يسار ظهر الأزرق، كان بيجوما واقفاً، وقد أدار وجهه ناحيتي عند دخولي. وذهلت لمنظر شفتيه المتورمتين وأنفه المتنفخ، المصفر كالزعفران في شوربة السمك. ويمكن القول إن وجهه كان يشبه قناع كرنفال.

كان مكشّراً تكشيرة لا إرادية، وربما أبدية، تشهد على وحشيتي طيلة عمره، وأملت للحظة أن تتمكن إصابة عيني، مع عرض أنف أوليفا، تعويض جانب من الأضرار التي أصابت الطالب الخارجي، لكن المقارنة بين جروحنا مع هذه الكارثة الفاقعة لم يكن بمستطاعها إلا أن تفاقم من وضعي، وقررت مسبقاً أن أمتنع عن ذكر ذلك.

إلى جوار بيجوما، كان يوجد رجل طويل جداً، يرتدي بذلة زرقاء فاتحة فخمة، ويمسك في يده بقبعة من اللباد الرمادي.. وكان أصبعه الصغير في يده يزينه خاتم ذهبي ثقيل، كان يساوي ثروة. وعندما رفعت عيني، رأيته أصهب اللون، كاليوسفي. كانت أمي تقول لي بزهو: «إن أسماك القرش، إما أن تكون طيبة جداً أو شريرة جداً». ترى من أي نوع هذا الرجل؟ لا يمكن الحكم في ذلك من النظر ولكن بعد ماذكره عنه الفراش. خشيت ألا يكون طيباً .... ولاحظت أن الأزرق كان يتكلم، بنبرة عدم اكتراث كامل، كما لو كان يسمع درساً، وهو يغمغم:

ـ «في تلك اللحظة، سمعت التلميذ بيجوما يقول بصوت عال: «إن الطلاب المعانين عجزة، والممنوحين، مساكين، والدليل أنهم يطعمونهم بالمدرسة الثانوية لأنه لا يوجد في بيوتهم ما يأكلونه . ثم ....»

ـ لو سمحت ! قال الرجل ذو الخاتم. اعذرني إذا قطعت حديثك.

واستدار ناحية ابنه، وسأل: «هل تعترف بأنك تفوهت بهذا الكلام؟»

ونظر بيجوما، بعين شريرة، ونطق بصعوبة من خلال شفتيه المتورمتين.

«لقد قلته لأن هذه هي الحقيقة!»

وحل صمت قصير، خلع أثناءه الرجل الأصهب خاتمه، وأنا أتابعه بدهشة، بينما قطب السيد المراقب العام حاجبيه، وهو ينظر إلى بيجوما باستنكار. وشرع في الحديث ولكن لم يكن لديه متسع من الوقت لقول شيء.

فقد هوت اليد اليمنى للرجل الأصهب، بحركة سريعة خاطفة، وطرقعت على وجنة الشاب، الذي ارتجف وترنح.

وابتسم السيد المراقب العام، بينما استدار نحوي الرجل العادل، وهو يعيد لبس خاتمه في أصبعه.

«ياصديقي الشاب، قال لي، إني أهنئك لأنك أدّبت هذا الأحمق كما يجب، وآمل أن يغفر السيد المراقب العام هذا الحادث المؤسف وألا يتوقف عنده.»

ثم أمسك بابنه من كتفه، ودفع به باتجاهي.

«قدم اعتذارك لهذا الغلام»، قال:

ونظر لي بيجوما، نظرة زائغة. وتحت سطوة الأمر الأبوي أجاب:

ـ أنا لا أعرف ماذا أقول.

ـ أعد ورائي: «آسف على تفوهي بهذا الكلام الكريه، وأرجوك أن تتغاضى عنه.»

ووقف متردداً وراح ينظر في كل الأنحاء، ثم أغمض عينيه، وراح يردد الجملة وهو يتلعثم في كل كلمة منها.

«حسنا، قال السيد بيجوما. والآن، ياسيدي المراقب العام، أعتذر أنا الآخر لك عن إضاعتي لوقتك الثمين، فهذه الحكاية، التي رواها لي ابني بطريقته،

كانت تستوجب الإيضاح».

واصطحبه السيد المراقب العام حتى الباب، وهو يحتفي به بكلمات التهذيب. ولكنه عندما فتح الباب، سقطت أذن لانيو المنحني أمام الباب على صدر السيد بيجوما، كما لو كان يريد تفحص صدره كالطبيب... ودفعه مريضه المندهش بانفعال، مما سمح للانيو بالهروب قبل أن يتعرف عليه أحد.

ورحل بيجوما وأبوه، وجاء نحوي السيد المراقب العام، ورفع ذقني بطرف سبابته وتفحص عيني، وقال: «لن تكون هناك مضاعفات».

ولأن الطبل قرع، أضاف:

«بفضل كرم السيد بيجوما، فلن أعاقبك هذه المرة. انصرف!»

‹› ‹› ‹›

وخرجت، يغمرني الفرح. ووجدت في الممر ليس فقط شهود زوري الجادين، وإنما كان هناك عشرة «مشجعين» آخرون قد جمعهم ـ أثناء هربه ـ المخلص لانيو وراحوا يضحكون بسعادة، وهم يثنون عليّ، متعلقين بأكتافي. وأخذ أوليفا الصغير يضحك بتوتر، والتمع على أرنبة أنفه المزرقة أثر دمعة فرح، ولكنه لم يتجاسر على الاقتراب مني، فدفعت عني الآخرين، ورحت أحتضنه.

‹› ‹› ‹›

في صباح اليوم التالي، قطعت ثلاثة أزرار من قميصي، تركت مكانها ثلاث ثقوب ممزقة، ثم نسلت خيطاً من خيوط حياكته، وربطت به النسيج القوي الذي تخيرته لي أمي من الناحيتين، وأرخيت جواربي فوق حذائي.

وابتداء من ذلك اليوم صار بيجوما عندما يراني قادماً إلى الفناء، ينظر لي نظرة غاضبة مهددة، ثم يبتعد متسللاً إلى جوار الحائط، أو ينسحب هارباً متواريا وراء عمود من أعمدة السقيفة، وتعالت شهرتي.

كنت أستمتع بذلك في هدوء، وبغير أن أسعى للعراك، وأنا أفكر في نصف هلال الزبد. كنت أعرف تماماً أن قرن الحلواني هذا الذي لاكه بيجوماً بلا حذر قبل المعركة، كان هو السلاح الأساسي الذي نصرني، وكان من التهور التفكير بأن يمنحني القدر كل يوم خصوماً مدججين بهلال الزبد يطل من أشداقهم... وهو ما دفعني لا أستعرض قوتي إلا عبر نفوذ نظرتي، والغضب الهادئ في كلماتي، والهروب المتكرر لبيجوما.

وبهذا الشكل أثبتُّ شخصيتي مع نهاية العام بدون عناء، وتربعت نهائياً في مكان مرموق بين المقاتلين المرهوبين ومقومي الاعوجاج.

**انتهت**


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



صدر في هذه السلسلة:

(١) أيام من حياتي ❖ هرمان هسه
(٢) قصص التحول ❖ جوجول، كافكا، روث
(٣) أثر العابر ❖ أمجد ناصر
(٤) من مجمرة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
(٥) حمار البحر ❖ خالد عبد المنعم
(٦) خطوط الضعف ❖ علاء خالد
(٧) ممر معتم يصلح لتعلم الرقص ❖ إيمان مرسال
(٨) ثمة موسيقى تنزل السلالم ❖ علي منصور
(٩) صمت قطنة مبتلة ❖ فاطمة قنديل
(١٠) شهرزاد في الفكر العربي الحديث ❖ د. مصطفى عبد الغني
(١١) إغواء الغرب ❖ اندريه مالرو
(١٢) لا أحد يأتي هذا المساء ❖ محمد موسى
(١٣) حوريات البحر ❖ إدوار الخراط
(١٤) حواس خاسرة ❖ منعم الفقير
(١٥) طيور جديدة... لم يفسدها الهواء ❖ طارق إمام
(١٦) سراب التريكو ❖ حلمي سالم
(١٧) صورة شخصية في السبعين ❖ جان بول سارتر
(١٨) ٠٠٠ وليلة ❖ صفاء فتحي
(١٩) أيورق الندم ❖ سعد الحميدين
(٢٠) في البحث عن لؤلؤة المستحيل ❖ د. سيد البحراوي
(٢١) الدليل اللغوي العام ❖ سليمان فياض
(٢٢) الأفعال العربية الشاذة ❖ سليمان فياض
(٢٣) قصة الأدب الفرنسي ❖ د. أمينة رشيد
(٢٤) معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث ❖ توم شيتوايند
(٢٥) لماذا؟ ❖ إدوار الخراط
(٢٦) الكتابة ❖ مرجريت دوراس
(٢٧) معجم الجحيم ❖ سيف الرحبي
(٢٨) في مستوطنة العقاب ❖ فرانز كافكا
(٢٩) غواية موتي ❖ سلوى نعيمي
(٣٠) أصوات مراكش ❖ إلياس كانيتي
(٣١) إن تغنت القصائد أو انطفأت فهي بي ❖ فوزية شويش السالم

(٣٢) أبعد من زنجبار ❖ محمد الحارثي
(٣٣) أناشيد ❖ محمد يوسف
(٣٤) فضاء المراثي ❖ عبد الله السمطي
(٣٥) المشي أطول وقت ممكن ❖ إيمان مرسال
(٣٦) فحم التماثيل ❖ محمد عيد إبراهيم
(٣٧) فوضى لا أتقنها ❖ محمد عباس
(٣٨) تشكيل الأذى ❖ ميسون صقر
(٣٩) بريق الرماد ❖ منير رمزي
(٤٠) مجد أبي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ١)
(٤١) قصر أمي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٢)
(٤٢) زمن الأسرار ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٣)
(٤٣) زمن الحب ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٤)







يوم بعد آخر تمتد هامة الأولاد الصغار وهم بذلك فخورون أمّا أنا فلا أدري إذا كانوا محقون في ذلك، ولكن الأمور في النهاية يجب أن تكون هكذا ولا أستطيع أن أغير في ذلك شيئاً. فهم يحيون حيواتهم الخاصة بهم ؛ في المدرسة يمثلون شخصيات مختلفة تماماً عن تلك الشخصيات التي يمثلونها حين يعودون في المساء إلى منازلهم. هناك يرتبطون بصداقات جديدة لايعرف آباؤهم عنها شيئا، ويحافظون بشدة على أسرارهم الصغيرة. لذا ارتأيت أن أصف هذه الفترة من حياتنا في هذا الكتاب، فهي جدّ مهمة لأنها بمثابة ميلاد ثان. ففي تلك اللحظة نبدأ إدارك أنه ليس هناك شيئا سهلاً وأنه لا يكفي المرء أن يبكي على كتف أمه ليحصل على مايريد.

مارسيل بانيول

